

سلسلة الرحلة إلى الثقلين

(١٦)

# تاريخ الشيعة بين المؤرّخ والحقيقة

تأليف

الدكتور نور الدين الهاشمي

مركز الأبحاث العقائدية



دليل كتاب :

|                                               |     |
|-----------------------------------------------|-----|
| مقدمة المركز                                  | ٧   |
| مقدمة المؤلف                                  | ٩   |
| الفصل الأول : الخطاب التاريخي من أين؟         | ٢١  |
| التورخة!                                      | ٢٣  |
| التاريخ والحداثة                              | ٢٩  |
| التاريخ المقدس                                | ٣٣  |
| التاريخ الإسلامي الثابت والمتحول              | ٣٧  |
| التغيير التاريخي                              | ٥١  |
| الفصل الثاني : ابن كثير والتاريخ              | ٥٧  |
| ابن كثير ... المحدث المؤرخ                    | ٥٩  |
| ابن كثير وابن تيمية وجهان لعمله واحدة         | ٦٨  |
| شطحات ابن تيمية التاريخية                     | ٧١  |
| وقفه أخيرة                                    | ٧٩  |
| الفصل الثالث : ابن كثير ... الوهم والحقيقة    | ٨٩  |
| لحظة الوفاء                                   | ٩٢  |
| ابن كثير يتناقض مع نفسه                       | ٩٤  |
| ابن كثير وأحداث السقيفة                       | ٩٥  |
| سعد بن عباد وابن كثير                         | ٩٨  |
| ابن كثير والإمام علي عليه السلام              | ١٠٣ |
| الإمام علي عليه السلام والمؤاخاة              | ١٠٦ |
| علي وآل البيت عليهم السلام                    | ١١١ |
| الإمام علي عليه السلام والبيعة                | ١١٤ |
| طلحة والزبير في مواجهة الإمام علي عليه السلام | ١١٩ |
| خصائص الإمام علي عليه السلام                  | ١٢٥ |
| الفصل الرابع : قراءة نقدية .. نموذج أحمد شلبي | ١٣١ |

ص:٣

التشيّع والفرس ١٣٧

شخصية عبد الله بن سب ١٤١

شلبى والتاريخ ١٤٥

الفصل الخامس : التشيّع ... تاريخ مذهب ١٦٧

التشيّع والآخر ١٦٨

الشيعة والتاريخ ١٨١

الفصل السادس : النظام السياسى .. نظرية الولاية فى الفكر السياسى الإسلامى

٢٠٧

الفكر السياسى الاوروبى ٢٠٩

الفكر السياسى الإسلامى والآخر ٢١٧

الإمامة ... المجتمع والحقيقة ٢٢٩

المهدى حقيقة ٢٥٣

الخاتمة ٢٦٥

ص:٤

مقدّمة المركز :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة على خاتم

المرسلين محمّد وآله الغرّ الميامين

من الثوابت المسلّمة في عملية الب ناء الحضارى القويم ، استنادُ الأُمَّة إلى قيمها السليمة ومبادئها الأصيلة ، الأمر الذى يمنحها الإرادة الصلبة والعزم الأكيد فى التصدّى لمختلف التحديات والتهديدات التى تروم نخر كيائها وزلزلة وجودها عبر سلسلة من الأفكار المنحرفة والآثار الضالة باستخدام أرقى وسائل التقنية الحديثة .

وإن أنصفنا المقام حقّه بعد مزيد من الدقّة والتأمّل ، نلاحظ أنّ المرجعية الدينية المباركة كانت ولا زالت هى المنبع الأصيل والملاذ المطمئن لقاصدى الحقيقة ومراتبها الرفيعة ، كيف؟! وهى التى تعكس تعاليم الدين الحنيف وقيمه المقدّسة المستقاة من مدرسة آل العصمة والطهارة عليهم السلام بأبهى صورها وأجلى مصاديقها.

هذا ، وكانت مرجعية سماحة آية الله العظمى السيّد على السيستانى - مد ظلّه - هى السبّاقة دوماً فى مضمار الذبّ عن حمى العقيدة ومفاهيمها الرصينة ، فخطت بذلك خطوات مؤثّرة والتزمت بramerج

ص:٥

ومشاريع قطفت وستقطف أينع الثمار بحوله تعالى.

ومركز الأبحاث العقائدية هو واحد من المشاريع المباركة الذي أسس لأجل نصره مذهب أهل البيت عليهم السلام وتعاليمه الرفيعة.

ولهذا المركز قسم خاص يهتم بمعتنقى مذهب أهل البيت عليهم السلام على مختلف الجهات ، التي منها ترجمة ما تجود به أعلامهم وأفكارهم من نتاجات وآثار - حيث تحكى بوضوح عظمة نعمة الولاء التي من الله سبحانه وتعالى بها عليهم - إلى مطبوعات توزع في شتى أرجاء العالم.

وهذا المؤلف - تاريخ الشيعة بين المؤرخ والحقيقة - الذي يصدر ضمن « سلسلة الرحلة إلى الثقلين » مصداق حيّ وأثر عملي بارز يؤكّد صحة هذا المدعى.

على أن الجهود مستمرة في تقديم يد العون والدعم قدر الإمكان لكلّ معتنقى مذهب الحقّ بشتى الطرق والأساليب ، مضافاً إلى استقراء واستقصاء سيرة الماضين منهم والمعاصرين وتدوينها في « موسوعة من حياة المستبصرين » التي طبع منها ثلاثة مجلدات لحدّ الآن ، والباقي تحت الطبع وقيد المراجعة والتأليف ، سائلين المولى تبارك وتعالى أن يتقبّل هذا القليل بوافر لطفه وعنايته.

محَمَّد الحسّون

مركز الأبحاث العقائدية

٢٨ جمادى الآخرة ١٤٢٧ هـ -

Site aqaed.com /  
Mohammad  
Muhammad@aqaed.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

حتى نفهم التاريخ

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

هل نكون متطرفين فنعلن أنه لا علم إلاّ علم التاريخ؟!

قد تكون هذه الأطروحة واردة ، ولم لا؟! خصوصاً في ظلّ ما يلقيه التاريخ وتمحوراته

الزمانية على الحياة البشرية من انعكاسات ، بحيث يعكس تلك الصيرورة البشرية والتطوّر

النتائج عنها من ذلك المجتمع البدائي الذي كان الإنسان فيه بالكاد يجد قوت يومه حيث

يصارع قساوة الطبيعة وظروف الحياة إلى زمان صارت فيه إمكانية الراحة المادية متاحة ،

تُظهر لنا بذلك التفوّق البشري على معطيات الطبيعة تحت عامل الحاجة والبحث عن

إمكانيات أفضل وطريقة عيش أحسن.

وننتج عن هذا تطور في العقل البشري ، هذا العقل الذي لم يقف فقط عند الإشباع الحسي

للذات البشرية ، بل تعداه إلى اختراق النزوات

ص:٧

الماديةً باحثاً عن الاكتمال الروحي المرتبط بالمعنى العقلي والنفسي ، لـ يبرز نفسه فى مرآة التاريخ كحالة معرفية تقنية ؛ أى أن المعطى المعرفى الذى ينتج يلقى بظلاله على المعطى المادى فتقع آثار المعرفة على المادة ، فترفع هذه الأخيرة مستوى نوعية وقدرة المعرفة المادية.

وقد نعلن واقعية هذه الحقيقة إذا توقفنا عند بُعدها الثقافى ، وحصرنا التاريخ فى الأحداث والوقائع ، بحيث يتجلى لنا هذا فيما أوردته كتب التاريخ وما سطره المؤرخون ، ويكون بذلك التاريخ على حد قول ميشله : هو معرفة الدقائق والخصائص والمميزات التى تعطى للواقع صبغته الوجودية ؛ أى أنه ( الواقع ) يقرر بالشكل الذى يدون ويصير بهذا علم التاريخ ، ويقصد هنا التاريخ الرسمى ممارسة فعل تعسفى وقمعى على أحداث الواقع ليتكيف مع طبيعة الحالة السياسية المسيطرة فى تلك الحالة.

قد يكون هذا منطق المؤرخ ، أى أنه ينسجم وذاته بحيث يعكس واقعه كمؤرخ نا طق باسم الجهة التى يعلن الانتساب إليها ، سواء كانت هذه الجهة سياسية فيكون المؤرخ ممثلاً لها وهذا ما نجده على أرض الواقع بحيث صارت أغلب التواريخ السائدة معبرة عن سياسة عصرها والحامية لها ، أو ممثلة لتيار فكرى سائد فى زمانها ، ويظل الجمهور محروماً وأسيراً للنخبة الحاكمة ، ويبقى متأثراً بطبيعة هذه النخبة ومدى ملاستها للحقيقة ، لأن الكلام فى هذا المجال أوجب التمييز والتفريق فى التاريخ نفسه ، يعنى بين التاريخ المروى أو باصطلاح آخر مادونه المؤرخ ، والتاريخ الواقعى وهو ما حدث كوقائع حقيقية.



ويبقى تدخل المؤرخ في هذه الوقائع هو المحدد الحقيقي لمصير التاريخ ، سواء بعرض الواقعة كحادثة حقيقية وإدراجها في المدونة التاريخية بالشكل الذي حدث ، أو الحاق هذا المصير إلى عالم التيه التاريخي وإدخال المجتمع في تعسف قد يكون معرفياً ، مما يجعل الناس يعيشون منذ تحريف المؤرخ لذلك الحدث على كذبة قد تكون قاصمة لوجودهم الديني والروحي . والأمثلة على هذه متعددة في كل التواريخ العالمية ، وعلى رأسها التاريخ الإسلامي.

وأحد الأمثلة الواضحة التي تدل على اعطاء المؤرخ الحكم قبل التفصيل في الخبر مثلاً : ما أورده المؤرخ المغربي الناصري في كتبه قائلاً : ثم دخلت سنة تسع وثمانون ومائة وألف ، فيها كانت الفتنة العظمى التي هي خروج العبيد على السلطان وبيعته لابنه المولى يزيد وكان السبب في ذلك .. (١).

ويعلق الدكتور عبد الله العروى على هذا الخبر بقوله : يبدأ الناصري الذي يروى بوسائط عن شاهد عيان بنعت الحدث ( الفتنة العظمى ) قبل أن يفصل الأحداث التي تستحق هذا النعت (٢).

هذا الموقف هو ناتج عن ذهنية مسبقة أطرتها الوضعية السياسية والثقافية لتلك الحقبة ، بل أكثر من هذا ، فبالإضافة إلى قراءة الأحداث والصاق الحكم عليها سارعت يد المؤرخ إلى شرعنة الوضع القائم.

---

١ - عبد الله العروى ، مفهوم التاريخ : ٢ / ٢٤٣.

٢ - المصدر السابق.

وقد تجلى هذا خصوصاً في التاريخ الإسلامي ، حيث لم يلعب المؤرخ دور الباحث عن أحداث التاريخ ، بل مارس إلى جانبه دور الفقيه والقاضي.

وبلاحظ هذا مثلاً عند الطبري حيث أنه كان يضيف الشرعية على الواقع خلال ذكره للوقائع التاريخية ، وخصوصاً ما أنتجه هذا الواقع من التقديس ، والذي وقف حجر عثره أمام تحرر الفكر والبحث عن الحقيقة.

لهذا ، فالانطلاقة نحو التحرر المعرفي هو ما جاء على قول ، حيث أنه ذهب إلى أن علم التاريخ يبدأ بتقليد ، وقد نعبر عنها بصيغة أخرى وهي أن علم التاريخ يبدأ بتحريك الزمن التصوري للأمم ، وهي إنطلاقة الفعل المعرفي كآلية حتى يخرج التاريخ وأحداثه من التجميد الممارس عليه فيحدث ثورة في بنيته كي تعطى للواقع ديمومته واستمراريته ، مما يواكبه تحريك للزمن التاريخي.

وقد نجزم كون تحريك هذا الأخير هو الباعث على إيجاد المسار الصحيح للتطور.

وقد نلامس هذه الحقيقة بوضوح في النهضة الأوربية بعد ما أعلنت الثورة على المقدس المزور ، فتفاعلت الثورة الفكرية والثقافية مع الوقائع التاريخية لتخرج أوربا بذلك من ذلك الجمود المقيت والتخلف الذي كان سائداً آنذاك ، ولا ندعوا في كلامنا هذا بالثورة على المطلق من الدين ، لأن التفاوت بين الديانتين واضح عند الجميع.

لكن التاريخ الإسلامي كما أسلفنا مسبقاً قد تعرض لعملية تحوير ،

ص: ١٠

فألحق بالمقدس من الدين مقدسات تاريخية لها نفس الأثر الذي لعبته الخرافات التي كانت تحبس الفكر المسيحي عن التحرك ؛ وهي اتحاد السلطة السياسية مع السلطة الثقافية ، لكن إعلان الثورة على هذه الثنائية وتحقيق التحرر الكامل للسلطة الثقافية هو المنبع الذي حرك الزمن الأوربي.

إن تحريك هذا الزمن في التاريخ الإسلامي ينطلق من الفصل بين نقطتين في الفكر الإسلامي ، وهو : ما المقصود بالمقدس الإسلامي؟ وما حدود هذا المقدس؟  
إن هذه النقطة جوهرية ، بحيث أن مجموعة من الأشياء أكتسبت قدسيتها من قوتها كواقع ، سواء كأشخاص وهذا ما أظهر لنا مثلاً عدالة الصحابة (١) رغم ما يخالف هذا المبدأ الطبيعة البشرية للأشخاص وكيف سرى هذا المفهوم من عدالة النبي وعصمته إلى عدالة وعصمة أصحابه ، أو كنظام سياسي يصبغ على نفسه الصبغة الدينية لكي يكتسب مشروعيته على الرغم من عدم وجود مبرر شرعي له.

وقد بين هذا المفهوم أحد الفقهاء الشافعيين وهو بدر الدين بن جماعة ، حيث قال « فإن خلا الوقت عن إمام فتصدى لها من هو ليس من أهلها وقبل الناس بشوكته وجنوده بغير بيعه أو استخلاف ، انعقدت بيعته ولزمت طاعته ، لينتظم شمل المسلمين وتجمع كلمتهم ، ولا يقدر في ذلك كونه جاهلاً أو فاسقاً في الأصح ، وإذا انعقدت الإمامة بالشوكة

---

١ - للتفصيل أنظر : الثابت والمتحول « الفصل الأول ».

والغلبة لواحد ، ثم قام آخر فقهر الأول بشوكته وجنوده ، انعزل الأول وصار الثاني إماماً لما قدمناه من مصلحة المسلمين وجمع كلمتهم (١).

والشيء الجلي الذي يمكن استخلاصه من هذه المقولة وغ يرها كثير في الآثار الإسلامية ، وهو محاولة لتبرير الواقع والقبول به كأمر حتمي ، بعد تناسي التجليات التي يمكن أن يسقطها على جميع المستويات المرتبطة بالمجتمع.

وقد لا يفطن الدارسون لما يمكن أن يؤدي إليه هذا التبرير ، فيصير بذلك إلزاماً طرح سؤال مهم طرحه أفلوطين في ميدان البحث التاريخي ، لأن الهدف المتوخى منه هو وضع الاصبع على الخلل في هذا الركam الملعوم ، وبالتالي فأى مذهب يؤدي بنا إلى حيث يجب أن ننطلق (٢).

لقد شكلت هذه النقطة الهاجس لكل المؤرخين من أجل الخروج من المأزق الحالي ، ومن هذا التوقف الإضراري للتاريخ الإسلامي وبحثهم الجاد حول كيفية تفعيله. لكن رغم كل ذلك لازالت التنظيرات منحصرة في العقلية اللاتاريخية

---

١ - بدر الدين بن جماعة ، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ، مخطوط ، نشرته مجلة Islamica ١٩٣٥ ص ٣٥٧. ويمكن مراجعة كل ما كتب في ال فقه السياسي من قبيل الأحكام السلطانية وغيرها حتى تبين لك هذه التبريرات غير الشرعية.

٢ - أفلوطين ، تاسوعات أفلوطين ، التاسوع ١ ، الفصل ٢ ص ٦٦ ، ترجمة الدكتور فريد جبر ، ط ١ سنة ١٩٩٧.

للقرون الوسطى بحيث تحوّل التفاعل مع الجامد من ذلك التاريخ ، رغم ما يمكن أن تدعيه من محاولات تشويرية ، لكونها لا زالت تستنسخ النماذج القديمة ، مما يعنى الوقوف عند زمن تصورى جامد يغيب فيه الفاعل التاريخى كعنصر اجتماعى مهم.

ويبقى بذلك الطرح التاريخى الموجود عبارة عن تاريخ افراد لا بمعنى الشخص الواحد ، ولكن أحادية الفرد داخل تكتل معيّن ( سلطوى ) والذى أعطى انطباعاً تاريخياً فردانياً يوافق تمام المرحلة التى انشأها وغاب عن التاريخ تاريخُ الجماعات.

إن الإشكالية التى يمكن أن نخلص إليها من خلال الاطلاع على المدونات التاريخية وخصوصاً منها التى كرّست تاريخ الأفراد تتمثل فى تكريس حتمية النص الرسمى وإصباغه بصبغة الاجماع ، كى يتم التوافق على حقيقته وواقعيته.

لذا يبقى المخرج الوحيد لهذه الإشكالية هو رفض هذه الحتمية ، وإدخال المبحث التاريخى موقع الشك حتى يتسنى التعامل معه من جميع النواحي.

كما أن وجود مجموعة من الحوادث والأخبار والتى كانت محل رفض التاريخ الرسمى ، وتم إبطالها وإخراجها من جريان أحداث التاريخ رغم ما يمكن أن تصل إليه من تواتر ، فالمتطلع بعين المؤرخ يجب أن ينظر إلى كون وجود هذا الحدث ليس صدفة ، ولكن احتمالية وقوع الحدث مرتبطة بتكرار نوع الخبر ، حيث لا يمكن أن يكون ذكره عبثاً ، فمثلا لو اشتهر بين الناس وقوع كسوف سنة ( س ) ، وتزايد عدد

الراوين للخبر ، فوجوده ليس مجرد صدفة ولكن شيئاً وُجد في تلك السنة جعل الناس يعتقدون بحدوث الكسوف ، وبمعنى آخر حتى لو صار الحدث التاريخي كذباً فإن الحالة تثبت بوجود أشياء تسببت في نشوء هذه الكذبة ، ومنه لا بد من دراسة كل الجوانب المحيطة بالخبر وليس فقط عين الخبر.

وأسلفنا سابقاً كون التقاطع الذي حصل بين الكنيسة ودعاء التحرير هو المدعاء لتلك الثورة المعرفية ، بعدما أحسّ الناس بجمود في الدين الذي يعتقدونه واعتباره العائق نحو التقدم. وكانعكاس على الساحة الإسلامية فإن التقاطع الحاصل والذي يجب التخلص منه هو هذا التاريخ المتجمد من أجل التحرر ، إذ أن المجتمع الذي لم يعرف ثورة علمية فإن تاريخه مجمّد يدخل الكون الزمان ويخرج منه في اللحظة كما تشير إلى ذلك كلمة وقع ، ولا يوجد فرق في هذه الحالة بين التاريخ والرواية ، الماضي والحاضر ، الفرد والجماعة (١) ... وتتميّز كذلك الدراسات بانعدام الجرأة العلمية لاقتحام ذلك الركاب التاريخي رغم الاقتناع الكامل بكون الخلل هناك موجود مخافة الوقوع في منزلقات وهمية تركبت بذهنية البعض جراء التعامل المهيب والمقدس مع التاريخ الديني ، والذي اكتسب قدسيته بإيحاءات سلطانية فأعطت له صبغة شرعية.

---

١ - مفهوم التاريخ ، عبد الله العروى : ٢ / ٤٠٣.

ومن هنا يتم فهم تردد المؤرخ إزاء الخوض فى مسائل معرفيات التاريخ ، يمشى فلا يهتم أن يعرف كيف ولماذا يمشى ، يخشى إن هو توقف ليسائل نفسه ، يسقط إما فى أحبال النظاميين ومؤرخى السلطة ، وإما فى متاهات الذات صلبة دعاء التأصيل ، ويعلم أن نطاق التاريخ محدود بما هو رسمى وما تداولته الموسوعات القديمة من جانب وبالحقيقة من جانب آخر ، وأن المفهوم لا يتضح فى الافهام إلا بالمقارنة مع كل واحد منها ، ولكنه لا يقول رغم ذلك أن النظرية على هذا المستوى من التجريد لا تفيد ، لأنّ عنده الإحتراز واجب ، ونحن قلنا ذلك منذ البداية ، لكن التاريخ لا يهتم المؤرخ وحده ، يهتم المجتمع ككل ، وهل يستطيع أن يحفظ الذكر من يجهل مزالق الفهم؟ (١)

بقى الهم الوحيد الذى يجب إدراكه هو تحديد ماهية التاريخ وقيمته ، بحيث يتم إدراجه كعلم لدراسة الشواهد والأحداث وتخليصه من الأسطورية والقدسية التى انطبع بها كى يعبر عن المحيط الطبيعى الذى أنتجه حتى يتسنى لنا أن نوحّد معرفيا علم الماضى وعلم الحاضر بإخضاع كل واحد للآخر.

إذن ، تبقى المباحث المدروجة فى الكتاب هى محاولة للثورة على المعتقد القديم والسائد وكمحاوله لإخراج دراسة تاريخ الإسلام من الحالة التى وجد عليها إلى حالة أكثر ديناميكية ، تكشف القناع عن المستور وتُفعله كى تهتز الأسس المهترئة والتى وقعت تحت تعسف

---

١ - عن عبدالله العروى بتصرف ، مفهوم التاريخ : ٢ / ٤٠٧.

التاريخ ، ومطارحة جديدة لفكر ظل طوال التاريخ يمارس حالة المعارضة على كل الأصعدة سواءً منها السياسية أو الثقافية ، ومحاولة إبراز بعض المعالم المعرفية التي حاول التاريخ الرسمى تهميشها وإخراجها من دائرة الفكر الإسلامى ، كى نستطيع الوصول إلى تاريخ جماعى تسوده سلطة المعرفة وتغيب عنه سلطة الدولة ، تاريخ يؤمن بالحوار المفتوح والذى هو منهج الإسلام ( قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ... ) [ آل عمران : ٦٤ ].

و ( ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ) [ النحل : ١٢٥ ].

لننسى آلام التاريخ الماضى تاريخ السيوف المسلطة على رقاب المعارضين حتى قال أحدهم : « إني قد رأيت رؤوساً قد أينعت وقد آن أوان قطافها وإني لأنا قاطفها ». نفتح حواراً صريحاً يجمع كل الطوائف الإسلامية كى تضع يدها على الخلل الذى جعل الأمة الإسلامية تصل إلى ما هى عليه الآن ، وذلك فى انتظار الموعود الإلهى بالخلافة الدائمة فى الأرض ( وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ) [ الأنبياء : ١٠٥ ].

إن هذه الدراسة حاولت ملامسة بعض الجوانب الغامضة من التاريخ الإسلامى ، من خلال موسوعتين تاريخيتين ، وهما : البداية والنهاية ، وموسوعة التاريخ الإسلامى . وهى ليست كافية بالشكل الذى نجيب فيه عن الـ ثغرات الموجودة ، لكن هى محاولة جادة للخروج من ذلك



الروتين الروائي الذي امتلأت به كتب التاريخ ، وإحداث نمط خاص وهو الوقوف عند علل هذا الخلل التاريخي.

وقد حاولت في كتابي هذا أن أخرج من ذلك الموقف المتبع للرواية إلى الحالة التأسيسية لمشروع يعتمد على اكتشاف الأسباب التي جعلت هذه الروايات تدرج وتوجد بهذه الحدة ، وكذلك بغية إيجاد منهج يثير الآخر في التعامل معها دون الإنطلاق منها كمقدسات ، ليتناولها من دون لحاظ قداستها حتى لا يبقى هذا التاريخ والوقائع كابوساً نتمنى أن ننفلت منه بأية وسيلة سنحت.

ويبقى هناك سؤال مطروح - وقد حاولنا الإجابة عنه من خلال هذه الدراسة بطريقة أو بأخرى وهو هل يسع التاريخ المحفوظ أن يكون بالنسبة لنا سبيلاً لإصلاح اوضاعنا المعاصرة والوصول إلى مرحلة الانجاز والتحرر من القيود التي عرقلت مسيرتنا نحو التكامل؟

نور الدين الهاشمي

مكناس

٢٨ / ٢ / ٢٠٠٠ م

١٥ ذى القعدة ١٤٢٠ هـ -

إلهى عظم البلاء وبرح الخفاء وانقطع الرجاء وضائق  
الأرض ومنعت السماء وإليك المشتكى وعليك  
المعوّل فى الشدّة والرخاء.

اللهم صلّ على محمد وآل محمد أولى الامر  
الذين فرضت علينا طاعتهم وعرفتنا بذلك  
منزلتهم ففرّج عنا بحقّهم فرجاً قريباً عاجلاً كلمح  
البصر أو هو أقرب.

## الفصل الأول

الخطاب التاريخي من أين؟

« لا تاريخ للكون ، ما نسّميه كذلك  
إنما هو في الحقيقة تاريخ تصورات  
البشر حول الكون »  
عبد الله العروى

ص: ١٩

التورخة!

كثيراً ما صيغ التاريخ ، وقيل : إن ذلك من أجل العبرة والعبر ، وكذلك من أجل حفظ وعى الأمة وذكرها حتى لا تنسى ماضيها وتبقى مرتبطة به.

لكن إلى أى حد عبّر هذا التاريخ عن وعى الأمة الحقيقي؟ لأن كتابة التاريخ تتداخل فيها الآنات ذات الاتجاهات المتعددة ، والمرتبطة باللحظة التي وافق فيها المؤرخ نفسه على صياغة مشروعه التاريخي.

فتبقى هذه المادة التاريخية معبرة بطبيعتها عن وجهة نظر المؤرخ ، وذلك على حد قول ابن خلدون : إن التاريخ نظر لا مجرد رواية (١) ، ومنه يصبح نظر المؤرخ هو المحدد لنوعية المادة التاريخية.

إذن ، فهناك علاقة وطيدة بين المؤرخ كفاعل والمادة التاريخية كأرضية لهذا الفعل ، أى أن التاريخ هو التفاعل الناتج عن التقاء المؤرخ والمعلومات المرتبطة بالماضى والتي نسميها تاريخية.

وبتعبير آخر هي مجموع المعلومات المرتبطة بالزمن الغابر الماضى ومعرفة الشخص المؤرخ بها ، ومن ثم يكون إدراكه لها ليس كلياً ،

---

١ - نقلاً عن عبد الله العروى ، مفهوم التاريخ : ١ / ٣٦ ، الطبعة ٣ ، ١٩٩٧ ، المركز الثقافى

ودليلاً على أن فى التاريخ أحداث مجهولة بفعل جهل المؤرخ لها وعدم اطلاعه عليها ، أو بفعل تجاهلها لظروف خاصة ولم تؤرخ.

وبعدها فإننا نستنتج أن التاريخ حتماً لا ينفصل عن الإنسان وبخاصة الإنسان المختص والذى اصطلح عليه بالمؤرخ ، فتقودنا النتيجة بطبيعة الحال إلى القول بأن التاريخ هو تاريخ البشر وللشعر. وكما يقال : أن التاريخ بشرى بالتعريف أى أنه استحضار يقوم به المؤرخ فى لحظة تصوير حركة التاريخ وكتابته ( الاسطوغرافيا ) ؛ وعلى حد تعبير « مارك بلوك » : أن الأحداث التاريخية هى فى جوهرها وقائع نفسية بمعنى حضور مؤثرات أثناء ممارسة التدوين والتأريخ ، والتي تعطى للمادة التاريخية صورة تعكس طبيعة الشخص المشتغل بها. ويمكن قراءة هذه المسألة من وجهة نظر علم التطور ( L'EVOLUTION ) وبالضبط مع النظرية اللامركية ( Lamarck ) فيما يخص التطور الطبيعى والتي تعتمد فى مقولاتها على تأثير الظواهر الطبيعية على ظاهر النوع المدروس ؛ أى مثلاً أن التغيير الفينوتيبى ( Phenotype ) لنبته ما فى وسط ما مثلاً فى أعلى قمة جبل ح يث قوة الرياح قوية تجعلها قصيرة الشكل ، لكن وجودها فى منطقة منخفضة حيث تزول هذه العوامل يجعلها طويلة القامة.

فكذلك حال المؤرخ والمادة التاريخية فهو يهادن الأجواء الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المحيطة به ولا يجد مفراً من الخضوع لها من أجل الحفاظ على مكانته ومنزلته داخل الوسط فيصبح بذلك كل ما دُون هو ما أراده المؤرخ لهذا الإنسان ، وليس ما يريده

الإنسان أى أن موضوع التاريخ ليس ما يريد الانسان بل هو تصورنا لما يريد (١).  
ونصل إلى نتيجة حتمية وهى أن التاريخ ليس ثابتاً ككتابة ، بل هو متغير على حسب طبيعة  
المؤرخ. فتاريخ اليعقوبى (٢) مثلاً ليس فيه من الشبه ما يجعله مثيل الطبرى نظراً لتدخل  
الشخصية فى المعطيات المتواجدة ؛ ومنه يجب أن نعلم أن التاريخ لا يكتب مرة واحدة بل  
تعاد كتاباته باستمرار تحت إحياء وضغط اسئلة يلقيها الحاضر على الماضى ، وتتجارب فيها  
النزاعات الفردانية لكل شخص ، وبكل تلاوينها ، ويكون الخاسر فيها هو الإنسان الذى من  
أجله صيغ هذا التاريخ.

والملاحظة التى يجب أن لا نغفل عنها وعليها أن نأخذها بعين الاعتبار والجديّة هى أن كبار  
المؤرخين كانوا رجال تاريخ بمعنى مزدوج ؛ رجال سياسة ، ورجال دراسة ، ذاكرين التاريخ  
ومؤثرين فيه ، بل لا يوجد مؤرخ محترم لم يحاول أن يلعب دوراً سياسياً . ومن ثم تغيب  
المصادقية للمادة التاريخية بحيث تصبح فى غالبيتها تمثيلاً ورؤية للقوة المسيطرة ، يغيب فيها  
تاريخ المعارضة. ولا يقف الأمر عند هذا

---

١ - تولستوى نقلاً عن عبدالله العروى مفهوم التاريخ ط ٣ سنة ١٩٩٧ المركز الثقافى العربى.

٢ - اليعقوبى الذى كان له الدور البارز فى إحداث تجديد فى صميم الكتابة التاريخية ( نقلاً  
عن محنة التراث الآخر ص ٢٥ ط ١ سنة ١٩٩٨ دار الغدير ) ورغم ذلك همش ولم يعتد به.

الحد ، بل يصبح تصوير الم عارضة بالشكل الذى تريده السلطة أو المؤسسة الفاعلة ، وهذا ما يصادف قول « تولستوى » الذى ذكرناه سالفاً.

وأثناء فعل الكتابة التاريخية ( الاسطوغرافيا ) والتي تعتمد فى أساسها على المرويات يدخل الراوى كفاعل أساسى فيه ، حيث يستحضر فى مروياته لفظ الراوى أى بالنمط التقليدى على نمط قال فلان ، حدثنا فلان ، أو سمعت فلان.

وهنا تحضر شخصية المؤرخ بقوة إذ أنه لا يروى الخبر بقدر ما يستحضر الغائب (١) وهذا الغائب محل استفهام ، أى كيف يمكن قبول قول هذا ورفض قول ذاك؟ وماهى المعايير المعتمدة فى تحديد أهلية الراوى للرواية؟

وهنا تتداخل الأنات وتدخل السياسة من بابها الواسع وتتبعها النعرات الايديولوجية فلهذا أصبح علم الرجال ضرورة حتمية.

والأمر هنا ليس مرفوضاً لذاته ، بل لطريقة تعاطى المؤرخين والعلماء المختصين به . فيصير بذلك الطعن فى الشخص لمجرد ولائه الايديولوجى والذى بالطبع يخالف الن مط السياسى المسيطر.

ويقال مثلاً عنه مردود الرواية لأنه رافضى خبيث والتاريخ الإسلامى ملئ بهذه النماذج.

---

١ - كلود بروود « التاريخ فى ممالك أغنى من ساحل العاج أنال » عدد ٤ ، ١٩٧٩ ص ١١٢٤ بواسطة عبد الله العروى.

فمثلاً إذا اخذنا السدى وهو أحد الثقات الشيعة ، يقول عنه الجوزجاني : حدثت عن معمر عن ليث : كان بالكوفة كذابان فمات احدهما السدى والكلبي (١) ورغم توثيق بعض كبار علماء السنة له كابن حنبل يذكر الجوزجاني فى شأن سعيد بن كثير : « سعيد بن كثير فيه غير لون من البدع وكان مخلطاً غير ثقة » (٢).

ويأتى ابن حجر ليبرر المسألة فى قوله « سعيد بن كثير بن عفر روى بالتشيع » (٣) وكتب التاريخ حبلى بهذه النماذج.

وكمثال آخر للرواة ، وهم الرواة الذين تقبل رواياتهم رغم تجريح العموم لهم ، لأن مروياتهم تخدم الوضع القائم والذى يراد صياغته للناس . كمثال على ذلك مرويات سيف بن عمر التميمى والتى لم يتخلص منها التاريخ لحد الآن.

إذن يظهر لنا جلياً بأننا نقف فوق تاريخ مأزوم بتداخل العناصر الفاعلة فيه والتى اعتقد أن الفاعل فيها هو المؤرخ والذى لم يصل إلى حد الاحترافية وتعزى النزاهة بحيث أن المؤرخ المحترف فى الأصل

---

١ - أسد حيدر الامام الصادق والمذاهب الأربعة : ٣ / ٥١٠ ، الطبعة ٣ ، ١٤١١هـ - الناشر مكتبة الصدر بطهران.

٢ - الجوزجاني : تذكرة الخواص ٢ : ١٤ نقلاً عن الامام الصادق والمذاهب الأربعة.

٣ - المصدر السابق وذكر ابن حجر الهيثمى فى صواعقه المحرقة حديثاً مرفوعاً يقول : « يكون فى آخر الزمان قوم يسمون الرافضة ، يرفضون الإسلام فاقتلوهم فإنهم مشركون » ص ٥ نقلاً عن محنة التراث الآخر.



والعمق دائماً حافظ ، محافظ ، ومتحفظ (١).

إذن كسؤال جوهرى إلى أى حد كانت هذه الشروط متوفرة فى المؤرخ الإسلامى؟ ما هى

المحددات الرئيسية لشخصية المؤرخ الإسلامى؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة ، لابد من الإشارة إلى التوجهات الحداثية فى قراءة التاريخ

الإسلامى ، هل استطاعت أن تخرج من بوتقة التقليد والعماء الايديولوجى لصياغة نزيهة وفق

ما يريده البشر لا وفق ما يُراد للبشر؟

---

١ - عبد الله العروى ص ٤٣ المصدر السابق.

ص:٢٥

## التاريخ والحداثة

لقد أصبح التاريخ الإسلامى مادة خصبة لكل الدراسات نظراً لما يحوى فى داخله من معطيات ؛ أى أن خصوبة هذه المادة التاريخية جعلت كل المدارس تطمح لقراءتها وتحويرها بالشكل الذى يفرضه منهج الدارس ، ومحاولة عرضه على الأشخاص تارة كحل جاهز بعد إزالة غبار التخلف عنه وتقديمه كقراءة بديلة وموافقة لمتطلبات العصر ، وتارة فقط بطرح أسئلة عليه وتقديمه كمادة ملغومة يجب التعامل معها باحتياط والسعى لانتقاء ما نراه الأفضل ؛ وذلك طبعاً وفق الحمولة المعرفية ورمى الباقى خارج التاريخ .

فتنوّعت بذلك القراءات مع اختلاف المناهج والآليات . وكما استخلصنا فى المقام الأول على أن هذه المادة التاريخية الموروثة هى إنتاج فرضته اللحظة الزمنية والمكانية للمؤرخ ، نصل حتماً إلى كون هذه المادة أصلاً تشكّل مشكلاً فى حد ذاتها ، باعتبار تلاعبات الزمن فيها والتي هى فى الواقع تلاعبات المؤرخ نفسه .

نضيف إليه كذلك الإشكال الثانى الذى له نفس الأهمية (١) ، وهو

---

١ - راجع ادريس هانى ، محنة التراث الآخر ص ٢٤ ، ط ١ ، سنة ١٩٩٨ ، دار الغدير .

الفاعل فى المادة التاريخية ، ذلك الحدثوى المتسلح بمعارف مدرسته ومناهجها والساعى لايجاد حل لهذه الأزمه.

لكن مع الأسف لم يتغيرأى شىء فأصبح ذلك الطابع السياسى القديم والذى هو مؤطر حتماً لايدلوجية السلطة الحاكمة المقنعة مُعبراً عنه بشكل ايدولوجى أوضح ؛ أى فقط بتغيير صفه المهيح. فإذا كان المؤرخ القديم يسع ى لإثبات الشرعية للكيانات السياسية القائمة انذاك ، وعلى حد تعبير ادريس هانى بأن التاريخ العربى قتلته السياسة ، فإن القراءة التاريخية الحدائيه غلب عليها الطابع الايدولوجى ، وأصبحت المادة التاريخية أسس لمجموعة من النظريات ، كالماركسيه ، البنيويه والمناهج الإستملوجيه ، فجاءت الخزانه العربيه والإسلاميه زاخره بعدة قراءات ابتداءً من النزعات الماديه لحسين مروه ونقد العقل العربى لمحمد عابد الجابرى إلى من العقيدة إلى الثورة لحسن حنفى.

ولكن يبقى سؤالاً جوهرياً وهو : إلى أى حد استطاعت هذه القراءات أن تجيب على الإشكالات الأساسية للتاريخ الإسلامى؟

فإذا كان محمد عابد الجابرى يحاول استنطاق المعقول العقلى من داخل التاريخ الإسلامى بآليات ابستمولوجيه وبنزعه عقلانيه فعلى الرغم من وسع سعته فإنه جاء برغماتيا فى نفس الوقت ، وتظهر من داخل نصوصه النزعه الايدولوجيه المفرطه ، وكما قال عنه على حرب فى كتابه نقد النص على أنه يحاول أن ينتصر للمذهب السننى على الشيعى ولل فكر المغربى على نظيره المشرقى ، فتراه فى كتاباته يجهد نفسه لجعل الغلبة للعالم الإسلامى السننى المغربى ومحاولة إيجاد صيغه

مشروع إسلامي يبنى أساسه على علماء وفلاسفة من أهل المغرب كابن رشد على مستوى الفلسفة ، وابن حزم على مستوى الفقه ، والشاطبي على مستوى الأصول ، مما جعل قراءته تنطلي بُعداً أيديولوجي يغيب فيها المعقول العقلي على حد تعبيره . ويطبع عليها الانتقائية في التعامل مع المادة التاريخية ، وذلك وفق الميولات المعرفية لـ ه ، فاقوقف شطراً كبيراً من المعرفة الإسلامية ووسمها باللامعقول الديني علماً أن رموزها المعرفية أبدعوا في مجالات المعرفة (١) ولكن نظراً لطابعهم الأيديولوجي دخلوا في دائرة الغنوصي الأفلوطيني.

وقد تكون المدرسة الماركسية منصفة باعتبار قربها من طبقة المعارضة ، ولكنها أفرطت في التعاطي مع الجانب الاقتصادي والمادي ، وهذا ما نراه من خلال كتاب النزعات المادية لحسين مروة أو كتابات جل الماركسيين الذين جعلوا المشروع يأتي غير كامل وغير ملم بالجوانب الأخرى والتي لها الأهمية القصوى كالجوانب الاجتماعية ، والثقافية ، التي تلعب دوراً أساسياً في التاريخ العربي الإسلامي وإحدى مقوماته الأساسية.

أما حسن حنفي فقد عرف طريقه وحدد الوجهة الصحيحة حينما تحدث بمفاهيم جديدة وجذابة والتي تتمثل في هدم التراث وإعادة بنائه ، ومحاولة تنوير هذا التراث ، فإنه لم يخرج عن الإطار العام

---

١ - راجع هنري كريان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ترجمة نصير مروة وحسن قبسي الطبعة ٢ سنة ١٩٩٨ دار عويدات للنشر.

والتمثل فى النزعة الايدولوجية لطروحاته ، وكما يعبر عنها هو نفسه وبطريقه لا تتبره بكونه المعتزلى الوحيد حيث جعل مركز فكر التراث العربى وا لإسلامى هو الفكر الإعتزالى وعلى ضوءه تتم قراءة الأحداث التاريخية مما يعطيه بعداً برغماتيا فى التعاطى مع الأحداث التاريخية ؛ فيغيب فيها النقد الموضوعى والقراءة الصريحة.

يظهر لنا إذن على أن الذاتية والأنا رغم تغير الزمان والمكان فإنها تبقى حاضرة بفعلها على المادة التاريخية ، وكما قال « كولنجورد » كلما خضع الإنسان فى تصرفه لطبيعته الحيوانية ، لغرائزه وشهواته حاد عن شرعة التاريخ (١).

ويبقى إذن أن نستلخص سؤالاً جوهرياً يحدد أزمة التاريخ فى الفكر الإسلامى العربى وهو كيف تعاطى المؤرخ الإسلامى مع الأحداث التاريخية؟ وماهى المحددات المتداخلة فى إنتاج هذه المادة التاريخية؟

---

١ - عبد الله العروى ، مفهوم التاريخ : ١ / ٣٦ ط ٣ ، سنة ١٩٩٧ ، المركز الثقافى العربى.

## التاريخ المقدس

ماذا نقصد بالتاريخ المقدس؟

لعل ما يواجه أى دراسة هو صعوبة تحديد المصطلحات وإدراجها بالشكل الذى يناسب طبيعة الموضوع المدروس. وليس هناك من شك بأن الدراسات التاريخية تبقى مجالاً خصباً لصياغة مفاهيم واستعمالها وفق الحالات الزمكانية للمادة المدروسة.

وكما أسلفنا سابقاً وفق المناهج المعتمدة والباحثة فى التراث ، آثرنا فى هذا المبحث استعمال مصطلح التاريخ المقدس لما له من دلالة عميقة وخصوصاً بالنسبة لتاريخنا الإسلامى ، والذى أحيط بنوع من الهالة والقدسية أصبحت فيما بعد حاجزاً للغور فى أعماقه ، والذى يؤثر سلباً على المردود المجتمعى العام ؛ بحيث لا يستطيع ممارسة النقد الذاتى ومن ثم لا يمكنه الخروج من بوتقة الظلم والذى سيؤدى حتماً إلى السقوط فى التخلف.

وهذا ما يمكن ملاحظته بالنسبة للمجتمع الإسلامى . بحيث ظل لسنوات طوال رهين قدسيّة مزيفة محاطة بأسلاك كهربائية ، لتأتى فى الأخير على نهاية الأمة وسقوطها فى التبعية والانحطاط.

إن التاريخ لم يقصد به تأريخ الأحداث والوقائع الماضية فهذا بحد

ذاته يعد حصراً لأن الأمم السابقة لم تكن تملك السنوات فقط ، بل كانت تملك كل مقومات المجتمع الثقافية ، السياسية ، الاقتصادية ، وإن تم حصرها في التراث فهذا التراث هو نتاج عملية تأريخ للمجتمعات القديمة والتي كانت تخبرنا عن العالم الفلاني في السنة كذا وعن الحاكم الفلاني والحدث كذا فأعطانا كمّاً هائلاً توارثته كتب التاريخ ، فأخذ بذلك التراث صبغته التاريخية من ثم نستطيع أن نقول أن التاريخ هو علم تدوين مجموع الأحداث الماضية والحافات الثقافية ، الاقتصادية ، والسياسية ، والتي تكون في مجموعها المادة التاريخية يبقى إذن أن نفصل معنى اللفظ وهو المقدس.

إن دلالة القدسي تعني ثبوتية الشيء ، فمثلاً حينما نقول حديث قدسي فهو ثابت القدسية من حيث هو صادر عن الله تعالى ، والقدسية هي صفة ناتجة عن الهالة التي أحيط بها الشيء المراد تقديسه . فإذا قلنا مثلاً التاريخ القدسي فهو ثابت القدسية ويستحيل زعزعة قدسيته وهذا ما صار مع التاريخ الإسلامي بحيث أحيط بنوع من الهالة والقدسية ومن ثم استحالة الأمر لولوج هذا الميدان ونقده نقداً منطقياً وبناءاً.

حتى أصبح المؤرخ يستعيز من ذكر أشياء قد تمس في قدسية هذا التاريخ ؛ وبالضبط في رجالاته ، لما أحيط به من القدسية والتعظيم فاقت حد المعقول وتحولت إلى شيء ثابت راسخ في العرف التاريخي ، والذي حتماً جعله في ذهنية المسلم راسخاً لا يستطيع مسه أو التحدث فيه أو ذكره بمجرد كلمة يخیل بها أنا تمس كرامته وقدسيته ، وهذا ما عي عنه أحد شيوخ المؤرخين المسلمين حيث قال :

« في هذه السنة - سنة ٣٠ هـ - كان ماذكر من أمر أبي ذر ومعاوية وأشخاص معاوية أموراً كثيرة (١) كرهت ذكر أكثرها » ، ثم يأتي بعد ذلك فيقول : « وأما الآخرون فإنهم رَوَوْا في سبب ذلك أشياء كثيرة وأموراً شنيعة كرهت ذكرها » (٢).

إذن هكذا يعبر المؤرخ عن نفسه وهكذا يتعاطى مع المادة التاريخية بأسلوب انتقائي من أجل الإبقاء على قدسية مصطلحاته فيتجاوز القوانين الطبيعية التي تعطى لنا نوعين من المفاهيم الثابتة والمتحولة ؛ بحيث أصبح للمؤرخ هم وحيد هو كيفية الحاق هذا المتحول إلى نلت .

---

١ - لمعرفة هذه الأمور التي لم يذكرها الطبري راجع كتاب تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي للأستاذ صائب عبد الحميد ص ٩٩.

٢ - تاريخ الطبري : ٤ / ٢٨٣ - ٢٨٦ .

ص:٣٢



## التاريخ الإسلامى الثابت والمتحول

لقد أخذ التاريخ الإسلامى منهجاً خاصاً فى التعامل وفى تدوين الأحداث وأخذ الرواية عن الراوى ، بحيث تم تطبيق مناهج الحديث فى أخذ الرواية . فأصبح التاريخ هو الوجه الآخر للحديث فتم الإعتماد على طرق الإسناد ، ودراسة سلسلة الرواء وإخضاعها للشروط التى أحدثها المحدثون ، وأى شخص يخالف جزءاً من هذه الشروط لا تأخذ منه الرواية. يبدو الامر مغرباً جداً ، بحيث لن يدخل أدنى شك فى كون ما يصلنا من الروايات يتمتع بنسبة كبيرة إن لم نقل تامة من الصحة ، وبهذا نطمئن بامتلاكنا تاريخاً سليماً بحيث يجعل الثابت على ثبوتيته والمتحول متحولاً حسب متغيرات الزمان والمكان. لنقف قليلاً مع هذا المنهج الذى اخترعه المحدثون فى أخذ الرواية ، فقد تم الاتفاق على مجموعة نقاط (١) :

١ - لا رواية عن أهل البدع.

٢ - لا جرح فى الصحابة.

---

١ - عبد الله العروى ، مفهوم التاريخ : ١ / ٤١ منشورات المركز الثقافى العربى.

٣ - جواز ترتيب الرجال حسب الطبقات.

٤ - النهي عن رواية الضعفاء.

٥ - النهي عن الحديث بكل ما سمع.

٦ - التعظيم من جريرة الكذب على رسول الله [ صلى الله عليه وآله ].

وكما قلنا سابقاً يبدو الأمر مغرياً لأول وهلة ، ولكن بغوصنا داخل هذه القوانين المبتكرة نستنتج أنها تنم في داخلها على نوع من التغطية التاريخية ، والتي ستؤدي حتماً إلى تشويه الحقائق ، أو إبراز القليل الذي لا يخالف الشيء المرغوب وإخفاء الكثير الذي لا يساير طبيعة التوجهات المسيطرة ، كما أنها تؤدي إلى قلب المفاهيم العامة ، والمتحركة بحركة المجتمع ؛ بحيث تنتفي فيه ثبوتية الثابت وتحل محلها ثبوتية المتحول .

وشيء آخر مثلاً : ماهي المعايير المعتمدة في تحديد أهل البدع والضعفاء من الرواة؟

هل وصلنا إلى حد النزاهة بالتخلي عن الأنانية الفردية والسعي لنصرة الحقيقة المطلوبة والمرغوبة ، إن نزاهتي لن تكون إلا إذا استطعت أن أتخلي عن رو ايتي المعتمدة ؛ وإذا أسلمت ببطلانها وأخذت برواية الآخر إذا كانت تساير الحقيقة . وهل المحدثون فعلاً احترموا قوانينهم في ترتيب الرجال حسب الطبقات؟

ما نصيب قرابة الرسول صلى الله عليه وآله؟ ونعلم ما لقربته من الحظوة والأعلمية ، وعلى رأسهم على ابن ابي طالب عليه السلام ، حيث أن البخاري أخرج لأبي هريرة أكثر مما أخرج لعلي عليه السلام كما أنه لم يأخذ من أعظم

ص: ٣٤

التابعين في الإسلام وهو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن ابي طالب وابن رسول الله عليهم السلام أجمعين.

إذن ماهو المنطق المعتمد في عدم أخذ روايتهم ، في حين نجدهم يأخذون رواية الوضعين والكذابين ومحبي الدنيا والمال.

فعن أبي جعفر الإسكافي قال : روى الأعمش قال : لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة ، جاء إلى مسجد الكوفة فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه ، ثم ضرب صلته مراراً ، وقال يا أهل العراق ، أتزعمون أني أكذب على الله وعلى رسوله وأحرق نفسي بالنار والله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ( إن لكل نبي حرماً ، وإن حرماً بالمدينة ، ما بين غير إلى ثور فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ) وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها فلما بلغ معاوية قوله أجازته وأكرمه وولاه إمارة المدينة (١).

وكذلك سمرة بن جندب أخذ مالا وافراً ليقر نزول الآية ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) (٢) في حق علي عليه السلام فبذل له معاوية مائة ألف درهم فلم يقبل ، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل ، فبذل له أربعمائة ألف فقبل ، وروى ذلك (٣).

أما النهي عن الحديث بكل ما سمع ، فهم قد عمموا اللفظ ولم

---

١ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة : ٤ / ٢٨٥.

٢ - البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥.

٣ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة : ٤ / ٢٨٩.

يخصصوه ، ولكن عدم نقل الحديث عن ماذا؟ أظنه عدم الخوض في أسس الأمة الكبرى لأنها من اختصاص الكبار وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : ( بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ) (١) لكن العلماء حصروا الأولى وقيدها وأطلقوا العنان للثانية. ولا يخامر أحد شكاً في كون التاريخ الإسلامي ملئاً بالإسرائيليات والتي لعب اليهود المتأسلمين دوراً كبيراً في روايتها ، بحيث من خلالها نزعنا القدسية عن الثابت وانتقل إلى المتحول.

والثابت عندنا هو كل شئ مرتبط بالمقدس ( الله تعالى ، رسول الله ، القرآن ... ) بحيث لا يجوز في أى حال من الأحوال إلحاقه بالأشياء التي تخضع لعملية النقد والبحث ، وربطها بالعالم المادى البشرى.

لكن التاريخ الإسلامى جعل منها شيئاً بسيطاً ، بحيث أصبح من السهل تناولها ولم يضعوا قانوناً يحرم أخذ الرواية من قائله ، فأصبح الله تعالى عبارة عن ذلك الهبل داخل الفكر الإسلامى الشئ الذى يؤثر حتماً على عقيدة المجتمع. وكما عرفنا سابقاً أن التاريخ يشمل كذلك المنتج الثقافى والفكرى ، والأمثلة على ذلك كثيرة سواء ما أخرج به أصحاب الصحاح من قبيل كشفه تعالى عن ساقه ووضعها في جهنم . كما رووا أنه يضع رجلاً على رجل ويستلقى فإنها جلسة الربّ.

---

١ - صحيح البخارى كتاب الانبياء باب ٥٠ ، الترمذى كتاب العلم ١٣ ، صحيح مسلم كتاب الزهد ٧٢.

ص: ٣٦

وروا أنه خلق الملائكة من زغب ذراعيه ، وأنه اشتكى عينه فعادته الملائكة وأنه يتصور بصورة آدم.

كما سئل بعضهم عن معنى قوله تعالى : ( فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ) (١). فقال يقعد معه على سريرهِ ويغفله بيده ، وقال بعضهم ، سألت معاذ العنبري فقلت : أله وجه؟ فقال : نعم ، حتى عددت جميع الأعضاء من أنف وفم وصدر وبطن واستحييت أن أذكر الفرج فأومأت إلى فرجى ، فقال نعم ، فقلت أذكر أم أنثى؟ فقال : ذكر (٢). إذن هكذا أرخ للحضرة الإلهية وكذلك للرسول الأكرم.

وإننا عند مراجعة كتب التاريخ أو الحديث نجد فيها هذا التحوير الخطير ، والذي نقل الثابت عند كل المسلمين إلى شيء متحول ، بحيث أصبح الكل يتجرأ عليه ، وعلى نقاشه وطرحه بشكل يخالف مكانته داخل الشريعة والتي هي المؤطر لأي فعل.

أما المتحول والذي نعني به الأشخاص المكونون للمجتمع الإسلامي وكل ما ينتجونه من أفكار ، او بمصطلح فقهي تاريخي « الصحابة » (٣) أى من عاش فى زمن النبى الأكرم فإنهم التحقوا بسلك

---

١ - القمر : ٥٥.

٢ - ابن أبى الحديد ، شرح نهج البلاغة : ٣ / ١٥٥ ، ط ١ ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت.

٣ - ولم تكن المدارس الحدائيه كلها أحاديئه التوجه ، بل منهم من أعلن ثورته على الوهم المقدس للتاريخ الإسلامى ويعتبر محمد أركون من الذين نظروا  
ص: ٣٧

إلى التاريخ بكل محتوياته وبدون استثناء ، فرأى أنه قابل للنقد والنظر فيه وذلك من أجل تخليصه من تلك الأسطورية التي طبعته وأصبغها عليه المؤرخون والعلماء حيث يقول : « إنه من الغريب أن نلاحظ أن الفكر الإسلامى قد بقى اليوم يعيش على أفكار ابن حجر العسقلانى ( مات ٨٥٢هـ - / ١٤٤٩م ) وأسلافه بخصوص موضوع الصحابة هذا على الرغم من أن هؤلاء يحتلون موقعاً مفتاحياً وأساسياً فيما يتعلق بنقل النصوص المؤسسة للإسلام ولكل تراثه. ولكننا نلاحظ أن تراجم ( كتاب الرجال ) لابن حجر تصور لنا شخصيات مثالية ترتفع بالخيال الإسلامى الشائع وتجيّشه وتنكر ( = تقنع ، تحجب ) فى ذات الوقت الحقيقة التاريخية المتعلقة بكل شخصية من الشخصيات المترجم لها . لقد آن الأوان لكى نفتتح هذه الأضبارة الشائكة على مصراعها ( كلياً ) اننا لانستطيع أن نكتفى بمفهوم العدالة الذى بلوره المحدثون ( أصحاب الحديث ) ، وإنما ينبغى إعادة تفحص كل الإسنادات ليس فقط عن طريق تطبيق المنهجية الوضعية للمؤرخ الحديث الذى لا يهتم إلا بالمعطيات والأحداث التى يمكن تحديدها بدقة ويرمى كل ما عداها فهى ساحة المزيج المعقد الغامض للخرافات والأساطير الشعبية. وإنما نريد على العكس ، أن نبين أن العناصر الأسطورية الزائدة المضافة على سير الصحابة من أجل تشكيل شخصيات نموذجية مقدسة كانت قد دعمت « حقيقة » المعلومات التأسيسية المكونة لكل التراث الإسلامى بشكل أقوى مما فعلته المعطيات والأحداث التاريخية الواقعية التى حصلت بالفعل » [ تاريخية الفكر العربى الاسلامى ص ١٧ طبعة ١١١ ترجمة هاشم صالح ].

ومن هنا تظهر جرأة الكاتب ومحاولته إخراج التاريخ من تلك النظريات

الألوهية بطريقة لا شعورية . ولن ندخل هنا في تحديد معنى الصحابة لأن مفهومه يختلف حسب كل فرقة وخاصة الشيعة والسنة .  
ولكن نقف عند بعض ملامح هذا التقديس الزائد الذى لم يبنى على أسس نظرية متينة بحيث ترى مرويات خاصة عند السنة يكذب بعضها بعضاً مما يؤكد على أن هذا الثابت المزعوم هو من خلق هذا التاريخ المقدس.

---

الطوباوية القديمة وذلك من أجل تفعيله حتى ينسجم مع الواقع المعرفى للمجتمع الإسلامى وإخراجه من حالة التيه ووضعه فى إطاره الصحيح . وهى إحدى الثورات على ذلك الثابت الذى أنتجه التاريخ المزيف ، حتى تتحقق المصالحة بين الواقع كمجال لحركة الفكر الإسلامى والموروث التاريخى كأرضية هذا الفكر.

ص: ٣٩

وقفه قصير

لقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برسالة إلى كافة الناس هدفه إبلاغهم ، أى تبشيرهم بالجنة وإنذارهم من النار . وكانت هذه الرسالة قد استأنفت عملها من اللحظة التي نزلت فيها . بحيث وضعت إتياع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى معادلة قوامها الجنة والنار ولم يقل لهم كلكم فى الجنة ، ولكن يخبرهم الله تعالى : ( كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ) (١).

وكذلك يقول عز وجل : ( لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) (٢).

وترى فى أغلب آيات الجزاء والعقاب هذا التخيير والخطاب المباشر والموجه ؛ أى أن كل واحد من الأشخاص المخاطبين بهذه الآية كيفما كان حجمه ، طالما هو على النهج المستقيم وملتزم بما جاء

---

١ - آل عمران : ١٨٥ .

٢ - آل عمران : ١٨٨ .



به هذا الدين فإن الله تعالى يخاطبه بقوله : ( إِنَّ لِّلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ) (١) ، ولكن إذا خالف هذا الشخص شرائع الله تعالى وحدوده فقد دخل فى خيانة الظالمين والطغاة فيحق فيه قوله تعالى : ( إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً لِّلطَّاغِينَ مَآباً ) (٢).

تقف إذن على حقيقة يجب الإيمان بها ، وهى أن كل صحابى عاش فى الصدر الأول من الإسلام عدا من نص عليهم فى القرآن بقوله تعالى : ( إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ) (٣) يحتمل ارتكابهم للخطأ والمعصية ومخالفة أحكام الله بل فيهم المنافق والناكث لعده ، فعن حذيفة ابن اليمان رضى الله عنه - صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - قال ( إنما كان النفاق على عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان ) (٤).

ومنه تكون هذه الثابتية التى ألحقت بهم هى من قبيل التقديس الزائد لهذا التاريخ والذى يخالف حتما منطق العقل ، فوجب معها إسقاط كل المقولات التى تكبح العقل عن ممارسة عمله النقدى كمثيل ( إذا ذكر صحابى فأمسكوا ) و ( أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ).

---

١ - النبأ : ٣١.

٢ - النبأ : ٢١ ، ٢٢.

٣ - الأحزاب : ٣٣.

٤ - مختصر صحيح البخارى : ٢ / ٥٦٦ ، ط ٣.

مع السيوطي

حينما تكون الدفاعات مبنية على أسس عاطفية لا على مقومات عقلية وعلمية سريعاً ما يظهر ضعفها وتسقط ركائزها . ومثال ذلك ما جاء على لسان جلال الدين السيوطي في المنهج السوي في ترجمة الإمام النووي على هامش صحيح مسلم وبالضبط في التعليق على الحديث ٢٣٨١ في باب فضا ئل أبي بكر حيث قال : « وأما على رضي الله عنه فخلافته صحيحة بالإجماع وكان هو الخليفة في وقته لا خلافة لغيره ، وأما معاوية رضي الله عنه من العدول الفضلاء والصحابة النجباء رضي الله عنهم ، وأما الحروب التي جرت فكانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويب أنفسها بسببها وكلهم عدول رضي الله عنهم متأولون في حروبهم وغيرها ... فكلهم معذورون رضي الله عنهم » (١).

بقراءة لنص التعليق نجد إن الإمام على عليه السلام خليفة شرعي للأمة ، وأما معاوية فهو من هذه الأمة وخرج لقتال إمامها ، فنسأل الشيخ جلال الدين : ما قول الشرع في ذلك؟ لن نناقشه باقوالنا ، ولكن ندعه يجيب على نفسه في الحديث ١٨٥٣ من صحيح مسلم باب من فرق أمر المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ( ستكون هنات وهنات (٢) فمن أراد أن يفرق هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان ).

---

١ - جلال الدين السيوطي : المنهج السوي في ترجمة الإمام النووي على هامش صحيح

مسلم ج ٧ ص ٣٦ طبعة ١٩٩٥ دار الفكر للطباعة والنشر.

٢ - هنات وهنات بمعنى فتن.

ويعلق السيوطي على هذا الحديث بقوله :  
« وفيه الامر بقتال من خرج على الإمام وأراد تفريق كلمة المسلمين ونحو ذلك و ينهى عن ذلك فإن لم ينته قوتل وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتله كان هدراً » (١).  
أظن أن شيخنا قد نسي قوله السابق وهو يتعرض لهذا الحديث ، إن المسألة ليست في تخطئة فلان وتصويب ذاك بل في هذه النظرة الطوباوية للتاريخ الإسلامى بحيث لا نستطيع أن نقف وقفة صريحة مع أنفسنا لنعطى كل ذى حق حقه.  
فما قول شيخنا إذا بعدما أجاب عن نفسه؟  
ما موقفه من الخارج على الإمام الشرعى؟  
ما موقفه لمن عقد بيعه لنفسه فى حضور إمام سابق؟  
قد يقول لا إشكال مادام الصحابة العدول هم أصحاب هذه الفعله.  
وهنا يتجلى قولنا السابق بثابته هذا المتحول وفقد الثابت لتأبتيته ، فبينما يقول شيخنا كلهم عدول رضى الله عنهم متأولون فى حروبهم والتى نعرف سببها يأتى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول عن ابى سعيد الخدرى : ( إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما ) (٢).

وأخرج ابن ماجه فى سننه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ( من بايع إماماً

---

١ - المصدر السابق م ٦ ج ٢ / ١٩١ ح ١٨٥٣.

٢ - صحيح مسلم م ٦ ج ٢ / ١٩١ ح ١٨٥٢.

فأعطاه صفقة يمينه ، وثمره قلبه فليطعه ما استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر ( ١ ) .

إذن لم يعد لفتيها ما يدافع عنه فكل القرائن والدلائل تبطل قوله وتجعل للمعادلة حلاً وحيداً صحيحاً يتمثل بأحقية الإمام على عليه السلام ومشروعية حربه ضد الخارجين عن طاعته وضلال من وقف بوجهه.

إن عقل المسلم لم يستطع أن يتحرر من هذه العبودية والتأليه لتاريخه بل قلب موازين الحقيقة قدسية بهذه الشخصيات التاريخية. والتي هي شخصيات بشرية بطبعها تخضع لقانون الخطأ والصواب مما أعطاها صفة الثابت الذي لا يجوز تغييره على الإطلاق. وهذا ما يحتم علينا تنقية هذا التراث ، إذ هو المخزون النفسى لدى الجماهير ، وهو الأساس النظرى لآبئية الواقع (٢).

ونقف مع السؤال الذى طرحه الالمانى البرت اشفيستر : لماذا تتوقف الحقائق التقليدية عن أن تكون وقائع وتنتقل من لسان إلى لسان على أنها مجرد كلمات؟ (٣)

---

١ - سنن ابن ماجه : ٤ / ٣٣٣ ، ط ٢ ، سنة ١٩٩٧ ، دار المعرفة. واخرجه مسلم أيضاً.

٢ - حسن حنفى من العقيدة إلى الثورة طبعة اولى ١٩٨٨ دار التنوير للطباعة والنشر / عن التراث والتجديد.

٣ - البرت اشفيستر مفهوم الحضارة ص ٥٨ ترجمة عبد الرحمن بدوى عن دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع.

## التغيير التاريخي\*

هل يقف العقل عند الإيمان بالمسلمات التي ورثها منذ أجيال ويجعلها أقانيم لا تتحول ولا تتبدل و ثم يقول هذا ما وجدنا عليه آباءنا؟  
إن للعقل أهمية تجعله مسؤولاً عن تثبيت هذه المسلمات إذا لامست الحقيقة وبذلك يتحقق الإيمان الكلى أو بإسقاط هذه الاوهام إذا كانت على غير ذلك من الصراحة والشفافية لأن هذه المادة الدماغية

---

(\*) كان العنوان الذى اخترته لهذه الفقرة فى الأول هو « الاستقلاب التاريخى » وهو مصطلح رائج فى ميدان العلوم الطبيعية ويقابله فى الفرنسى ( Metabolisme ) ويخص العمليات الحياتية التى تحدث فى البدن وتتمثل فى هدم أو هضم المواد الأولية ويتم التخلص من الزائد منها والاستفادة من المتبقى الصالح والذى يصطلح عليه بـ ( Cetabolisme ) و ( Aetabolisme ).

لذلك فإن دراستنا للتاريخ لانتوى منها رفض كل معطياته ، بل الأصل هو الاستفادة من الشيء الذى يصلح لإعادة بناء حاضرنـا ورفض كل مايقف أمام هذه الحركة.  
وبما أن مصطلح « الاستقلاب التاريخى » غير متداول داخل الأوساط الثقافية والأدبية ، غيّرته إلى « التغيير التاريخى » رغم أن التغيير له طابع حاد إقصائى لذلك يكون قصدى من التغيير هو المصطلح الذى حذفته.

هى التى يرتكز عليها الوجود البشرى.

فعن أبى جعفر عليه السلام قال ( لما خلق الله العقل استنطقه ، ثم قال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً هو أحب إلى منك ولا أكملتك إلاّ فيمن أحب ، أما انى إياك أمر وإياك أنهى ، وإياك أعاقب ، وإياك أثيب ) (١).

فلهذا يكون عمل العقل هو الإقبال على الحقيقة بالبحث والمتابعة والإدبار عنها إذا خالفت الصريح من المعقول.

وقد يكون هذا الأمر صعباً لأول وهلة ، وذلك للترسبات التاريخية الموروثة ، ولكن لا تحيدنا هذه الصعوبة عن مسامرة الحقيقة والبحث عنها ، ونحن لسنا أقل من ديكارت الذى اعتمد على منهج الشك فى الوصول إلى ال يقين ؛ فأعطى بذلك الكوجيطو الديكارتى أنا أفكر إذن أنا موجود . ونحن أيضاً ينبغى أن نقوم بتفعيل عملية التفكير ننطلق فى البحث بعد هدم المسلمات ، لنعيد النظر فى موروثاتنا العقائدية بكل دقة ونحن اذ نقوم بتمحيص ما نؤمن بأنه من المسلمات العقائدية ، فالأحرى بنا أن نمحص المسلمات والمعطيات التاريخية؟ وهى بطبيعتها بشرية الصياغة وتتبنى على مسلمة – أى المناهج التاريخية – قد تكون محل نظر (٢).

---

١ – الكلينى ، اصول الكافى : ١ / ١٠ كتاب العقل والجهل.

٢ – العروى : مفهوم التاريخ : ١ / ٢٠٧ ( بتصرف ).

وقد أسلفنا سابقاً قولاً لابن خلدون على أن التاريخ مجرد نظر وهذا النظر لن يكون حاصل إقناع إلا إذا أعيدت صياغته بطريقة صحيحة عبر إجلاء المسلمات المختلفة ، كي نصل إلى مادة تعنى الحقيقة وتعيها عبر تقييم الحقائق السياسية ، والاجتماعية والأخلاقية ؛ ومنه يصبح رفض التاريخ يصبح سائغا وربما واجبا (١) ، بحيث نصل في الأخير الى اقتناع ينفي هذا الشك ، علماً أن شكنا هذا هو من باب إحلال النفس على الحقائق الثابتة والراسخة تاريخياً. كما أن منهج التشكيك هو منهج يؤدي إلى الاطمئنان القلبي وحصول اليقين وهو مثبت في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام إذ قال تعالى : ( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ) (٢) ، وقول إبراهيم - وهو نبي - لم يكن من قبيل التشكيك الناتج عن عدم الإيمان ، بل كان طلباً للوصول إلى الحقيقة المطلقة ، ورسالة إلى الآخرين يكون إيمانهم عن اقتناع. ويقول العلامة الطباطبائي في تفسير ( لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ) مطلوبه عليه السلام من هذا السؤال حصول الإطمئنان المطلق وقطع منابت كل خطور قلبي واعراقه [ ... ] فقد ظهر : أن وجود الخطورات المنافية للعقائد اليقينية لا ينافي الايمان والتصديق دائماً ، غير أنها تؤذى النفس ، وتسلب

---

١ - المصدر السابق.

٢ - البقرة الآية : ٢٦٠.

السكون والقرار منها ، ولا يزول وجود هذه الخواطر إلاّ بالحس أو المشاهدة (١). وهذا ما يمكن أن ينطبق على التاريخ الإسلامى ، لأن المسلمات التى أوجدت قد تألّحت بمرور الزمن ، فأصبح التشكيك فيها يسبب عدم الاستقرار ، ولكنه ضرورة علمية تتطلب منا إرجاع النصاب إلى حقه حتى يتحقق الإيمان القلبى واليقين والإفلات من قبضة شيطان التخلف والجهل. ونمارس بذلك دورنا الطبيعى.

قد جاء فى شرح خطبة وقوع الفتن للإمام على عليه السلام ما قوله : « على أوليائه » ( أى على من عنده استعداد للجهل ، وتمرن على اتباع الهوى ، وزهد فى تحقيق الامور العقلية على وجهها ، تقليد الأسلاف ومحبة لأتباع المذهب المألوف ، فذاك هو الذى يستولى عليه الشيطان ويضله وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وهم الذين يتبعون محض العقل ولا يركنون إلى التقليد ، ويسلكون مسلك التحقيق ، وينظرون النظر الدقيق ويجتهدون فى البحث عن مقدمات أنظارهم ) (٢).

والكلام واضح مفاده عدم الركون إلى التقليد عدم الاتباع الاعمى لما وجدنا عليه آباءنا ، لأنه ليس بعذر لنا بقدر ما هو إدانة صريحة لهذا العقل الذى تقاعس عن البحث عن الحقيقة ؛ وهو بطبعه عقل فعّال.

---

١ - الطباطبائى ، تفسير الميزان : ٢ / ٣٧٨.

٢ - ابن أبى الحديد شرح نهج البلاغة ٣ / ١٧٦.



لهذا نحن لا نريد من خلا ل دراستنا وتحقيقاتنا التاريخية الهدم الذى يؤدى إلى التخلف ، ولكن نبتغى إعادة بناء وضعنا الحالى ، وهذا لن يتأتى إلا إذا قبضنا بأيدينا على مفتاح السر ، لنفتح به العصر الجديد ، ذلك العصر الذى يتجدد فيه البالى ولا يبلى فيه ماهو روحى أو أخلاقى ، وهذا لن يتأتى إلا بدراستنا لتاريخنا على غير المنهج الذى اتبعه أسلافنا وإلاّ ضعنا نهائياً.

إذن الحل الوحيد هو اكتساب الجرأة النقدية ؛ المبنية على إخضاع كل المسلمات للتحقيق ، بحيث لا يبقى ثابت إلاّ ماهو ثابت طبيعياً ودينياً أما غيره فمآله إلى إعادة النظر ، وهو ضرورة حتمية بحيث قد أصبح من الضرورى القيام بفعل نقدى يكتسح كل ألوان السذاجة ، وعدم الامانة (١).

إننا نحتاج إلى عملية استقلاب ( Metabolisme ) تاريخية نستطيع من خلالها إظهار الحقائق التى هى متطلبات آنية عبر عملية الهدم التاريخى ، او ما يمكن الاصطلاح عليه ( cotabolisme historique ) ، حتى يتم التخلص من كل ما يمكن أن يسبب التسمم المعرفى والتخلف للأمة الإسلامية ؛ وإعادة بنائها من جديد عبر بناء تاريخى ( historique Anabolisme ) مستفيدين من كل ماتم استخلاصه عبر

---

١ - البرت اشفيتسر : فلسفة الحضارة ص ٣٣٩ ترجمة عبد الرحمن البدوى ١٩٩٨ دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع.

عملية الهدم ، وهو ما أطلق عليه د . حسن حنفي تنوير التاريخ من أجل ثورة حقيقية لهذه الامة واستعادة دورها الطلائعي في العالم . لأن التاريخ والدراسات القويمة لا تقتصر على كونها من معطيات الماضى فقط وبقاءها كشيء لا قيمة له بل انه يستطيع أيضاً أن يلقي علينا ظلاً ساماً.

فهناك أفكار لم ندع عقولنا تعمل فيها مباشرة ، وذلك لاننا وجدناها مُعدّة الصياغة فى مجرى التاريخ ، والافكار التى ورثناها لا تسمح بىروز الحق ليعمل عمله وإنما تظهره من خلال قناع جنائزى ، والانجازات البالية التى تنتقل من حضارة منحلة إلى مجرى عصر جديد كثيراً ما تصبح مثل افرازات الدورة الجسمية وتعمل فعل السموم (١). فيا ترى هل كان التاريخ الإسلامى فعلاً كان نزيهاً إلى حد تصديق كل مافيه؟ أم هو نتاج تحالفات سياسية وايدولوجية أدت إلى ظهوره على الشكل الموجود عليه حالياً؟

---

١ - المصدر السابق ص ٥٨.

## الفصل الثاني

ابن كثير والتاريخ

يُعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى  
على الهوى ، ويعطف الـ رأى على  
القرآن إذا عطفوا القرآن على رأى  
الإمام على عليه السلام

ص: ٥١

ابن كثير ... المحدث المؤرخ

لعل كتاب البداية والنهاية يعتبر من أهم المراجع التاريخية المعتمدة في الفكر الإسلامي ، وذلك لما اكتسب صاحبه من شهرة ومكانة كعالم من علماء المسلمين ، بحيث سعى في كتابة تدوين التاريخ الإسلامي بطريقة يحفظ من خلالها كرامة هذا التاريخ وعزته ؛ وخوصاً المرحلة المباركة! والتي تشكّل الشعلة الأولى للأمة الإسلامية.

وقد لبس هذا المؤرخ رداء المسلم المشبّع بالمؤثرات السلفية ؛ فصبغ تلك المرحلة ورجالاتها بقداسة خارقة يتوقف فيها العقل عن ممارسة فعله الحقيقي في الدراسة ، وذلك للتراكمات المعرفية المؤطرة للعقل الفاعل ، وجعله محدود الفعالية.

فبنظر ابن كثير أن تلك المرحلة هي خير القرون ، ورجالاتها خير الرجال ، لأن في الحديث النبوي الشريف قد ورد أن خير القرون قرني هذا والذي يليه ثم الذي يليه ، ومن هنا ندخل في النقطة الحساسة ، وهي هذه القداسة المفتعلة والتي حاول البعض أن يصبغ التاريخ بها. وابن كثير في تاريخه أحد ضحايا هذه الأحاديث حيث لم يكن ذلك المؤرخ الذي يعمل على توثيق الأحداث التاريخية بضرب

ص: ٥٢

بعضها ببعض ، بل تعامل مع الحدث التاريخي من خلال وضعيته العلمية والتي يطغى فيها المحدث على المؤرخ ، إذ اهتم في تأريخه على الرواية تماشياً مع صبغته كإمام محدث يكره الاجتهاد وابداء الراى ؛ ولم يجرأ على الدخول فى معانى الرواية واستعمال اسلوب نقدى لفرزها. كما أنه لم يتعامل مع الأحداث التاريخية كمؤرخ محترف على حد تعبير عبد الله العروى فى تعريفه للمؤرخ المحترف ، إذ أنه ه ذا الأخير لا ينفك يقيس أى حكم يعرف ؛ أى يستعمل « مفاهيم جامعة » ، و « يؤلف مباحثات » أى يفترض « قيمة محورية » ، « او وحدة انتسابية » قلنا إنه ينقد رواية موروثه ليخطط اثناء عملية النقد والتفكيك لرواية بديلة حتى ولو لم يفصح أبداً عنها (١).

إن عملية نقد الروايات والأخبار الواردة لم تكن واردة فى ذهن ابن كثير بقدر ما كان همه الكبير هو جمع عدد كبير من الروايات والأحداث ومحاولة إخراجها بشكل يساير طابعه الايدىولوجى الطاغى عليه ، حيث أن النظر عنده فى الرواية ، او الحدث التاريخي لا يخرج عن إطارين ؛ الأول : تمجيد مرحلة الصحابة والتابعين ، والانتصار لهذا التاريخ الملعوم ؛ ثانياً قبول كل ما روى فى رفع شأن هذه المرحلة حتى ولو المشهود عليه بالكذب ، من قبيل روايات سيف بن عمر التميمي حيث لم يكتف ابن كثير بأخذ الرواية عنه بل ترحم عليه أيضاً (٢).

---

١ - عبد الله العروى مفهوم التاريخ : ٢ / ٣٤٣.

٢ - ابن كثير - البداية والنهاية : ٥ / ٣١٩.

وهنا كذلك تدخل اعتبارات كثيرة ، فنجد أنه يرفض روايات الوضعيين التي قد تمس ببعض شخصيات هذا التاريخ ، وقد يكون سبب رفضه لهذه الروايات هو التوجه المذهبي للراوى ؛ فمثلا يرفض رواية الوضعيين - على حد تعبيره - من قبيل حماد بن عمرو أبى اسماعيل الناصبى وسلام بن مسلم لا لشيء إلا لأن مروياتهم تخص بالتقديس على ابن أبى طالب عليه السلام (١).

ومن هذا المنطلق فإن ابن كثير تعامل بشكل انتقائى مع الأحداث ، بحيث لم يراعى الموضوعية وتواتر الحدث ، بقدر ما راعى طبيعة رواة الحدث مما يجعل تاريخه هذا انتقائياً يراد منه الانتصار لجهة معينة دون أخرى ، إذ أن الكتابة التاريخية عنده لم تكن من أجل تدوين تاريخ كما يريد البشر مطابقاً للواقع بل كانت كتابته بالطريقة التي أرادها هو لهذا البشر.

وقد عبر ابن كثير بنفسه عن هذا المنهج الانتقائى بقوله :  
« وكان فراغى من الانتقاء من تأريخه فى يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة سنة ٧٥١ » (٢) وهذا اعتراف ضمنى منه بعملية الانتقاء التي قام بها.  
ويقول فى آخر هذا الفصل :

---

١ - ابن كثير - البداية والنهاية : ٥ / ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

٢ - المصدر السابق : ١٤ / ١٩٤ .

وقد ذكر الواقدي وغيره في الوفاء أخباراً كثيرة فيها نكارات وغبابة شديدة أضربنا عن أكثرها صفحاً لضعف أسانيدھا ونكارة متونها ولا سيما ما يورده كثير من القصاص المتأخرين وغيرهم فكثير منه موضوع لا محالة وفي ١ لأحاديث الصحيحة والحسنة المروية في الكتب المشهورة غنية عن الأكاذيب وما لا يعرف سنده والله أعلم (١).

وأثناء دراسة البداية والنهاية ستتصل حتماً إلى أن هذه الانتقائية تغلب عليها السداجة والعاطفة المذهبية ، وكل رواية وتظهر تلك الفترة بشيء من المزايا وعلى علّة مضمونها يصدقها ويسلم بصحتها بحيث يرى أن السعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم (٢) ، فيغيب بذلك عنده النظر الذي يجعل في المادة التاريخية تناسقاً بحيث لا يغلب عليها الارتجال.

وكذلك لا أظن أن التكرار المتزايد للأحداث هو من قبيل العبث ، كما أنه لا يغيب عن أحد أقطاب العلم وهو يؤلف ، ولكن هي حركة يراد منها تثبيت فكرة معينة. كما أن هذا التكرار ليس عاماً لكل الأحداث بقدر ما هو خاص بأحداث معينة وقعت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك خلال الفتنة الكبرى.

---

١ - البداية والنهاية : ٥ / ٢١٤.

٢ - المصدر السابق : ١ / ٤.

وأما الأحداث التي أحدثت تغييراً كبيراً في حركة التاريخ الإسلامي ، وبالضبط المواقف المرتبطة بالأشخاص فإنه يقوم بتضعيفها أو تقييدها بوجهة نظر سلفية انطلاقاً من النظرة المقدسة التي يحملها عن ذلك التاريخ الملعوم ، فنجد مثلاً يقول :

« ومن ظن بالصحابة رضوان الله عليهم ذلك فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور ، والتواطئ على معاندة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومضادتهم في حكمه ونصه ، ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربة الإسلام وكفر بإجماع الأئمة الاعلام ، وكان إراقة دمه أحل من إراقة المدام » (١).

هذا القول يرتبط بحديث الغدير وبيعة الامام علي عليه السلام ، فابن كثير لم يكلف نفسه أن يتتبع الحدث التاريخي مصداقيته التاريخية ، علماً أنه مؤمن بصحة الحديث ، لكنه لا يريد إيصاله إلى الهدف الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن ه ذا في نظره يمس مكانة أولئك الاشخاص المحيطين به صلى الله عليه وآله وسلم.

وكما قلنا سابقاً أن هؤلاء الأشخاص ماهم إلا بشر خاضعين لموضوع الرسالة ولثنائية الجنة والنار ، وكان المنافقون ومن تلهيهم أموالهم عن الجهاد في سبيل الله لهم نشاطهم السلبى في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فكيف وهو غائب عنهم.

وهذه المثالية السلفية والمتطرفة لم تقف عند هذا الحد بل جعل من

---

١ - المصدر السابق : ٥ / ٢٢١.



نفسه المدافع عن الإسلام من أهل البدع والضلالات والذين هم بالضبط الطائفة المعارضة  
للأنظمة السياسي القائمة آنذاك .

وبحيث لا يغفل عن بالنا وعلى غير ما ذهب إليه جموع من الناس في أن ابن كثير وإن لم  
يضطلع بدور سياسى ، لكن كانت له مشاركة في صنع القرارات ، إذ يذكر في تاريخه أنه  
اجتمع مع نائب السلطان في بلاد الشام (١) ، وذكر له أشياء كثيرة مما ينبغي اعتماده في حق  
أهل قبرص من الإرهاب ووعيد العقاب ، ويذكر مرة أنه اجتمع بالخليفة ووصفه بأنه متواضع  
جيد الفهم حلو العبارة رحم الله سلفه (٢).

ولا يخفى على أى مطلع أن الطائفة التي عرفت بالمعارضة طوال التاريخ هم الشيعة . فكما  
كان نصيب الشيعة من السلطان السيف كان نصيبهم سلاطة القلم من ابن كثير . بحيث أنه كان  
في أى موضع من المواضع يرى فيها قوة أدلة الشيعة يخرج كما من اللعنات والتلفيقات  
فيلقيها على الشيعة والتشيع.

علما أن الدقة والتمحيص لازمتين لإخراج الحقيقة من بين ركام من الأحداث حتى تكون  
المفاهيم والحقائق المطروحة معقولة ، وعلى حد قول « رانكه » : يبدأ العلم بنقد التقليد  
الموروث (٣) وإدخاله في تحقيق معرفى مع ذاته حتى تنفرز الأحداث الصحيحة والخاطئة  
والمكذوبة

---

١ - احمد ابو ملحم عن مقدمة البداية والنهاية.

٢ - ابن كثير - البداية والنهاية : ١٤ / ٢٥٧.

٣ - عبد الله العروى مفهوم التاريخ : ١ / ٨٦.

معتمدين على دلائل الامور ، إذ هي أشد تثبيتاً من شهادات الرجال ، وهذا يرتبط بأعلمية المؤرخ الفاعل على الحوادث التاريخية والذي يجب أن يركز عمله على المقايضة ، المماثلة والمفارقة ، الفصل والربط المقاربة والمباعدة (١).

كل هذه المناهج تؤدي حتماً إلى استخلاص النتيجة الصحيحة ، لكن إلى أي حد كان ابن كثير موضوعياً في تعاطيه مع الأحداث والوقائع؟ هذا ما يبينه لنا أسلوبه في عرض الحقائق. يذكر ابن كثير رزية الخميس ، وهي من الأحداث التاريخية الشائكة في الإسلام لأن فيها أولاً أتهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالهجر ، وثانياً منع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من كتابة وصية مهمه تعصم الأمة عن الوقوع في الضلال من بعده . فيعلق على هذا الحديث بقوله : وهذا الحديث مما قد توهم به بعض الأغبياء من الشيعة وغيرهم كل مدع أنه كان يريد أن في ذلك الكتاب ما يرمون إليه من مقالاتهم وهذا هو التمسك بالمتشابه وترك المحكم وأهل المحكم يأخذون بالمحكم ويردون ما تشابه إليه ، وهذه طريقة الراسخين في العلم كما وصفهم الله عز وجل في كتابه وهذا الموضوع مما زل فيه أقدام كثير من أهل الضلالات وأما أهل السنة فليس لهم مذهب إلا اتباع الحق يدورون معه كيفما دار (٢).

---

١ - المصدر السابق ص ٨٦.

٢ - ابن كثير : ٥ / ٢٠٠.

هكذا يمحّص ابن كثير الرواية والحدث التاريخي بطريقة لا علاقة لها بالمؤرخ وليته وقف عند ذكر الحدث فحسب بل أنه حاول نفى الرغبة الخفية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لتثبيت فكرته.

ويسترسل ابن كثير في ذكر أحاديث يدعو فيها الرسول أبا بكر وابنه عبد الرحمن ويكذب وصية تنص على أبي بكر ، وهذا مسلك الراسخين على حد قوله.

إن عملية النقد التاريخي لا تكون بهذه السذاجة لأن الأحداث هي بمثابة جزئيات مختزلة من التيار الزمني ، قابلة أن تكون أسباباً في حاجة إلى نتائج أو نتائج في حاجة لأسباب ، وصاحب الأمر في هذه القضية هو المؤرخ الذي يسمى الأشياء ، فيقول هذه سابقة وهذه لاحقة بالنظر إلى قضية مطروحة مجموعة من الشواهد يقابل مجموع من الأحداث المذكورة المحفوظة (١). إذن هل سطر ابن كثير النتائج؟ وهل حدد أسباب النتائج؟

الجواب : كلا ، لأنّ عملية التأريخ عنده لم تكن إلّا حالة من محاولات الانتصار المذهبية العقيمة التي لا تفيد العلم في شيء بقدر ماهي محاولات لتكريس التخلف.

وهذا لم يكن بمحض الصدفة ولكن هو نتاج المنهج العلمي والمذهبي الذي تبناه ابن كثير ، فما هو إلّا أحد المخلصين لاستاذة ابن

---

١ - انظر : عبد الله العروى ، مفهوم التاريخ : ١ / ٨٢.

تيمية ، فقد درس على أيدي مئات الشيوخ ، إلا أن الذين أثروا فيه وتتبع خطاهم قلّة وكان على رأسهم الشيخ تقى الدين ابن تيمية ، إذ كانت له به خصوصيّة ومناضلة عنه واتباع له في آرائه (١). ولعلاقته الوطيدة بابن تيمية فقد كان هذا الأخير هو دافنه في مشواه الأخير - ودفنه في مأواه الأخير بترية شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية بمقر الصوفية خارج باب النصر من دمشق حسب وصيته (٢).

من هنا نظهر العلاقة الوطيدة بين زعيم التيار السلفي ألا وهو ابن تيمية وتلميذه النجيب ابن كثير الذي كرس كل جهده لتكريس النظرة السلفية - التيمية - للتاريخ ، والذي جعل هذه المدونة التاريخية عبارة عن سجل دفاع ، ورد خصومات ، وتهجم على الفرق الأخرى وخاصة الشيعة. ونظراً للترابط الوثيق بين ابن كثير وابن تيمية افردنا لهذا الأخير بحثاً خاصاً وموجزاً يعرض رؤيته التاريخية.

---

١ - احمد أبو ملحم : ترجمة ابن كثير البداية والنهاية ١.

٢ - المصدر السابق.

ابن كثير وابن تيمية وجهان لعملة واحدة  
لقد أسلفنا سابقاً بأن ابن كثير كان من التلاميذ النجباء لابن تيمية ومن المدافعين عنه ،  
والحاملين المخلصين لأفكاره. فلا جرم إذن أن تكون هذه الأفكار هي نفسها التي يجهر بها  
أستاذة وتنعكس حتماً على مؤلفاته وخاصة موسوعاته التاريخية البداية والنهاية.  
ويكون الجامع الوحيد لهما هي ه ذه المدرسة السلفية التي أرسى دعائمها ابن تيمية وأصبحت  
المدافع الحقيقي عن هذا الدين ! وكل ما عدا هذا الخط الجديد فهو خارج عن إطار الشريعة  
والسنة المحمدية الأصيلة بزعمهم ، وهم السالكون على حد قول ابن كثير منهج الراسخين في  
العلم الذين لا يضلهم الهوى.  
وهذا لا يختلف في شيء عما صرح به استاذة الجليل تقى الدين ابن تيمية حيث يقول :  
« ان أهل السنة هم وحدهم الذين يأخذون بالقصد والعدل في طريقهم بين جموع فرق  
المسلمين » (١).

---

١ - ابو الحسن الندوى - الحافظ ابن تيمية ص ٢٧٨ بواسطة صائب عبد الحميد ابن تيمية

حياته وعقائده.

ص: ٦١

وبهذا صارت طائفته هي علامة المنهاج السوى وبتابعهم يتبع الحق وكأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال ان ابن تيمية وأصحابه مع الحق حيثما دار الحق دار معهم. إن هذا مسلك من التدليج يحاول الزام الخلق باتباع هذا الطريق ولو عن مضض مخافة الخروج على الهدى النبوى! لأنه بنظره أنهم - أى أهل السنة - لم يتفقوا قط على خطأ (١). وبهذا دخلوا دائرة العصمة وأصبح قولهم هو الفيصل لانهم لا يتفقون على ضلالة (٢) وما خالفتهم طائفة فى أمر اتفقوا عليه إلا الصواب معهم والخطأ مع غيرهم (٣). من هنا يظهر لنا هذا التسطيح فى التعامل مع الآخرين والانفراد بالصواب دونهم علماً أنه لا أحد يمتلك الحقيقة بقدر ما هو باحث عنها وهي ضالة المؤمن فحيثما وجدها فهي له. كما أن ابن كثير تجده يعكس كل أفكار استاذة ويتمثل بكل حالاته المعرفية حتى هذه الحساسيه المفرطه من الشيعة والسب فيهم ولعنهم كما سبق ذكره ، وإينها لم يكن هذا الأمر وليده الصدفة ، ولكن هي حالات تعكس ذلك الفيض التيمى على روح ابن كثير ، فابن تيمية ألف كتابه منهاج السنة النبويه فى الرد على الشيعة والقدرية وعرف فى أوانه بكتاب الرد على الرافضى وذلك فى رده على كتاب - منهاج الكرامه فى

---

١ - ابن تيمية منهاج السنة : ٢ / ١٤.

٢ - المصدر السابق : ٢ / ١٧.

٣ - المصدر السابق : ٢ / ٧٥.

إثبات الإمامة - للعلامة ابن المطهر الحلي فكان الهاجس عنده هم الشيعة ، مما جعله يخطب  
خطب عشواء في كتابه (١) فما كان من رد العلامة ابن المطهر عليه إلا جملة واحدة وبيتي  
شعر حيث قال رحمه الله : لو كان يفهم ما أقوله لأجبتة - وفي الأبيات التي أوردها ابن حجر  
العسقلاني في الدرر الكامنة -

لو كنت تعلم كل ما علم الوري طرا لصرت صديق كل العالم

لكن جهلت فقلت إن جميع من يهوى خلاف هواك ليس بعالم (٢)

إن هذه الكلمات الأخيرة كافية لمعرفة قدر هذا العالم وبالتالي كل من حدا حدوه واتبع  
مسلكه ، كما أن ابن بطوطة سماه بالعالم ذو اللوثة لما حضر احد دروسه بالمسجد (٣)  
ولمعرفة دقائق الامور من فكره فليرجع إلى كتاب الأستاذ صائب عبد الحميد « ابن تيميه  
حياته وعقائده » وكذلك الجزء الرابع من كتاب « بحوث في الملل والنحل » للعلامة جعفر  
السبحاني.

---

١ - راجع : ابن تيمية حياته وعقائده صائب عبد الحميد ص ٢١٥ - ٢٣١. وجعفر السبحاني  
بحوث في الملل والنحل ج ٤.

٢ - ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة : ٢ / ٧١.

٣ - ادريس هاني محنة التراث الآخر.

### شطحات ابن تيمية التاريخية

إن الدراسات التاريخية باعتبارها علم مرن يحمل اشكالات متعددة تستلزم عقلاً منفتحاً يتكيف مع الأحداث والوقائع من أجل استيعابها واستخلاص النتائج الممكنة بعد عرض الأسباب الفاعلة في الحدث التاريخي ، ومنه الوصول إلى النتيجة الحقيقية والواقعة الصحيحة ، لكن إذا كان الباحث للتاريخ صاحب عقل متعنت غلب عليه التعصب والعماء فإن العكس هو الصحيح ، وفعلًا هذا ما حصل مع ابن تيمية حينما تناول على التاريخ وسمح لنفسه أن يصبح مؤرخاً يعطى رأيه في الأحداث التاريخية لـ تزل قدمه مرةً أخرى بعدما زل في ميدان العقائد.

لقد جاء كتابه منهاج السنة ملئاً بهذه الثغرات التاريخية والتعصب المذهبي حتى عرف كما قلنا سابقاً بكتاب الرد على الرافضي وبمعنى آخر إن كتابه هذا أغلبه في الرد على الشيعة حتى بلغ به الأمر إلى التنقيص المستمر من آل محمد عليهم السلام باعتبارهم المعتمد عليهم عند الشيعة. وقد التفت ابن حجر العسقلاني إلى هذه النقطة حيث قال : وكم

ص: ٦٤



من مبالغة لتوهين كلام ( الرافضي ) أدته أحياناً إلى تنقيص علي رضي الله عنه (١) فقد صدر عنه بدون تورع واستحياء قوله أنه ليس في الأئمة الأربعة ولا غيرهم من أئمة الفقه من يرجع إلى علي في فقهه ، أما مالك فإن علمه عن أهل المدينة ، وأهل المدينة لا يكادون يأخذون عن علي ، وأما أبو حنيفة والشافعي وأحمد فينهي ابن تيمية علمهم إلى ابن عباس ، ثم يقول وابن عباس كان مجتهداً مستقلاً وكان إذا أفتى يقول الصحابة أفتى يقول أبي بكر وعمر لا يقول علي (٢).

وهذا مما يتنافى مع ما تعارف عليه حيث أن الكل كان يستشهد بمنزلة علي عليه السلام (٣) العلمية فابن عباس كان يقول أن ما أخذته من تفسير القرآن فعن علي ابن أبي طالب وعمر نفسه كان يقول لولا علي لهلك عمر ناهيك عما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » (٤) وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة عليها السلام : « أما ترضين أن أزوجك أقدم أمتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حِلماً » (٥) كما ذكر صاحب طبقات الفقهاء - أبو اسحاق الشيرازي الشافعي - قولاً لعبد الله ابن

---

١ - ابن حجر العسقلاني ، لسان الميزان : ٦ / ٣١٩.

٢ - ابن تيمية منهاج السنة : ٤ / ١٤٢ - ١٤٣.

٣ - راجع كتاب إثبات حديث علي باب مدينة العلم لعبد الله ابن الصديق الحسن بن المغربي.

٤ - سنن الترمذي : ٥ / ٦٣٧ ، ح ٣٧٢٣.

٥ - مسند أحمد : ٥ / ٢٦.

عباس يقول : أعطى على تسعة أعشار العلم وإنه لأعلمهم بالعشر الباقي (١) من هنا يضمن قول ابن تيمية أمام التبجيل العظيم والاعتراف الصريح بأفضلية على عليه السلام على جميع المسلمين.

لكن ياليت ابن تيمية وقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى شخصي الامام الجهادية والتي قامت مدافعة لرأب صدع الإسلام وجمع شتات المسلمين بحيث رأى أن علياً لم يقاتل على طاعة الله ورسوله بل قاتل ليطاع هو (٢). فلو كانت محاربته لمحاربة للرسول لكان المنتصر في آخر الامر هو ، ولم يكن الامر كذلك بل كان آخر الامر يطلب مسالمة معاوية (٣).

إن هذا الأمر ليس غريباً عن رجل مثله فهو أول رجل يحقق أحلام دمشق القديمة في خلق كتاب فضائل معاوية (٤) وقد جمع لأول مرة في التاريخ كتاباً منفرداً بعنوان - فضائل معاوية وفي يزيد وأنه لا يسب - (٥) علماً أن هناك بون شاسع بين المسلمين الأوائل ، والطلاق أبناء الطلقاء ولسنا هنا في معرض الدفاع والرد على ما قاله بقدر ماهو طرح لهذه الافكار الشاذة والتي ما قال بها أحد قبله.

---

١ - صائب عبد الحميد ، ابن تيمية حياته ، عقائده ص ٣٢٨.

٢ - ابن تيمية ، منهاج السنة : ٢ / ٢٠٢ - ٢٠٥.

٣ - المصدر السابق : ٢ / ٢٣٣ - ٢٣٤.

٤ - صائب عبد الحميد ، ابن تيمية حياته ، عقائده ص ٢٧٨.

٥ - الوافي بالوافيات : ٧ / ١٦ بواسطة صائب عبد الحميد.

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل أصبح يبيح قتل المسلمين وجعل القتل أمراً عادياً إذا كان في مكائد الحرب علماً أن المقتول هذه المرة هو الحسن بن علي عليه السلام وحبیب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي قال فيه رسول الله سيد شباب أهل الجنة وريحانته ، فكيف وأن الإسلام شد الوعيد على من قتل مسلماً متعمداً فجزاؤه جهنم لقوله تعالى : ( مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ) (١).

فيأتي ابن تيمية ببرودة ويقول إن معاوية حين أمر بسم الحسن وقتله كان ذلك من باب القتال الدائر بينهما (٢). وهذا من باب التبريرات التاريخية الواهية فكيف يأمر بسمه وقد عاهده على الصلح ولا أظن أن الامام الحسن عليه السلام ممن ينسى أن وعد المسلم دين عليه. فحادثه التسميم كانت بعد الصلح وبهذا يصبح لا مبرر لهذا العمل الشنيع والذي لم يحرك له شيخنا الجليل ساكناً.

والأشنع من ذلك موقف ابن تيمية من ثورة الامام الحسين حيث يرى أن مفسدة ثورة الامام الحسين عليه السلام أعظم من مصلحتها ، ورأى أن كل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير (٣) ، وبهذا يصير يزيد الفاسق شارب الخمر واللاعب بالقروء إماماً والذي قام لإصلاح هذا الوضع حيث قال

---

١ - المائدة : ٣٢.

٢ - منهاج السنة ، ابن تيمية : ٢ / ٢٢٥.

٣ - المصدر السابق : ٢ / ٢٤١.

الحسين عليه السلام ( إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولكنى خرجت لطلب الإصلاح  
فى أمة جدّى لآمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر ) مفسداً.  
إن هذه الرسالة الخالدة لم تحرك فى ابن تيمية ساكناً بل يرى أنه لم يكن فى خروج الامام  
الحسين عليه السلام مصلحة لا فى دين ولا فى دنيا ، وكان فى خروجه وقتله من الفساد ما لم  
يكن يحصل لو قعد فى بلده ، وهذه رؤية مادية لا ترى البعد الاستراتيجى لثورة الامام  
الحسين.

فخروجه أولاً عن علم باستشهاده وكتب الحديث تشهد بذلك فقد مر على عليه السلام  
بكرلاء فى طريقه إلى صفين فنادى اصبراً أبا عبد الله بشط الفرات.  
قيل له وما ذاك؟  
فقال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم وعيناه تفيضان ، فقلت ما أبكاك  
يا رسول الله؟  
فقال : « بلى ، قام من عندى جبريل قبل فحدثنى أن الحسين يقتل بشط الفوات وقال لى هل  
لك أن أشمك من تربته؟  
قال فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عيني أن فاضتا « (١) لكن ابن  
تيمية لم يلتفت إلى هذا.  
والبعد الثانى الذى يرى فيه مفسدة للدين لا أظنه إلاّ العكس فلولا

---

١ - مسند أحمد : ١ / ٨٥ ، البداية والنهاية : ٨ / ٢٠١ .

الحسين عليه السلام لذهبت كل القيم الإسلامية لأنه أول من فتح الثورة على الظلم والطغيان فجاءت ثورة التوابين والمختار الثقفي ، وزيد بن علي رضي الله عنه وابنه يحيى ، واستيقظت الضمائر بعدما انحنت للظلم فاستشهد التابعي الجليل سعيد بن جبى ر. إذن كل هذا الإحياء الدينى حركته ثورة الإمام الحسين عليه السلام ولكن الغريب أن نجد إنساناً غريباً يفهم هذه الأبعاد العظمى للثورة الحسينية ولا يفهمها من يعيش داخل هذا الدين .

فقد قال ماربين فى كتابه السياسة الإسلامية :

« إن حركة الحسين فى خروجه على يزيد ك انت عزيمة قلب عزّ عليه الإذعان وعزّ عليه النصر العاجل فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويحيى به قضية مخدولة ليس لها بغير ذلك حياة .

هكذا فهم هذا الغربى البعد الحقيقى والسامى (١) لثورة الامام الحسين عليه السلام والذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ( حسين منى وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسيناً ، حسين سبط من الأسباط ) (٢).

إذن لماذا هذا الحب المفرط من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ إذا لم يكن يعلم صلاحه ورشده لكن عالمنا التحرير لم تحركه هذه الأحاديث بل يرى فى قتل الإمام الحسين حالة عادية بحيث يرى بأن يزيد ليس بأعظم

---

١ - ابو الشهداء : ١١٨ عن ماربين فى كتابه بواسطة صائب عبد الحميد ابن تيمية حياته

عقائده ص ٤٠٢ .

٢ - أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير : ٨ / ١٤١٥ ، ح ٣٥٣٦ .

جرما من بنى إسرائيل ، كان بنوا إسرائيل يقتلون الأنبياء وقتل الحسين ليس بأعظم من قتل الأنبياء (١). وكان الله تعالى موافق على قتل أنبياء بنى إسرائيل وحاشى أن يكون هذا وهو القائل ( لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ) (٢). إن القتل بحد ذاته محرم داخل الشريعة الإلهية والأعراف وهذا للأشخاص العاديين فكيف إذن بمن كرمهم الله من انبياء وأئمة وعلى يد من؟ كفار وفساق أى ان حالة الحق والباطل ظاهرة. لكن حينما تعمى الأبصار والعقول فلا حياة لمن تنادى.

---

١ - ابن تيمية ، منهاج السنة : ٢ / ٢٤٧.

٢ - المائدة : ٧٨.

وقفه أخيرة

إن تحامل ابن تيمية على آل بيت النبي صلى الله عليه وآله جعله يبذل قصارى جهده لنفى كل الميزات الخاصة بهم ومن بينها نفى سبب نزول ( سأل سائلٌ بعذاب واقع ) (١) فى الذى أنكر وشكك فى ولاية أمير المؤمنين على عليه السلام ولرد هذه المزعمة تقوم بمناقشته فى هذه المسألة بصورة موجزة (٢).

سبب نزول الآية

ذكر القرطبي فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي فى تفسير سورة  
المعارج ١٨ / ٢٨٨.

قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ( من كنت مولاه فعلى مولاه . قال النضر بن الحارث لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : امرتنا بالشهادتين عن الله فقبلنا منك وأمرتنا بالصلاة والزكاة ثم لم ترض حتى فضلت علينا ابن عمك ، الله أمرك أم

---

١ - المعارج : الآية ١.

٢ - راجع الغدير للأمينى ففيه الرد الكافى ونورد هنا بشكل مختصر محاورته إياه.

من عندك؟ فقال والذي لا إله إلا هو إنه من عند الله .

فولى وهو يقول : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء !  
فوقع عليه حجر من السماء فقتله .

وفى تفسير ابن كثير (١) للآية قال .

قال النسائي حدثنا بشر بن خالد حدثنا أبو اسامة حدثنا سفيان الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى : ( سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ) .  
قال النضر بن الحارث بن كلفة .

وقد ذكر ابن كثير سببين آخرين لكنه رجح هذا الأخير حيث قال والصحيح الأول - أى الذى وضعناه هنا - لدلالة السياق عليه .

وقد أورده كذلك السيد محمد حسين الطباطبائي عن جعفر الصادق عليه السلام (٢) وفى الدر المنثور أخرج الفارياى وعبد بن حميد والنسائي وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ( سَأَلَ سَائِلٌ ) ، قال نزلت بمكة فى النضر بن الحارث وقد قال : ( اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ) الآية وكان عذابه يوم بدر . ولكن هذه من عند السيوطى لكون الآيات مدنية وستتطرق لها بالتفصيل فى موضعها .

---

١ - تفسير ابن كثير : ٤ / ٤١٩ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط ١٤٠٨هـ - ١٩٨٦م .

٢ - السيد محمد حسين الطباطبائي : الميزان فى تفسير القرآن : ٢٠ / ٨٢ .



## اعتراضات وأجوبة

ونستعرض هنا اعتراضات ابن تيمية على سبب نزول هذه الآية.

### الاعتراض الأول

بعض الروايات تذكر أن الحارث بن كلفة أناخ بناقته إلى البطحاء ومن هنا جاء اعتراض ابن تيمية حيث قال :

أخذه على البطحاء وكون مكانها بمكة ومحتمل سبب النزول المدينة فيصير مخالفاً - يعني أن هذه الحادثة باطلة لكون البطحاء مكانها بمكة والذين يستدلون بنزولها في الحارث بن كلفة قالوا بالمدينة وبذلك يصير الأمر مخالفاً وتبطل الرواية.

### الرد الأول

#### تعريف البطحاء

البطحاء قد لا يقصد بها مكان معين وإنما تعنى فى اللغة أى الأبطح وهى كل مسيل فيه دقاق الحصى ، وليس حجراً على اطراف البلاد أن تكون فيها أباطح.  
وروى البخارى فى صحيحه (١) ، ومسلم فى صحيحه (٢) عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أناخ بالبطحاء بذي الحليفة صلى بها.

---

١ - صحيح البخارى : ٢ / ٥٥٦.

٢ - صحيح مسلم : ٣ / ١٥٤.

وفى إمتاع المقریزی (١) : أن النبی إذا رجع من مكة دخل المدينة من معرس الأبطح ، فكان فى معرسه فى بطن الوادى فقيل له إنك ببطحاء مباركة.

وفى مصابيح البغوى (٢) ، قال :

قال القاسم بن محمد : دخلت على عائشة رضى الله عنه فقلت يا أمه اكشفى لى عن قبر النبی صلى الله عليه وآله وسلم فكشفت لى عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء.

وفى معجم البلدان (٣) :

البطحاء فى اللغة مسيل فيه دقاق الحصى ، والجمع الأباطح والبطاح على غير قياس.

الاعتراض الثانى

وهو حمله الآية السورة كلها على أنها مكية وبالتالى تنتفى الدلالة من كونها نازلة بعد حديث تولية إمارة المؤمنين لعلی بن أبى طالب عليه السلام.

الرد الثانى

يمكن أن يكون مجموع السورة مكية بخصوص بعض الآيات ف إنها مدنية كما هو واقع مجموع من السور القرآنية ولا إشكال فى أن تكون

---

١ - إمتاع الأسماع : ص ٥٣٤.

٢ - مصابيح السنة : ١ / ٥٦٠

٣ - معجم البلدان : ١ / ٤٤٤.

بدايتها ومفاتها مكية كما هو الشأن لمجموعة من السور المدنية والتي تحتوى على آيات  
مكية ومثال ذلك كثير :

١ - سورة العنكبوت مكية ، عشر الآيات الأولى منها مدنية.

٢ - سورة الكهف مكية ، ٧ آيات منها مدنية.

٣ - سورة إبراهيم مكية إلا قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْهَارِ ) (١).

٤ - سورة الإسراء مكية إلا قوله : ( وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ ) (٢) و ( وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ) (٣).

والأمثلة في القرآن على ذلك كثيرة.

الطباطبائي يرد

نورد هنا قول العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره الميزان وهو يبرهن على  
مدنية هذه الآية ، فانه يقول :

الذى يعطيه سياق السورة أنها تصف يوم القيامة بما أعد فيه من أليم العذاب للكافرين ؛  
تبتدئ السورة فتذكر سؤال سائل عذاباً من الله للكافرين فتشير إلى أنه واقع ليس له  
دافع قريب غير بعيد كما يحسبونه ثم تصف اليوم الذى يقع فيه والعذاب الذى أعد لهم فيه  
وتستنتى

---

١ - إبراهيم : ٢٨.

٢ - الإسراء : ٧٦.

٣ - الإسراء : ٨٠.

المؤمنين الذين قاموا بوظائف الاعتقاد الحق والعمل الصالح.

وهذا السياق يشبه سياق السور المكية غير أن المنقول عن يع ضهم أن قوله : ( وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ) (١) مدنى والاعتبار يؤيده لأن ظاهره الزكاة قد شرعت بالمدينة بعد الهجرة وكون هذه الآية مدنية يستتبع كون الآيات الحافة بها الواقعة وهى أربع عشرة آيات قوله : ( إِلَّا الْمُصَلِّينَ ) إلى قوله : ( فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ) مدنية لما فى سياقها من الاتحاد واستلزام البعض للبعض.

ومدنية هذه الآيات الواقعة تحت الاستثناء تستدعى ما استثنيت منه وهو على الأقل ثلاث آيات قوله : ( إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ) إلى قوله ( مُنُوعاً ) على أن قوله ( فَمَا الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهُطِعِينَ ) متفرع على ما قبله تفرعاً ظاهراً وهو ما بعده إلى آخر السورة ذو سياق واحد تكون هذه الآيات أيضاً مدنية.

ومن جهة أخرى مضامين هذا الفصل من الآيات تتناسب حال المنافقين الحافين حول النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن اليمين وعن الشمال عزيز وهم الرادون لبعض ما أنزل الله من الحكم وخاصة قوله ( أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ ) الخ ، وقوله ( عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ ) الخ على ما سيجىء ، ومواطن ظهور هذا النفاق المدينة لا مكة ، ولا ضير فى التعبير عن

هؤلاء بالذين كفروا فنظير ذلك في سورة التوبة وغيرها (١).

ومنه يتضح بالجلي على أن هذه الآيات مدنية النزول باعتبار القرائن الملازمة لحالة المدينة لا مكة كمثال الزكاة والمنافقين ، وحتى لو سلمنا بكون السورة مكية فإنه من الجائز نزول الآية مرتين أو مرة بعد أخرى من أجل العظة والتذكير كمثال سورة الفاتحة فإنها نزلت مرة بمكة حين فرضت الصلاة ، ومرة بالمدينة حولت القبلة ولثنية نزولها سميت بالمثاني (٢).

#### الاعتراض الثالث

انها نزلت بسبب ما قاله المشركون بمكة ، ولم ينزل عليهم العذاب هناك لوجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينهم لقوله تعالى ( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ) .

#### الرد الثالث

إن دليل الاعتراض مربوط بالاستدلال القرآني ولفظ الآية غير محمول على المشركين بل هو ملزوم بأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ودليل ذلك قوله تعالى ( وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ) فلا يكون الاستغفار من مشرك كافر. ومن هنا يصير الخطاب موجه لعصاة المسلمين وأما من ارتد عن

---

١ - محمد حسين الطباطبائي. الميزان : ٢٠ / ٦.

٢ - اتقان السيوطي : ١ / ٣١.

الإسلام وكذب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وطلب العذاب من الله تحدياً واستخفافاً فعلى الله أن يعجل عليه نقمته . وكما أسلفنا سابقاً أنه خلال المرحلة المدنية تزايد المنافقون الذين يكونون الدسائس للإسلام.

#### الاعتراض الرابع

ان المعلوم من هذا الحديث أن حارثاً المذکور كان مسلماً باعتزافه بالمبادئ الخمسة الإسلامية ومن المعلوم بالضرورة أن أحداً من المسلمين لم يصبه عذاب على عهد النبي.

#### الجواب الرابع

إن الحارث قبل تشكيكه في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مسلماً ولكن لمجرد التشكيك دخل الكفر وفي قوله تعالى ( سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ) والسؤال بمعنى الطلب والدعاء وتم الحاق الباء لما تضمن الفعل من الاهتمام والاعتناء ، وقيل الباء زائدة للتأكيد ، ومآل الوجوه واحد وهو طلب العذاب من الله كفراً وعتواً. والآية تحكى سؤال العذاب وطلبه عن بعض من كفر طغياناً وكفراً (١) وأما العذاب الذى جاءه كان بعد الكفر والارتداد.

لكن شيخنا يتراجع ويخبرنا بكون الحارث بن كلدة غير معروف فى الصحابة ولم يذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب وابن مندة وابو نعيم

---

١ - الطباطبائى ، الميزان : ٢٠ / ٧.

الاصبهاني وأبو موسى في تأليف ألفوها في أسماء الصحابة وهذا في حسبي هو الخلط بعينه فكيف ينكره الآن بعد ما نسبته قبلاً للإسلام مؤمناً بالأركان الإسلامية الخمسة. واعتراضه هذا في حد ذاته واه فإن عدم تصنيف المصنفين لإسمه ليس دليلاً على عدم وجوده. إذ أن كل مؤلف يكتب بقدر إحاطته وسعته ، عن أبي زرعة الرازي قال : توفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن رآه وسمع منه زيادة على مائة ألف إنسان من رجل وامرأة ، كلهم قد روى عنه سماعاً أو رؤية ومع هذا فجميع من في الاستيعاب يعني بمن ذكر فيه باسم أو كنية وهم ثلاثة وخمسمائة ولم يستوعب ابن أبي زرعة الباقي ، ومما لا شك فيه أن عدم معرفتهم ليس دليلاً على عدم وجودهم.

ص: ٧٩

## الفصل الثالث

ابن كثير ... الوهم والحقيقة

ص: ٨٠



لعمري ما أغرب أن تجد إنساناً يؤرخ لفترة زمنية وبقناعات ذاتية مرتبطة بتوجهه  
الايديولوجي يخطط خطط عشواء في سرد الأحداث والوقائع ، حتى أنه لا يستطيع هو نفسه  
استيعاب ما يريد إبلاغه للآخرين لذا تجده يورد أحداثاً في قضية معينة وكل حدث يناقض  
بعضه. مما يعطى رؤية على أن هذا الشخص غير مقتنع تمام الاقتناع بالقضايا التي يطرحها إذ  
أنه أصبح أسير الموروثات القديمة التي كونت لديه نفسية تاريخية تحدها أبعاد مذهبية .  
والعدد الهائل من الروايات التي يتعامل معها بعضها يعكس الحقيقة وقد تكون مخالفة  
لاعتقاداته وأخرى هي من إنتاج التاريخ مما يحدث تصادماً بين هذه المعطيات الشيء الذي  
يدفع بالمؤرخ المتعامل مع هذه النصوص بإدراجها بأجمعها وإدخال قلمه على حسب قدرته  
لتبرير فعل أو الدفاع عنه أو أقرب طريقة لذلك وهو تضعيفه سند الرواية والانتصار  
للمرويات المفضلة عنده. أو بطريقة أخرى أسهل وهو إهمال الرواية وعدم إدراجها نظراً لما  
تحمله من دلالات ومعاني وبالتالي تخليص النفس من الدفاع والبحث عن الانتصار.  
وقد كان ابن كثير أحد هؤلاء المؤرخين حيث أذهلته موسوعته

بذلك الكم الهائل من الروايات والتي غلب عليها التكرار وكذلك الحشو المتزايد بحيث لا تلمس نفسك تدرس موسوعة تاريخية على مثل الامامة والسياسة ؛ بل هي عبارة عن كتاب جمع في داخلها المتناقضات المتفحص بحيث يقف مذهولاً وبصاف عقله بالارتجاج وهو لا يستطيع الوصول إلى نتيجة ، لكن يطرح هذا الأمر أمامه باب الشك حول هذه الأحداث المتراكمة مما يجعله يستشف أن هناك أشياء وقعت ويحاول المؤرخ تجاوزها أو إغفال العين عنها.

#### لحظة الوفاة

طلعت ذات يوم بشوق متزايد أحداث سنة ١١ للهجرة ولكن مع الأسف وجدت أن يد ابن كثير تعاملت مع هذه الفترة بكثير من الوضاعة والاحتياي ؛ بحيث أن هناك أحداثاً تاريخية مهمة قد غض الطرف عنها بالإطلاق والتي كان لها تأثير كبير في تشخيص وضع المجتمع الإسلامي قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهم هذه الأحداث هي سرية أسامة بحيث لم يذكر لها أثر والأحداث التي وقعت أثناء إنفاذ هذه السرية ، من تأييد الرسول لها وعقد لوائها بيده الشريفة ودعوته بالإسراع لتنفيذها ولعنة المتخلفين عنها . ولكل هذه الأعمال دلالات (١) ولكن رغم ذلك فإن ابن كثير لم يفرد لها شيئاً وهذه من إحدى الأبواب

---

١ - راجع أحمد شلبي والتاريخ في الملاحق القادمة.

التي سلكها لإخراج هذا التاريخ كما يوافق رؤاه والتي ترى خبر القرون قرنى هذا والذي يليه ومع تحقق اللعنة المرتبطة بالتخلف عن جيش أسامة وكان فيها كبار الصحابة فإن هذه الأحاديث تصبح لا داعى لذكرها ؛ لأنها تسقط اصنامهم المقدسة ، وهو الشيء الذي لا يريده مؤرخنا.

ولكن الأمر من هذا هو الرواية الغريبة التي أوردها حول الرزية - رزية الخميس - بحيث لا علاقة لها بالحدث التاريخي الذي حصل آنذاك فأخرج في موسوعته عن علي بن أبي طالب قال أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن آتية بطبق يكتب فيه مالا تفضل أمته من بعده ، قال : فخشيت أن تفوتني نفسه ، قال : قلت : إني احفظ وأعى (١).

إن هذه الرواية متشابهة مع رزية الخميس ، ولكن هنا الإمام على هو الذي امتنع عن إعطاءه الطبق باعتباره يحفظ ويعي ولا أظنها إلا ردأ على الرواية التي اتفق عليها أصحاب الصحاح ، والتي رفض فيها جمع من الصحابة إعطاء النبي ما طلبه ليكتب لهم الوصية وفيهم عمر . فخالفوا بذلك أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يخفى على أحد موقف الإسلام من مخالفة أمره صلى الله عليه وآله وسلم.

ويتضح من إيراد ابن كثير النص الصحيح وتعليقه عليه بأن الحديث عند الشيعة مع ربطه بأحاديث أخرى يفيد الوصية للإمام على عليه السلام من

---

١ - ابن كثير ، البداية والنهاية : ٥ / ٢٠٩ .

بعد رسول الله ، مما جعل ابن كثير يراها إحدى مفتريات الشيعة إذ يقول : وأما ما يفتره  
كثير من جهلة الشيعة والقصاص الأغبياء ، من أنه أوصى إلى على بالخلافة فكذب وافتراء  
عظيم يلزم منه خطأ كبير (١) لكن في نفس الوقت يرجع للدفاع عن توصية الرسول لأبي  
بكر (٢) رغم ما في هذا القول من علة (٣).

ابن كثير يتناقض مع نفسه

حينما تكثر الأحداث التاريخية ، فإن نباهة المؤرخ ومدي تتبعه لمصادقية الحدث التاريخي  
تظهر بوجود تناسق بين المرويات وسرد الأحداث ، لكن مع الأسف هذا ما لم نره عند ابن  
كثير إذ أن تضارب الأحداث فات حده في كتابه بحيث يجعلك لا تستقر على أمر معين  
وهذا ما يجعل الباحث يستشف البعد التحريفي لأحداث التاريخ وما حدث فيه على طول  
استيلاء السلطات الظالمة على رقاب المسلمين ومدى مساعدة علماء الجور لهم والدفاع  
عنهم وإيجاد الطرق الكفيلة لتخريج هذا التاريخ للناس بشكل ينسجم وعقلية الناس التي  
أعتادت الاستسلام للظلم وتبرير ظلمهم بل وحتى في عصرنا الحالي نجد قلة

---

١ - ابن كثير ، البداية والنهاية : ٥ / ٢٣٦.

٢ - المصدر السابق.

٣ - للإطلاع على علل هذا الحديث راجع كتاب تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي لصائب  
عبد الحميد.

من يتعاطف مع شهداء حادثه كربلاء لأنّ الأغلبية العظمى تعطيها تأويلات صاغتها أيدي وعاظ السلاطين لتصل جا هزة الى عقول الآخرين وكثير من الناس لازالت تجهل مكانة آل البيت النبوى فى الإسلام وعلى رأسهم أمير المؤمنين ، حتى وصل الأمر ببعضهم لاتهامه بالطامع فى الخلافة (١) علماً أن الإمام على عليه السلام كان الوجه الأول للمواجهة ضد اعداء الإسلام والحامل للواء العلم وا لمعرفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكل هذا لأنه رأى أنه هو المؤهل شرعاً وعقلاً لتسيير أمور المسلمين ، وهذا الأمر هو الذى حير المؤرخين فى كيفية صياغة أحداث التاريخ بحيث تتسجم وطبيعة تصورهم ، لكن كما أسلفنا سابقاً لم يحالفهم الحظ فى ذلك فكانت كل استدلالاتهم ناقصة ، ومثال ابن كثير واضح فى هذا المجال والأمثلة على ذلك كثيرة.

ابن كثير وأحداث السقيفة

لا أحد يشك فى أن أول اجتماع حدث بعيد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان فى سقيفة بنى ساعدة ، وكان المجتمعون هم جماعة من الأنصار وثلاثة من المهاجرين وه م أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح إذ بلغ مسمعهم أن الانصار مجتمعين فى السقيفة بزعامة سعد بن عباد فلما وصل الخبر إلى أبى بكر فزع فزعاً شديداً ، وقام معه عمر فخرجا

---

١ - راجع فصل أحمد شلبى.

مسرعين إلى سقيفة بنى ساعدة فلقيا أبا عبيد ة بن الجراح فانطلقوا جميعاً ، حتى دخلوا السقيفة وفيها رجال من الأشراف معهم سعد بن عباد (١).

إن دراستنا لهذا الحدث التاريخي تبين عدم عقد إجماع البيعة لأبي بكر وما إصراره للسقيفة إلا محاولة لحصر هذا الموضوع وعدم انتشاره بين الناس كي لا ينفروا من بيعته وتكون بذلك أولبيعة لأبي بكر استعين بها بالعصبية القبلية - وخصوصاً بين الاوس والخزرج - قد وقعت في السقيفة مما لا يعطيها الشرعية الدينية بحيث يغيب عنها كبار الصحابة وبخاصة أهل البيت الهاشمي ولكن ابن كثير من أجل أن يخرج من هذا المأزق أخرج لنفسه رواية تجعل من البيعة بيعة عامة في المسجد قبل أن يتجه إلى السقيفة إذ بايعه في المسجد جماعة من الصحابة ووقعت حسب زعمه شبهة لبعض الأنصار (٢).

وقد يظن البعض بأن هذه الرواية بسيطة لكنها في الحقيقة شرعنة للنظام الخلفائي الذي يفتقد المصادقية الدينية فمحاولة البعض لتصوير وقوع البيعة في المسجد هي وسيلة لشرعنة هذا العمل وإعطائه صبغة جماعية ، ومما يزيد من تأكيد هذا القول أي أن البيعة الأولى كانت في المسجد هو ما أورده بعد ذلك حيث يقول :

---

١ - انظر : ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص ٩ - شركة مكتبة ومطبعة ومصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر محمد محمود الحلبي وشركاه - حلفاء.

٢ - ابن كثير ، البداية والنهاية : ٥ / ٢١٤.



فى المسجد قولاً لآ م جال له من الصلحه وإنما يأتى من بعد الخلاف والزام المخالفين بالبيعة بإحضارهم إلى المسجد أو الهجوم عليهم بمنزل الزهراء عليها السلام ، والمراد من هذا القول كما قلنا هو إصباغ البيعة بشرعية وإجماع الأمة ولم يكن إدراجها من قبيل حكى المرويات ولكن لغرض فى نفس ابن كثير يبغي من خلالها عملية التمويه التاريخى ولم يكتفى عند هذا الحد من أجل إعطاء الشرعية ونفى ما قيل عن حال الخلاف الواقع بل صور الأمر بأن كل المخالفين واللى أثبت كتب التاريخ إصرارهم على عدم الاعتراف بالبيعة اذعنوا بعد ذلك للامر وبايعوا بطيب خاطر.

سعد ابن عبادة وابن كثير

يعتبر سعد ابن عبادة من المعارضين لخلافة أبى بكر بـحيث وقف ضد أبى بكر فى السقيفة ولم ينحنى أبداً أمام التهديدات وبقي على ما ذهب اليه حتى قتل فى عهد عمر وهو لم يبايع عمر كذلك . وكان سعد ابن عبادة سيد قومه وله منزلة قبل إسلامه وبعد إسلامه مما يج عل عدم قبوله للبيعة لها أولاً دلالة حول مصداقيتها وثانياً أنها تفنّد القول بالاجماع والذى حكى عنه المؤرخون.

فأما مصداقيتها فهى نفى الشرعية عن الولى بـحيث يكون هو المسؤول عن كل الأمور الدينية وإمام الأمة فى الصلاة وترك الصلاة وراءه هو من باب عدم الاعتراف بإمامته بـحيث أن سعداً لم يكن يصلى

ص: ٨٨



بصلاتهم لم يجتمع معهم (١) بل وصل به الأمر أنه دعى إلى محاربتهم وكان هو على يقين من خروجهم عن جادة الشرع بحيث قال : أما والله لو أن لى ما أقدر به على النهوض ، لسمعت منى فى أقطارها زئيراً يخرجك أنت وأصحابك ، ولألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع خاملاً غير عزيز (٢) وهكذا فإن المصادقية الشرعية تُفقد ، وما الدعوة إلى محاربتهم إلا دليل على ذلك ، ولا أظن أن سعد بن عباد غافل عن تحريم القتال بين المسلمين.

وأما الإجماع فخروج نفر واحد له مكانته فى قومه وبين المسلمين لخير دلى ل على سقوط القول بالإجماع ولا أظن أحداً من المؤرخين قال أن سعداً تنازل عن موقفه هذا إلا مؤرخنا الكبير ابن كثير بحيث خالف الإجماع التاريخى وذكر بأن ابن سعد تنازل واعترف بإمارة القرشيين إذ يقول أن أبى بكر قال له : ولقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال وأنت قاعد ، قريش ولأه الأمر فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم ، فقال له سعد : صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء (٣). وهذا جزء من التبريرات والشرعنة الواهية التى يتبعها ابن كثير

---

١ - الامامة والسياسة ، ابن قتيبة ص ١٠.

٢ - المصدر السابق.

٣ - البداية والنهاية : ٥ / ٢١٨.

للاتنصار لهذا التاريخ والتي تجعله يسقط في مطبات كثيرة بحيث أنه في نفس هذه الحادثة المرتبطة بسعد بن عباد يذكر كذلك رفض سعد لهذه البيعة حتى انزوى المبايعون في السقيفة على سعد ، فقال قائل منهم : قتلتم سعداً ، فقال عمر : قتل الله سعداً (١) ، مما يبين الحقيقة الصحيحة لموقف ابن عباد والذين أجمع كل من كتبوا في التاريخ على هذه الحقيقة. ولم يقف ابن كثير فقط عند سعد ابن عباد بل تعداه إلى الامام على عليه السلام وجعله من المبايعين الأولين وهو الذي دافع عن حق ه و له أهل ونسب أنه ما بايع أبى بكر إلا خشية أن يعود الناس عن دين محمد وذلك بعد مرور ستة أشهر وهو يبائع يذكر بأحقية في الحكم وقبلها كذلك بحيث يقول عليه السلام : أنا عبد الله وأخو رسوله ، أنا أحق بهذا الأمر منكم (٢) وفي مجلس البيعة خاطب أبا بكر مؤكداً على أ حقيقته فذكر استبداد أبى بكر بهذا الأمر دونه فقال عليه السلام : فانه لم يمنعنا أن نبايعكم إنكاراً لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك ولكن كنا نرى أن لنا هذا الامر حقاً ، فاستبددت علينا (٣). وكذلك البيت الهاشمي وعلى رأسهم العباس بن عبد المطلب إلى غاية ذلك الوقت وهو غير مبايع وكان يرى الأمر أمر

---

١ - المصدر السابق : ٥ / ٢١٦.

٢ - الإمامة والسياسة ص ١١.

٣ - الإمامة والسياسة ص ١١.

أهل البيت دون سواهم وفي رده على أبي بكر وعمر حينما جاءا يسترضيانه بمنصب في  
التركة المسلوبة أبي ورد حجتهم التي احتجوا بها على الانصار من كون الرسول من قريش  
وهو دليل الأحقية فرد العباس رضي الله عنه : أما قولك إن رسول الله منا ومنكم ، فإنه كان  
من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها (١).

إذن كل هذه الحوادث لم تحرك في ابن كثير حساً فأورد بأن علياً بايع مع الاوائل وذكر أن  
أبا بكر نظر في وجوه القوم فلم ير علياً فدعى بعلي بن أبي طالب فجاءه فقال ، قلت ابن عمّ  
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وختنه علي ابنته أن تشق عصا المسلمين قال : لا تشرب يا  
خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبايعه (٢).

لكن الأحداث أصعب من أن تصدق بهذه السهولة ، وهناك روايات تتحدث عن رفضه  
عليه السلام البيعة لمدة ستة أشهر حتى توفيت فاطمة عليها السلام وبالتالي يلزمه تخريجة  
تساير الأحداث التاريخية فيقول في هذا التأخير : واحتاج علي أن يراعى خاطرها بعض  
الشيء ، فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها صلى الله عليه وآله وسلم رأى علي عليه السلام  
أن يجدد البيعة مع أبي بكر (٣). فمتى كانت رعاية الزوجة تبطل البيعة؟ إذا كانت وجدت  
أصلاً.

---

١ - الامامة والسياسة ص ١٦.

٢ - البداية والنهاية : ٥ / ٢١٨.

٣ - انظر : المصدر السابق ص ٢١٩.

ولكنها هي نوع من البهلوانية في الدفاع عن هذا التاريخ المزيف الذي يصعب على الإنسان التخلص منه مما يجعله يبحث عن كل المنافذ لإخراج نفسه من الورطات والمآزق التاريخية حتى وإن كانت بطريقة ساذجة كما هو الحال مع مؤرخنا ابن كثير.

ص: ٩٢

ابن كثير والإمام علي عليه السلام

إن الامام علي عليه السلام يمتلك شخصية متكاملة من جميع الجوانب بحيث لو وقفنا عند كل شخصية من الشخصيات البارزة في التاريخ نجد انها لن تأخذ نفس الحجم والمكانة التي كانت تمتلكها شخصية الامام علي عليه السلام فحتى عمر بن الخطاب الذي بالغ التاريخ في وصفه لم يجد له التاريخ الا صفة الشدة والصرامة ، كما أن شخصيته لم تستطع أن تؤثر في التفكير الإسلامي بل أن صيته العلمي والمعرفي لم يبلغ الحد الذي يخلق ثورة فكرية في المعرفة الإسلامية ؛ بل لطالما اعتبر نفسه أجهل الناس وحتى ربات الحجال أعرف منه ، ولطالما عبر كذلك عن احتياجه لابي الحسن عليه السلام بحيث كان يقول ويل لعمر من امر ليس له ابو الحسن.

اما الحركة العمريّة في التاريخ فقد استغرقت مدة وجيزة لم تستطع بعدها الاستمرار في مجارات أحداثه وذلك ناتج أولاً عن غياب قاعدة فكرية وثانياً أنّها لم تخلق الا منافسة للخط العلوي الذي له مناعة وقاعدة فكرية تتمثل في التراث الإسلامي الأصيل والمرتبطة أساساً بمدرسة آل البيت ، والتي كان علي عليه السلام رائدها مما جعلها المدرسة التي

ص: ٩٣

استطاعت أن تخلد نفسها في التاريخ وتتأقلم مع طبيعة الأحداث والوقائع التي تعيشها رغم حالات القهر والقمع السلطاني الذي عاشته ، والذي سخر علماءه للوقوف في وجه هذا المد المحمدي الأصيل وذلك بالتشكيك في رموز هذه المدرسة وتراثها المعرفي.

ولا غرابة أن نجد في التاريخ علماء أخرجوا هذه الطائفة من حظيرة الإسلام ، ونعتوهم بمجوس الأمة رغم القرائن والدلائل الشرعية التي تعبر عن صحة آراء هذه المدرسة ، وهذا كله لماذا؟ إنه الشخصية المميزة لهذا التاريخ ألا وهو على عليه السلام ، والذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ( هلك فيك اثنين كاره مبغض ومحب مغال ) ، الشيء الذي يجعل منه مفتاح الأمة الإسلامية وذلك كمحرار لقياس درجة الجسم ؛ مع العلم أن درجة الج سم  $37^{\circ}\text{C}$  فأى نزول أو زيادة عن هذه الدرجة فإنه حتماً تدل على حالة مرضية . لذا يكون الحفاظ على هذه الدرجة الثابتة هو عين الصحة . فكذلك حب الإمام على عليه السلام فهو ثابت في درجة معينة فأى تقصير في حق هذه الدرجة هو خروج عن حالة الاعتدال وفيه هلاك الشخص ، ولا يكون ذلك إلا بإنكار حقوقه وحقوق آله والتي هي حقوق شرعية إلهية بحيث كل مخالفة لهم هي مخالفة لما أوجبه الله والذي يقول : ( قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ) (١)

---

١ - الشورى : ٢٣ ويرجع في تفسير هذه الآية إلى ابن كثير : ٤ / ١٤١ ، الكشف للزمخشري : ٤ / ٢١٩ ، الشوكاني ، تفسير القدير : ٤ / ٥٤٣ ، الطبري : ١١ / ١٤٤.

وكذلك الجهة الثانية وهي المحبة المغالية والتي تفوق الحدود العقلية فتجعل آل البيت وعلى رأسهم الإمام في منزلة الألوهية وهذا من المحال أن يصدقه العاقل الذي يعطى لكل ذي حق حقه ، هذا الحق الذي خصه به الشارع الأكبر ألا وهو الله ، فتعالى أن يكون له شريك أو مثيل وهو القائل : ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ) فلهذا تكون جميع المحاولات للخروج عن حدود المحبة الطبيعية سواء بالكره ، أو المغالات هي من قبيل الشطح الذي يجب أن ويرد إلى طريق الصواب.

بهذا كانت شخصية الإمام هي المؤثرة في تاريخ الفكر الإسلامي بحيث ما افرقت الفرق إلا على هذه الشخصية سواء بمخالفته عليه السلام ، او بمناصرته ، فكان الامام عليه السلام مستهدفاً من الفرق المعادية ، حتى أن معاوية أجزل العطايا لكل من يروى في ذم الإمام عليه السلام ، وما سمره بن جندب وأبو هريرة إلا خير دليل على ذلك. كما أنه امر بلعنه على المنابر حتى تتزعزع مكانته في نفوس المسلمين ، وليس استشهاد حجر بن عدي رضي الله عنه إلا دليلاً على تمسك المخلصين بحب هذه النفس الطاهرة صلوات الله عليه وعلى آبائه الى يوم الدين.

وكما أن السلطان سخر القوة لمحاربتهم سخر كذلك باع وعاظ السلاطين أو أخذتهم النعمة المذهبية العقيمة للنيل من شخصيته عليه السلام ، وما شخصية ابن كثير إلا إحدى هذه الشخصيات التاريخية التي تعاملت مع شخصية الإمام على الإجحاف وبادرت إلى سلبه حقه الإلهي ، ولسنا هنا نغني الإمامة بل نقصد الحقوق الإلهية التي عبر عنها

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خلال حياته ، والتي تمنح الامام المكانة المميزة التي تميزه عن باقي الصحابة حتى أوصلته إلى أن يقول له كل المسلمون يوم الغدير ( بنخ لك أصبحت وأمسيت ولى كل مؤمن ومؤمنة ).

لكن مؤرخنا الجليل لم يحرك منه كل ذلك ساكناً . فبادر بشتى الطرق إلى تضعيف هذه الروايات بدون مبرر عقلي ومنطقي ، حتى يتخلص من مثل هذه الشخصية العظيمة . وكما أسلفنا سابقاً فما ابن كثير إلا الوجه الثاني لعملة وجهها الأ ول ابن تيمية الذى قال عنه ابن حجر العسقلاني أنه خلال رده على ابن المطهر الحلي تجاوز حده حتى أصبح يعرض لشخصية الامام على .

واليك بعض الامثلة على انكار ابن كثير لفضائل الامام على عليه السلام :

الإمام على عليه السلام والمؤاخاة

لا أحد ينزع فى كون حادث المؤاخاة هى إحدى المميزات والمفاخر التى تتوج بها الامام على عليه السلام خلال حياة النبى والتى تبين مكانته فى هذا الدين باعتباره صنو النبى صلى الله عليه وآله وسلم ونفسه . ولهذا دلالات عظيمة تحتم على كل الخاضعين لحضرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يخضع لهذه الشخصية . ولم تكن هذه الحادثة مفردة فى التاريخ الإسلامى بل نفسها أعيدت مرة أخرى ، وما سيرة النبى صلى الله عليه وآله وسلم معه عليه السلام إلا تأكيداً لهذه الأخوة وهذه الرتبة ، وذلك ابتداءً من حادثة الدار والذى أعطاه صلى الله عليه وآله وسلم الأفضلية بين بنى ه اشم ، إلى حادثة الغدير والذى أعطاه صلى الله عليه وآله وسلم الأفضلية



على عامة المسلمين.

ولم يصل الامام على عليه السلام إلى هذه المنزلة الا في ظل الرعاية الإلهية ، والتربية المحمدية والفطرة الأصيلة التي منحها الباري إياه ، حتى أصبح فريد زمانه في الجهاد فكان قاتل الكفار والمنافقين ، والثابت يوم حنين حين فرّكل المسلمين ، وفتح خيبر الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد فشل أبي بكر وعمر في فتح حصن خيبر ( غداً أعطى الراية رجلاً يحبه الله ورسوله ويفتح الله على يده ) فحقق الله ذلك وانتصر فرفعت راية الإسلام بفضله.

وأما في الجانب العلمي فهناك قرائن كثيرة تبين أفضليته العلمية حتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ( أنا مدينة العلم وعلى بابها ) ويقول هو عن نفسه : ( كان لى عند رسول الله دخلتان ) ، وكذلك ( سألونى قبل أن تفقدونى ) ، ولم يسبق أحد أن قالها غيره وهذا لثقتة بنفسه ومكانته فى هذا الدين.

وأفضل شاهد على عظمة مكانة الامام على عليه السلام ، هو سد الأبواب إلّا بابه عليه السلام ، ففي حديث جابر بن عبد الله الانصارى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ( يا على إنه يحل لك فى المسجد ما يحل لى وإنك منى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدى ) (١).

وكذلك عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال قام صلى الله عليه وآله وسلم يوم سد الأبواب

---

١ - المراجعات نقلاً عن ينابيع المودة الباب ١٧.

خطيباً ، فقال : ( إن رجالاً يجدون في أنفسهم شيئاً أن أسكنت علياً في المسجد واخرجتهم والله ما أخرجتهم وأسكنته بل الله أخرجهم وأسكنه ان الله عز وجل اوحى إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكما قبلة وأقيموا الصلاة الى أن قال وإن علي مني بمنزلة هارون من موسى وهو أخى ولا يحل لأحد أن ينكح فيه النساء ) (١). وهذا مما يبرز المكانة العظمى لشخصية الإمام على عليه السلام ، والتي لها دلالات وإيحاءات لا تستطيع أقلام المخالفين أن تنفيها (٢). لكن صاحبنا ابن كثير فإنه ينفي بكل جرأة حديث المؤاخذة ويقول أنها لم تكن من خصوصياته عليه السلام ، ويرى أنه عليه السلام تأخى مع شخص غير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويقول : « وأخى النبي بينه وبين سهل بن حنيف ، وقد ذكر ابن اسحاق وغيره من أهل السير والمغازي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخى

---

١ - المصدر السابق ، ومن حديث سدّ الأبواب إلّا باب على عليه السلام راجع : مناقب على بن أبي طالب لابن المغازلي الشافعي ص ٢٥٥ ترجمة الإمام على بن أبي طالب من تاريخ دمشق لابن عساكر الشافعي ١ / ٢٦٦ ، ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص ٨٨.

٢ - يوم فتح خيبر.

راجع : المناقب للخوارزمي الحنفي ص ٧٦ و ٩٦ ، مقتل الحسين للخوارزمي : ١ / ٤٥ ، كفاية الطالب للكنجي الشافعي ص ٢٦٤ ط الحيدرية ، مجمع الزوائد : ٩ / ١٣١ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢ / ٤٤٩ ط أفسست ، ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص ١٣٠ ، ط ١ ، اسلامبول ، وص ١٥٤ ، ط الحيدرية.

ص:٩٨

بينه وبين نفسه وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة لا يصح منها شيء لضعف أسانيدھا وركه بعض متونها فإن في بعضها « أنت أخى ووارثى وخليفتى وخير من أمر بعدى » وهذا الحديث موضوع مخالف لما ثبت في الصحيحين وغيرهما والله أعلم (١). إذن هذه وجهة نظر ابن كثير فلتنظر إلى الحديث المخصوص بالأخوة م ع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

قال ابن عبد البر في ترجمة على من الاستيعاب : أخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين ، ثم أخى بين المهاجرين والأنصار ، وقال في كل واحدة منهما لعلی : أنت أخى في الدنيا والآخرة ، وقال أخى بينه وبين نفسه.

وقال السريد عبد الحسين شرف الدين في مراجعته - مراجعة ٣٤ - : ولهذه الغاية نفسها قد اتخذ علياً أخاه ، وآثره بذلك على من سواه تحقيقاً لعموم الشبه بين منازل الهارونيين من أخويهما ، وحرصاً على أن لا يكون ثمة من فارق بينهما ، وقد أخى بين أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم مرتين كما سمعت ، فكان أبو بكر وعمر في المرة الأولى اخوين (٢) وعثمان

---

١ - ابن كثير ، البداية والنهاية : ٥ / ٢٣٤.

٢ - في المؤاخاة كان أبو بكر وعمر وعلى عليه السلام مع رسول الله.

راجع : مستدرک للحاکم : ٣ / ١٤ ، الفصول المهمة لابن الصبأ الملکی ص ٢١ ، كفاية الطالب للكنجي الشافعي ص ١٩٤ ، ط الحيدرية ، وص ٨٣ ، ط الغري ، اسد الغابة لابن الاثير : ٢ / ٢٢١ ترجمة الامام على ابن ابي طالب من تاريخ دمشق لابن عساكر الشافعي : ١ / ١٠٥ ، كنز العمال : ١٥ / ١٠٥ ، ح ٢٩٩ ط ٢.

وعبد الرحمن بن عوف اخوين ، وكان فى مرة ابو بكر وحارجه بن زيد اخوين ، وعمر وعتبان بن مالك اخوين ، أما على فكان فى كلتا المرتين أخا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أن هذا الحديث رواه ما يقارب عشرة من الصحابة وهم ابن عباس ، وابن عمر وزيد ابن ارقم ، وزيد بن أبى أوفى ، وأنس بن مالك ، وحذيفة بن اليمان ، ومحدوج بن يزيد ، وعمر بن الخطاب ، والبراء بن عازب ، وعلى بن أبى طالب (١).

ونظراً لكثرة الراوين أعرضنا عن ذكر كل المخرجين لحديثي المؤاخاة مما يعطى الدليل القاطع على صحته ووقوعه زمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، لكن مؤرخنا اعرض عن هذه الاحاديث لأنه لم يقصد التحقيق المعرفى الذى يتوخى من خلاله إرشاد الناس إلى طريق الصواب ، ولو ثبت ذلك بالطريق العقلى الصحيح لآمن به كل الناس ، لكنها محل إجماع كل العلماء إلا علماء السلفية ومنهم ابن كثير لأن فى بقائها ، وثبات صحتها مضرة لمدرسته التى بنيت على وهم قدسية عدالة الصحابة التى انفق المال الكثير من أجل تكريسها وليت ابن كثير يقف عند نفى المؤاخاة ، بل تجاوزها الى ما هو أفضع من ذلك فتهجم بكل ما

---

١ - عن عبد الحسين شرف الدين ، المراجعات : المراجعة ٣٤.

عنده من قوة على آل البيت وعلى رأسهم امير المؤمنين على بن ابي طالب عليه السلام.

على وآل البيت عليهم السلام

لم يتجراً أحد من العلماء منذ الجيل الأول إلى يومنا هذا ليخرج على بن أبي طالب من آل البيت ، لأن الوصول إلى هذه النتيجة هو من قبيل الحمق والجنون العلمى . فزعيم آل البيت لا يناقش أحد فى كونه هو قائد الغر المحجلين . وهذا منزل وشرف خصه به الله سبحانه وتعالى وأبنائه وامهم فاطمة الزهراء عليها السلام دون غيرهم للحظوة والمكانة التى كانوا يمتلكونها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك لأحقيتهم بخلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ورغم تجرء العلماء بتخطئة الإمام على فى سياسته وتسييره لأُمور الدولة ، لكن لم يسمح أحد لنفسه بأن يتجاوز الخط الأحمر ويعلن بصراحة أن أخا رسول الله ليس من آل البيت عليهم أجمعين السلام.

إلا مؤرخنا المحترم حيث يقول : قلت وأما الخلفاء الفاطميون الذين كانوا بالديار المصرية ، فان أكثر العلماء قالوا على أنهم أدعياء ، وعلى ابن أبى طالب ليس من أهل البيت ، ومع هذا لو يتم له الأمر كما كان للخلفاء الثلاثة قبله (١).

وهذا من دلائل الخبل الذى أصاب صاحبنا علماً أنه يروى رواية

---

١ - ابن كثير البداية والنهاية : ٥ / ٢٣٧.

أهل الكساء في تفسيره (١). وما من أحد خالف كون المقصود في قوله تعالى : ( إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ) هم فاطمة وعلي والحسن والحسين ، وذلك كما جاء في رواية أم سلمة رضي الله عنها حيث قالت :  
دعا رسول الله حسناً وحسيناً وفاطمة فأجلسهم بين يديه ، ودعا علياً فأجلسه خلفه فتجلل هو وهم بالكساء ، ثم قال : « هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ».  
فتقول أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « فأنا معهم يا نبي الله ».  
فيقول لها « أنت على مكانك ، وأنت على خير » (٢).  
وهذا الحديث يكفي لبيان ويزيل الغموض لصاحبنا بأن الإمام علي هو أحد أعمدة آل البيت ، كما أن هناك أحاديث أخرى واردة في هذا السياق ، فعن مالك بن أنس قال : ( صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبعة عشر شهراً فإذا خرج من بيته أتى باب فاطمة عليها السلام فقال : ( إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ) كل يوم خمس مرات ) (٣).

١ - ابن كثير في تفسيره : ٣ / ٤٨٥.

٢ - رواه الطبري وابن كثير في التفسير والمحجب الطبري في ذخائر العقبي والسيوطي في الدر المنثور والحاكم في مستدرک الصحيحين.

٣ - رواه الترمذي في الصحيح ، وأحمد في مسنده ، والطيالسي في المسند ، والحاكم في مستدرک الصحيحين ، وابن الأثير في اسد الغابة وابن كثير والسيوطي في تفاسيرهما.

ونفس الرواية واردة عن ابي برزة (١) ، وعبد الله ابن عباس (٢).

وقال شرف الدين رحمه الله :

وقد اجمعت كلمة أهل القبلة من أهل المذاهب كلها على أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما نزل الوصى بها - بآية التطهير - عليه ضم سبطيه وأباهما وأمهما إليه ، ثم غشاهم ونفسه بذلك الكساء ، تمييزاً لهم على سائر الأبناء والأنفس والنساء ، فلما انفردوا تحته عن أسرته كافة ، واحتجبوا به عن بقية أمته بلغهم الآية ، وهم على تلك الحال ، حرصاً على أن لا يطمع بمشاركتهم فيها أحد من الصحابة والآل ، فقال مخاطبهم ، وفى معزل عن الناس كافة : ( إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ) فأزاح صلى الله عليه وآله وسلم بحجبهم فى كسائه حيثئذ حجب الريب ، وهتك سدف الشبهات ، فبرح الخفاء بحكمته البالغة ، وسطعت أشعة الظهور ببلاغة المبين والحمد لله رب العالمين (٣).

وهناك مرويات كثيرة تثبت هذه المكانة للإمام على عليه السلام وآيات قرآنية تخصه وآل بيته. فبالإضافة إلى آية التطهير ، هناك آية المودة ، وكذلك المباهلة ، والتي خصته عليه السلام بالمنزلة الراقية وبالدرجة الرفيعة حتى قال عليه السلام :

---

١ - رواها فى مجمع زوائد.

٢ - الدر المنثور للسيوطي.

٣ - الكلمة الغراء فى تفضيل الزهراء للإمام شرف الدين عن آية التطهير الشيخ محمد مهدي الآصفى ص ٦٦.

( أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاكِبُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنا كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا ، أَنْ رَفَعْنَا اللَّهَ ، وَوَضَعَهُمْ ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ ، وَأَدْخَلْنَا وَأَخْرَجَهُمْ ، بِنَا يُسْتَعطَى الْهُدَى ، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى ، إِنَّ الْأُتْمَةَ مِنْ قَرِيشٍ غَرَسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ ، لَا تُصْلِحُ عَلَى سِوَاهُمْ وَلَا تُصْلِحُ الْوَلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ ) (١).

إن هذه الآراء ليست إلا محاولات لإيجاد مخرج للمأزق التاريخي الذي وقعت فيه مدرسة الخلفاء للدفاع عن السراب المقدس ، والذي لا يعبر إلا عن حالة التيهان التي يعيشها المؤرخ داخل التاريخ الإسلامي حينما يفتقد إلى منهجية واقعية تتخلى عن أدوات الماضي البئيس ، وتفتح على الحاضر والمستقبل ، بآليات تقضى فيها على الترسبات الماضوية ، وليدة المال والسلطان ، والجهل ، وكذلك على الطوباوية الفكرية والتي تحجب العقل عن ممارسة دوره الفعال في التنقيب وهدم صروح التخلف كي يتسنى لهذه المادة الفعالة استجلاء الحقائق ، والتحقق من مصداقيتها لتعرف بعد ذلك طريق حريتها وخلاصها من التاريخ الملعوم وعقلية السلطان المتجبر الذي جعل الأمة الإسلامية تعيش في كآبة فكرية وترزخ في بحر من التيهان لا تستجراً على الخروج منه.

الإمام على عليه السلام والبيعة

لقد كان مقتل عثمان بن عفان نتيجة السياسة التي انتهجها في

---

١ - ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة : ٢ / ٣٦.



حياته ، وبالخصوص بتقريب أقربائه ، وإنزال الكرامات عليهم كأعطاء الاموال ، وتسليم مقاليد الامور فى مناطق مختلفة من العالم الإسلامى ، كالشام لمعاوية بن أبى سفيان ، وعبد الله بن أبى سرح على مصر ، وأشياء كثيرة ، مما جعل المسلمين يشمئزون من هذا الوضع ، ويقومون بالثورة عليه ، وتزعم هذه الثورة كبار الصحابة ، فقد سبقهم إلى ذلك ابو ذر الغفارى ، حينما أعلن ثورته على المبشرين لما كان فى الشام ، وقال قولته المشهورة : عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يشهر سيفه . فكانت الثورة هى ثورة ضد النفوذ الاموى على مقاليد الحكم فى الدولة الإسلامىة.

فاجتمعت كل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتنتج ثورة على الخليفة الثالث رغم المحاولات الجادة من أمير المؤمنين على عليه السلام لمنع الثوار من قتل عثمان لكن لسوء الحظ وللخطأ الذى ارتكبه عثمان بإرسال رسول يطلب من عبد الله بن أبى سرح قتل الثوار العائدين إلى مصر. فما كان منهم إلا الرد على هذه الرسالة ومهاجمة الخليفة فى منزله وقتله. قتل عثمان بن عفان فأصبح كرسى الخلافة فارغاً ، وكان انذاك الثوار موزعين على ثلاثة أقسام الكوفيين ، والبصريين ، والمصريين ، وقد كان المصريون يلحون على على وهو يهرب منهم ، وكان الكوفيون يطلبون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم وعلى

قول حد ابن كثير وتفترق ثلاث فرق وكل فرقة تريد صاحبها (١).  
لكن إذا تسائلنا من المؤهل بين هؤلاء الثلاثة فإن الامام على مما لاشك فيه ابدأ هو المؤهل  
إلى قيادة هذه الأمة.

لكن مع الأسف الشديد وأنت تطالع قول ابن كثير فإنك تلاحظ فيه شيئين رئيسيين وهما :  
نفى الإجماع عن بيعه على عليه السلام.

الزام البيعة لمجموعة من الناس وفرضها عليهم بالقوة (٢).

لقد حاول المؤرخون ومنهم ابن كثير نفى صفة الإجماع على خلافة على عليه السلام ، لكن  
نجده حينما كان يتحدث مثلاً عن خلافة أبي بكر فقد أعطاها الإجماع منذ اليوم الأول  
لتعيينه رغم ما شاب هذه البيعة من اعتراض وخصوصاً من البيت الهاشمي وعلى رأسهم على  
عليه السلام ، لكن كما أسلفنا سابقاً فإن ابن كثير ذكر بيعه للامام خلال اليوم الثاني وهذا مما  
خالف المأثور من التواريخ ، لكن عند مؤرخنا ابن كثير المشبع بالمؤثرات التيمية أصبح عنده  
الامام على من الشخصيات المهمة وكان هدفه هو إضعاف شخصيته عند المسلمين ، وقد  
رأينا كيف نفى ابن كثير عن الامام قرابته وانتسابه إلى آل البيت.

ومعلوم أن هذه الحالات هي نوع من رد الفعل الصادر ضد الأفكار

---

١ - البداية والنهاية : ٧ / ٢٣٧.

٢ - قد استغنينا في هذه الفقرة عن الإحالة لكن للتأكيد من الحوادث يرجع إلى المصدر  
السابق.

الأخرى وخصوصاً الشيعية ، وانعدام الإجماع الذى يهول منه ابن كثير لم يكن إلا مجموعة من الأشخاص وقد عدّهم هو نفسه فقال وقد تربصوا سبعة نفر لم يبايعوا ، منهم ابن عمر ، سعد ابن أبى وقاص ، وصهيب ، وزيد ابن ثابت ومحمد بن أبى مسلمة ، وسلمة بن سلامة بن رقص ، واسامة بن زيد (١) ونفى الإجماع هو الإطاحة بشخصية مقابل الشخصيات الثلاث السابقة ( ونعنى الخلفاء السابقين ) وقد تبين هذا من خلال قوله : « ومع ذلك لم يتم له الأمر كما كان للخلفاء الثلاثة » (٢).

لكن المتدبر فى الأحاديث التاريخية يلاحظ أن الإقبال كان عليه منذ موت الرسول وهذا يجسده ما قاله الناس إلى فاطمة الزهراء عليها السلام بأنهم قد سبقت بيعتهم إلى أبى بكر وأما من انعدام الإجماع بقيام الحروب بين المسلمين فى زمانه ، فنلاحظ أن أغلبهم ممن كانت تحركه دوافع شخصية فالزبير وطلحة ممن كانا يطمعان فى الحكم وأما معاوية فهو محب للحكم.

لكن الغريب هو أن ابن كثير جعل بيعه الإمام على عليه السلام إكراهاً لبعض الأشخاص وبالخصوص طلحة والزبير .

واستغرب استغراباً عجيباً وهو يذكر رفض مبايعة مجموعة من الأشخاص ولم يلزمهم الامام على عليه السلام الخضوع لبيعتة ، ولم يفرضها

---

١ - ابن كثير : ٦ / ٢٣٧ .

٢ - المصدر السابق : ٥ / ٢٣٧ .

عليهم ، فلماذا يفرض بيعته على اثنين دون الآخرين ، علماً أن هناك اسباب كافية تمنع الامام على عليه السلام من فرضها ضماناً لوحدة الأمة الإسلامية.

وأما سبب نفى ابن كثير مسألة الإجماع على البيعة وذكره مسألة إكراه طلحة والزبير على البيعة هو نفى إمامة الحاكم - وفق مبادئ أهل السنة - لأن الإمامة والحكم عندهم لا تعقد إلا بالإجماع وأى خروج على هذا الحاكم ليس له أى تبعات دينية ، ومنه يكون الخارجون على الإمام على عليه السلام لا يستحقون أى عقوبة دينية ، وأما طلحة والزبير فإثبات إكراههم على البيعة يجيز لهم الخروج على الإمام وفض البيعة السابقة ، وقد سبق أن ذكرنا حديثاً رواه مسلم فى صحيحه والنسائي (١) ، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من بايع إماماً فأعطاه صفقة يمينه وثمره قلبه فليطعه ما استطاع.

إذن شروط الطاعة ، بعد البيعة هو إعطاء ثمره القلب ، وصفقة اليمين عن طيب خاطر ، وأى انتفاء لأحد هذه الشروط يجعل البيعة غير قائمة ، والطاعة غير ملزمة ، وهذا ما حاول ابن كثير الوصول إليه وذلك من أجل تبرير خروج الاثنين على الإمام على عليه السلام فى موقعة الجمل ، علماً أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أخبر الزبير أنه سيقا تل الامام على وهو ظالم له.

لكن التبرير التاريخى وايجاد الطرق لتخليص رموز التاريخ

---

١ - صحيح مسلم : ح ٤٧٥٥ ، النسائي ح ٤٢٠٢ .

الإسلامى من المزالق التى ارتكبوها وتصوير ذلك بالشكل الذى ينسجم مع الدولة الإسلامية والتاريخ الإسلامى الذى يراد إخراجهم لجموع المسلمين . ودون الخوض فى مداخل أخرى للتاريخ الإسلامى ، وخصوصاً موقعيتى الجمل وصفين ، نطرح فقط سؤالاً واحداً ندعو العقول أن تفكر فيه بمنطق إذا كان خروجهم لطلب دم عثمان وخصوصاً معاوية فما علاقته باستلام الحكم واستبداده به فيما بعد؟

طلحة والزبير فى مواجهة الإمام على عليه السلام  
لقد أفرط المؤرخون فى الحديث عن نقض طلحة والزبير لبيعة الإمام على ، وذلك دون اللجوء إلى التعمق فى أسباب هذا الخروج . لكن الامام على عليه السلام نفسه قد عبر فى مجموعة من خطبه عن موقفه من خروج الاثنين ، والأسباب التى دفعتهما ، وكذلك موقفهما الأول من البيعة فقال عليه السلام : ( والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ولا فى الولاية إربة ، ولكنكم دعوتمنى إليها ، وحملتونى عليها ، فلما أفضت إلىَّ نظرت إلى كتاب الله ، وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استسن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فاقنته ، فلم أحتج إلى رأيكما ، ولا رأى غيركما ، ولا وقع حكم جهلته فاستشيركما ، وإخوانى من المسلمين ... ) (١) وهنا يتجلى خلاف ما ذهب إليه ابن كثير فى كون الزبير وطلحة كانا مكرهين على البيعة ، وكذلك خلاف عدم الإجماع على بيعته فقد روى

---

١ - شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد : ١١ / ٧.

الطبرى فى التاريخ ورواه غيره أيضاً أن الناس عَشَوْه ، وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته (١). ومما يبين كذلك الإجماع على البيعة وأن الاثنين كانا موجودين هو قول الإمام عليه السلام قال : ( إن كان لابد من ذلك ففى المسجد ، فإن بيعتى لا تكون خفياً ولا تكون إلاّ عن رضا المسلمين ، وفى ملاً وجماعة فقام الناس حوله فدخل المسجد وانتال عليه المسلمون ، وفيهم طلحة والزبير (٢).

فمن خلال هذا القول يتضح أن الزبير وطلحة ممن بايعوا عن طيب خاطر ، وكان الامام عليه السلام يظهر الأسباب المؤدية إلى خروجهما ، وكان يعزى هدفهما من الخروج وسببه الرئيسى ، وكان من جملة أقواله عليه السلام ( والله ما أنكروا على منكرأ ، ولا جعلوا بينى وبينهم نصفأ ، وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودمأ هم سفكوه ، فإن كنت شريكهم فيه ، فإن لهم نصيبهم منه ، وإن كانوا ولوه دونى فما الطلبة إلاّ قبلهم ، وإن أول عدلهم للحكم على أنفسهم ، وإن معى لبصيرتى مالبست ولا لبس على ) (٣).

ومما يدل على بيعتهما بطيب خاطر ما قاله الطبرى حيث قال أنه قال كان لهما قبل بيعتهما له : إن أحببتما أن تبايعانى ، وإن أحببتما بايعتكما ، فقالا : لا ، بل نبايعك ثم قال بعد ذلك : إنم خشية على

---

١ - المصدر السابق : ١١ / ٨.

٢ - المصدر السابق : ١١ / ٩.

٣ - المصدر السابق : ٩ / ٢٥.

أنفسنا ، وقد عرفنا أنه لم يكن يبايعنا (١).

وأما الأسباب الحقيقية لخروجهما فنقف مع ابن أبي الحديد وهو يحدد هذه الأسباب :  
إن طلحة والزبير لما أيسا من جهة على عليه السلام ، ومن حصول الدنيا من قبله ، قلبا له  
ظهر المجن ، فكاشفاه وعاتباه قبل المفارقة عتاباً لاذعاً روى شيخنا أبو عثمان قال :  
أرسل طلحة والزبير إلى على عليه السلام قبل خروجهما إلى مكة مع محمد ابن طلحة ،  
وقالا : لا تقل له : « يا أمير المؤمنين » ولكن قل له : « يا أبا الحسن » لقد قال فيك رأينا ،  
وخاب ظننا ، أصلحنا لك الامر ، ووطدنا لك الأمره ، وأجبلنا على عثمان حتى قتل ، فلما  
طلبك الناس لأمرهم ، أسرنا إليك ، وبايعناك ، وقدنا إليك أعناق العرب ، ووطىء  
المهاجرون والأنصار أعقابنا فى بيعتك حتى إذا ملكت عنانك ، استبددت برأيك عنا ،  
ورفضتنا رفض التريكة وأذلتنا إذالة الإماء ، وملكك أمرك الأشتر وحكيم بن جبلة وغيرهما  
من الأعراب ونزاع الامصار ، فكنا فيما رجوناك منك ، وأملناه من ناحيتك ، كما قال الأول.  
فكنت كمهريق الذى فى سقائه لرقراق آل فو ق رابية صلد

فلما جاء محمد بن طلحة أبلغه ذاك فقال اذهب إليهما ، فقل لهما : فما الذى يرضيكما؟  
فذهب وجاءه ، فقال إنهما يقولان : ول أحدنا

---

١ - المصدر السابق : ١١ / ١٤.

البصرة والآخر الكوفة! فقال : لاها الله! إذن يحلم الأديم ، ويستشرى الفساد ، وتنتقص على البلاد من أقطارها ، والله إني لا آمنهما وهما عندى بالمدينة ، فكيف آمنهما وقد وليتهما العراقيين [ الكوفة والبصرة ] اذهب إليهما فقل : أيها الشيخان احذرا من سطوة الله ونقمته ، ولا تبغيا للمسلمين غائلة وكيدا ، وقد سمعنا قول الله تعالى ( تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ) (١).

فقام محمد بن طلحة فأتاهما ولم يعد إليه ، وتأخر عنه أياماً ، ثم جاءه فاستأذناه فى الخروج إلى مكة للعمرة ، فأذن لهما بعد أن أحلفهما ألا ينقضا بيعته ولا يغدرا به ولا يشقا عصا المسلمين ، ولا يوقعا الفرقة بينهم ، وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة فحلفا على ذلك كله ثم خرجا ففعلا ما فعلا.

هكذا يتضح لنا ما كان من أمر الرجلين وكيف كان الامام عليه السلام يعى هذه المسائل ، وإنما حملهم للانقلاب عليه هو رعايته لحقوق الله تعالى وعدم التفريط فيها ، ورعايته للحقوق الإلهية رعاية تامة لا يشنيه فى ذلك صحبة ، او قرابة ، فما كان من الاثنين بعد أن نفذ صبرهما من طول الانتظار أن يعلننا الخروج على الامام على عليه السلام ويؤلف فى ذلك المؤرخون قصصاً خيالية تصف الامام على بذلك المتجبر الذى يحاول



فرض امره بقوة السيف ، فى حين كان الإمام عليه السلام لا يحب سفك الدماء وكان يحب معالجة الأشياء بالرحمة ، والعقل ، وعدم التسرع فى استعمال السيف وقد قال عليه السلام :  
« يا أهل الكوفة ، أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يرجعوا بذاك الذى نريده ، وإن أبوا داويناهم بالرفق حتى يبدوونا بالظلم ، ولم ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرنا على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى .  
وهذا السلوك المثالى فى الإصلاح الذى كان يتمثل به الإمام على عليه السلام تجسد أيام الملاقات فى واقعة الجمل حيث روى أبو محنف ، قال :

« لما تراحف الناس يوم الجمل التقوا ، قال على عليه السلام لأصحابه لا يرمين رجل منكم بسهم ، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح ، حتى أحدث إليكم وحتى يبدووكم بالقتال وبالقتل ، فرمى أصحاب الجمل عسكر على عليه السلام بالنبل رميا شديداً متتابعاً فضج إليه أصحابه ، وقالوا عقرتنا سهامهم يا أمير المؤمنين وجيء برجل إليه ، وإنه لفى فسطاط له صغير ، فقبل له : هذا فلان قد قتل فقال : اللهم اشهد ، ثم قال اعذروا إلى القوم ، فأتى برجل آخر فقيل وهذا قد قتل : فقال : اللهم اشهد ، اعذروا إلى القوم ، ثم أقبل عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يحمل أخاه عبد الرحمن بن بديل ، قد أصابه سهم فقتله فوضعه بين يدى على عليه السلام ، وقال يا أمير المؤمنين هذا أخى قد

قتل ، فعند ذلك استرجع على عليه السلام ودعا بدرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات الفضول فلبسها ... (١).

وهذا جزء قليل مما كان يتعامل به الامام على عليه السلام الذي حاول ابن كثير وسلفه ابن تيمية أن يصوراه بذلك المتجبر الذي يلزم الناس بالبيعة ويكرههم عليها . ولتجلية بعض الحقائق من شخصية الامام على عليه السلام نبين فيما يلي جملة من خصائصه عليه السلام.

---

١ - المصدر السابق : ٩ / ٧٨.

ص: ١١٤

خصائص الإمام علي عليه السلام

لم يعرف التاريخ الاسلامي أ عظم من الامام علي عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه أبلى في الإسلام بلاءاً حسناً وكان أخاً لرسول الله منذ صغره إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى.

وكان عليه السلام أول المسلمين وأول من صلى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعنه عليه السلام قال : « أنا أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » (١). وقد بلغت هذه الرواية إلى حد التواتر (٢).

كما أن الامام علي عليه السلام هو أول من صلى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعنه عليه السلام قال : ( أنا عبد الله ، وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كاذب ، صليت قبل الناس بسبع سنين ) (٣).

- 
- ١ - خصائص الإمام علي للنسائي ص ١٥ تحقيق السيد جعفر الحسيني ، ط ١ ، ١٤١٩ دار الثقلين - قم ، الترمذي في الجامع الصحيح : ٥ / ٦٤٠ و ٦٤٢.
  - ٢ - رواه أحمد في مسنده : ١ / ١٤١ ، ٤ / ٣٦٨ ، وابن الأثير في أسد الغابة : ٤ / ١٧ ، وابن عبد البر في الاستيعاب : ٣ / ٢٣ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، وابن المغازلي في مناقب عليّ ص ١٤ ، والطبراني في الكبير ٥ / ١٩٨.
  - ٣ - سنن ابن ماجه : ١ / ٤٤.

ص: ١١٥

وكان أول العابدين لله بعد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي لم يسجد قط لصنم ، فولد موحداً وعاش موحداً حتى لقي الله تعالى وكان أول المسلمين رغم حداثة عمره ، وصغر سنّه ، وكان محطّم الأصنام عند فتح مكّة ، فقال عليه السلام : ( قال لى رسول الله : احملنى لنطرح الأصنام من الكعبة ، فلم أطق حمله ، فحملنى ، فلو شئت أن أتناول السماء فعلت ) (١) فكان للإمام على عليه السلام بذلك جليل القدر والعظمة.

أما قوته وبلاؤه فى الحروب فلا أحد يشك فى قدرته وقوته وما فتح خيبر إلّا جزء يسير من البطولات الخالدة له عليه السلام فبعد رجوع أبى بكر و عمر مهزومين قال صلى الله عليه وآله وسلم : والذى نفسى بيده لأعطى الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ليس بفرار ، يفتح الله على يده ، فأرسل إلى على عليه السلام وهو أرمد فتفل فى عينه وقال :

اللهم اكفه أذى الحر والبرد فما وجد حراً بعد ولا برد (٢).

وللبلاء الحسن والقوة التى أظهرها الإمام على عليه السلام فى خيبر وخصوصاً مما تعارف عليه أصحاب السير والتواريخ من حمل الإمام على عليه السلام باباً لا يستطيع عشرة أشخاص حملها ، قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى : ( لولا أن يقول فيك طوائف

---

١ - إعلام الورى بأعلام الهدى : للطبرسى ١ / ٣٦٢ ، مسند أحمد : ١ / ٨٤ و ١٥١.

٢ - انظر : إعلام الورى بأعلام الهدى : ١ / ٣٦٤ ، ومسند أحمد : ١ / ٩٩ و ١٣٣.

من أمتي ما قالت النصارى فى عيسى ابن مريم لقلت فيك اليوم قو لا تمر بملا إلا أخذوا من تراب رجلك ، ومن فضل طهورك ، فيستشفون به ، ولكن حسبك أن تكون منى وأنا منك ، ترثني وأرثك ، وأنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى ... ) وبعد نهاية الحديث خر على عليه السلام ساجداً ثم قال :

( الحمد لله الذى من على بالإسلام ، وعلمنى القرآن ، وحببنى إلى خير البرية خاتم النبيين وسيد المرسلين ، إحساناً منه إلى وفضلاً منه على ) (١).

وهذا جزء يسير من بطولاته القتالية فى الدفاع عن الإسلام وردّ اعتداء الكافرين ، اين غيره يوم الأحزاب حينما تجابن الكل عن مبارزة عمرو بن عبد ودّ ح تى خرج له الامام وهزمه . واين غيره يوم حنين حيث فرّ الكل فبقى هو ومجموعة من بنى هاشم . واين بطولات غيره يوم بدر وهو يردى الوليد بن عتبة قتيلا ويوم أحد وهو يرد عن رسول الله ضربات الكفار . إنها جزء قليل من تاريخ الامام على الجهادى والذى حاول البعض نسيانه وجعله فى طى النسيان.

أما العلم فلا أحد يشك فى أعلميته عليه السلام ، وهو القائل ولم يقلها أحد غيره : أسألونى قبل أن تفقدونى ، وكذلك قول عمر بن الخطاب : « ويل لعمر من مسألة ليس لها أبو الحسن » ، ويؤكد هذا الأمر حديث مدينه

---

١ - المصدر السابق : ٥ / ٣٦٦.

العلم حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه ابن عباس :  
( أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها ) (١).  
وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : ( إن أقصى أمتي على بن أبي طالب ، وأعلم أمتي من بعدى  
على بن أبي طالب ) (٢).  
وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ( على مع الحق والحق مع على يدور الحق معه حيث  
دار ) (٣).

وأما قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا ينكرها إلا جاحد وما أحاديث الولاية  
وسد الأبواب والمؤاخاة إلا دليل على مميزات هذا الرجل العظيم في الإسلام الذى سعى  
المؤرخون في تاريخ الإسلام أن يطمسوا هويته لكن أبى التاريخ إلا أن يحفظ مكانته رغم  
تحايلات المؤرخين التى أظهرنا بعضها ، والتى حاولت الحط منه وإصباح التاريخ بشخصيات  
عملت السلطة لإبرازهم في التاريخ الإسلامى ، حتى تعطى المشروع لعملية السلب التى  
قاموا بها ، مما اضطر العلماء المدافعين عن هذا النموذج المصطنع إلى خلق مجموعة من  
القوانين لحفظ هذا التاريخ المزيف والتى أثبت التحقيق التاريخى مدى زيفها وبرغماتيتها

---

١ - فتح الملك العلى بصحة حديث باب مدينة العلم على للعلامة أحمد بن محمد الصديق  
الحسرى المغربى ص ٣ المطبعة الإسلامية الأزهر - مصر.

٢ - مصباح الهداية فى إثبات الولاية ، السيد على الموسوى البهبهاني : ص ١٥٦.

٣ - المصدر السابق ص ١٥٧.

فى التعامل مع الأحداث.

ونورد هنا كلاماً مختصراً للعلامة أحمد بن محمد بن الصديق الحسينى المغربى وهو يذكر آراء بعض العلماء فى تعاملهم مع الأحاديث الواردة فى حق على عليه السلام حيث قال : الذهبى لا ينبغي أن يقبل قوله فى الأحاديث الواردة بفضل على عليه السلام فإنه سامحه الله إذا وقع نظره عليها اعترته حدة أتلفت شعوره وغضب أذهب وجدانه حتى لا يدرى ما يقول وربما سرب ولعن من روى فضائل على عليه السلام كما وقع منه فى غير موضع من الميزان وطبقات الحفاظ تحت ستارة أن الحديث موضوع ، ولكنه لا يفعل ذلك فيمن يروى لأحاديث موضوعة فى مناقب أعدائه (١).

وهذا رأى عالم عاش فى صعيد الأحاديث ودون التاريخ ، فترى كيف يمكن أن تكون العقلات المتولدة من خلال ما يروى لها من زيف وأكاذيب ، وما الداعى إلى ذلك؟

---

١ - فتح الملك العلى بصحة حديث باب مدينة العلم على ص ٩٨ - ٩٩.

الفصل الرابع

قراءة نقدية

نموذج أحمد شلبي

يبدأ العلم المعقول بنقد التقليد الموروث.

رأى

ص: ١٢٠



هل استطاعت عملية التأريخ أن تصل إلى النزاهة المتوقعة وإلى تطبيق المناهج التي سنستخلص منها النتيجة الحقيقية ، عبر التخلص من عقدة قداسة الماضي وأصحابه. إن النهج الذى نادى به هو المقايسة والمقاربة مع تجريد هذا التاريخ من القداسة المفتعلة حتى نستطيع الوصول إلى المبتغى المنشود ، وبالتالي إلى تاريخ إسلامى ينبير لنا طريق الثورة المعرفية والثقافية لاستشراف المستقبل نحو دولة العدل الإلهى المرتقبة. وكم تحس بالسعادة وأنت تطالع كتاباً تأريخياً وصاحبه يتحدث عن إعادة كتابة التاريخ بطريقة تتجاوز ركام التخلف التاريخى ، وتحاول استخلاص العبر منه ، بحيث تصبح الموضوعية هى المطلب الرئيسى للمؤرخ ويأخذ على من سبقه إغفال هذا الجانب بحيث يرى أن أغلب الباحثين لا يدرسون هذه المشكلة دراسة موضوعية ، بل يتأثرون بأشخاصهم فيدفعهم تأثرهم إلى هذا الجانب أو ذاك دون عمق وبدون احتمال فكر (١). وهذ ما اصطللحنا عليه بالتوجه السياسى

---

١ - د. أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى : ١ / ٦٤١ ط ١٣ مطبعة النهضة المصرية

والإيديولوجى للمؤرخ بحيث يصبح ارتباطه بنظام سياسى وبتوجه إيديولوجى هو الطابع الغالب على تحليله للأحداث التاريخية وصياغتها ، وبالتالي كما يرى الدكتور احمد شلبى الخروج من هذه البوتقة المغلقة ، والأهم من ذلك هو تحطيم القداسة المرتبطة بالصحابة على اعتبار أن أهل السنة تراهم أسهل حكماً « عدلوا الصحابة جميعاً وتولوهم واعتقدوا نجاتهم وقليل ما يحاولون على هذا أو ذاك بالخطأ (١) ، على الرغم من معرفتهم وتيقنهم من المخطئ والمصيب فيؤثرون أن يغمضوا أعينهم . ومنه فإن الضرورة تستدعى إعادة النظر فى هذا التاريخ ، للوصول إلى حقيقة الأمر فيضع الأستاذ المحترم السؤال ، هل نستطيع أن ننظر إلى هذه المسألة نظرة موضوعية بصرف النظر عن اشخاصها ، بل مع كامل التقدير والإجلال لماضى كل من هؤلاء الأشخاص؟ أرجو هذا (٢).

رغبة أكيدة منه لإخراج التاريخ من هذه الأزمة التى أحاطت به منذ عصور ، وإظهاره بوجه يساير التطورات المستقبلية للامة الإسلامية.

هذه وجهة نظر أحد ابرز المؤرخين فى العصر الحديث (٣) ، وله

---

١ - المصدر السابق.

٢ - المصدر السابق ص ٦٤٢.

٣ - الدكتور احمد شلبى . مصرى حاصل على دكتوراه من جامعة كمبرج فى التاريخ له مجموعة مؤلفات أهمها موسوعة التاريخ الإسلامى ، موسوعة الحضارات الإسلامية ، ومقارنة الأديان.

مؤلفات تحظى بأهمية كبيرة في العالم. وأول ما عرفته كان بواسطة كتاب مقارنة الأديان وقد تميز بالدقة والعلمية. لكن هذه النزاهة وهذه المنهجية التي تحدّث عنها هل فعلاً جسدت في عملية تدوينه للتاريخ الإسلامي؟

إن مجموعة من النقاط يمكن ملاحظتها خلال قراءة كتاب موسوعة التاريخ الإسلامي .

وخصوصاً الجزء الأول ، إذ تتم عن الإطار الذي يتحدث منه المؤلف ضارباً بعرض الحائط الموضوعية والعلمية.

ص: ١٢٣

## التشيع والفرس

إن أول ما يلاحظ في كتاب موسوعة التاريخ الاسلامي وهو الهجوم اللاذع والشنيع على الفرس ، وليس هنا من باب الدفاع عن قومية معينة ولكن هو استشفاف المخفى من داخل النصوص والذي هو في الأصل هجوم على التشيع ، وذلك دون دليل منطقي . والأمر الثاني الملاحظ في هذا الكتاب هو الانتقائية في التعامل مع الأحداث التاريخية ، الشيء الذي يصعب معه استخلاص الأسباب وبالتالي النتائج مما جعل نتائجه بعيدة عن واقع الأحداث التاريخية مما أفقد عملية التأريخ تناسقها.

لقد جاءت الطبعة ١٣ مفردة في إبراز المخاطر الفارسية على الإسلام وما حكاها هؤلاء الفرس ( الشيعة ) للإسلام ، فهم على زعمه أنهم قاتلوا عمر وعثمان وعلى ، مع العلم على أن الخليفين عثمان وعلى لم ينسب أحد قتلهم إلى الفرس إلا دكتورنا المحترم ، وقوله لا يستند لأى دليل ، ولكن الواضح أن هذه الرؤية ، وهذه النتيجة التي استخلصها هي من إحياءات الإتجاه الوهابي الذي ارتبط به كاتبنا ماديا ، فقبيل إخراج هذه الطبعة تلقى دعوة من الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمان الربيع عميد البحث العلمي بجامعة محمد بن سعود الإسلامية

بالمملكة

ص: ١٢٤

العربية ، يدعو فيه لكتابة كتاب لمركز البحوث بالجامعة عن السيرة النبوية ويقول عن هذا العرض : ففرحت بهذه الدعوة وقمت بهذا العمل ما أستطيع من الإجابة ، وقد أدخلت في هذه الطبعة مما رأيت ضروريته (١).

وبالطبع لم ير من الضروري إلا ما يطعن في الفرس ويبين حسب زعمه كيدهم للإسلام بحيث يقول أن في هذه الطبعة أيضاً إبراز الخطر الذي تدفق على الإسلام والمسلمين من إيران (٢). والجدير بالذكر أن هذه الطبعة كانت سنة ١٩٨٨ أى بعد أحداث مكة الشىء الذى يعطيها طابعاً سياسياً ومما يؤكد ه ذا وهو اعتباره حركة الإمام الخميني رحمه الله إحدى الحركات الهدامة وهي استمرار للحركات الهدامة الفارسية الأصل منذ انطلاقة التاريخ الإسلامى ، بحيث انطلقت مؤامرتهم على نطاق واسع باسم الشعبية والباطنية ، والزنادقة ، والزنجية ، والقرامطة والدرزية والبايية والبهائية فقتلت الملايين من المسلمين ولا تزال تقتل وتضرب حتى اليوم بصيحة الخميني (٣).

إذن ترى ما سبب هذا الحقد الفارسي الدفين حسب زعم دكتورنا؟  
إن السبب في ذلك هو تحطيم المسلمين للمملكة الساسانية وإخضاعهم للدولة الإسلامية  
بحيث يرى أن بلاد فارس استسلمت عسكرياً بمرعة

---

١ - دكتور أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامى : ص ١٩.

٢ - المصدر السابق ص ٢٠.

٣ - المصدر السابق ص ٦١٣.

غير متوقعة ولكن قادتها بدأوا يثيرون المتاعب والشبهات والشكوك منذ عهد الفتح إلى الآن في حركات الشيعية والباطنية والزنادقة ، والزنج والقرامطة ، والدرزية والبابية والبهائية والخمينية (١).

هل يستطيع العقل أن ينسجم مع هذا السبب الواهي بحيث لو كان الامر بهذا الشكل لكانت كل المناطق التي دخلت إلى الإسلام تحت سيوف الفتح أن تكيد لهذا الإسلام فلا أظن أن الشمال الافريقي قد فتح بلسان المسلمين بل بسيوفهم وإخضاعهم للحق عن طريقه ، وما قتل كسيلة البربرى لعقبة ابن نافع الفهري إلا دليل على المواجهة التي لقيها الفاتحون لهذه المناطق ، إذن لماذا لم يتحدث عن كيدهم للإسلام أم أن التوافق الايديولوجي السنّي أخرجهم من دائرة المكيدين لهذا الدين . وعلى هذا المنطق المعتمد عنده فإن مسلمي الفتح وجب في حقهم الكيد للإسلام لأنهم وجدوا أنفسهم ملزمين بهذا الدين وهم في عقر دارهم ، مما يلزم عليهم التستر وانتظار الفرصة للوقعة به ، وهذا ماوقع لكن كاتبنا لا يشاطرنا الرأي علما ان يزيد بن معاوية تمثل بأبيات عقب مقتل الإمام الحسين تدل على حنقه من النصر الذي حققه هذا الدين على أجداده خصوصاً في معركة بدر وكتب التاريخ ملئت بهذا الحدث. وثاني شيء ما يمنع الفرس من الرجوع إلى دينهم بعد ضعف الدولة المركزية في بغداد وهذا ما حصل في الاندلس بحيث أن الحائقين فعلا على هذا الدين سرعان ما انقضوا عليه عند ضعف إدارته ،

---

١ - المصدر السابق ص ٢٧٧.

ولو كان الامر فى بلاد فارس كذلك لرجعوا إلى دين آباءهم وتخلصوا منه . ولكنهم بقوا على هذا الدين ، وابرز دليل على ذلك الحركة التصحيحية التى قادها الامام الخميني رحمه الله واحيائه لهذا الموروث التاريخي المقدس وإعادته إلى الحياة بعدما ركن فى زوايا المساجد ، فكيف نسميها حركة تخريبية.

وشىء آخر مهم ، حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصريح : « لو كان الإسلام ينال بالثريا لناله رجال من فارس ». فأين كاتبنا من هذا الحديث . وهنا أمرين فيما صاحبنا على حق فيما وصل إليه والنبي يهجر ! وحاشا لله وبهذا تنتزع عنه صفة النبوة وتذهب الرسالة مهيب الريح ، او رسول الله صادق وصاحبنا يعيش فى الأهاجيس المادية والمذهبية وهذا هو الأکید فراح يخطب خطب عشواء ..

كما إن المسكوت عنه من خلال نصوص كاتبنا واضح وجلى ، لكنه لم يعبر عنه بطريقة مباشرة فتخفى تحت راية عرقية ، علماً أن المقصود عنده هنا هو التشيع وهذا يتضح جلياً حينما نراه يربط بين الحركات الفارسية واليهودية ويصور تنسيقها فى الكيد لهذا الدين . بحيث يرى أن المؤامرات فارسية ، وتؤيدها الأصابع اليهودية ثم ثورات خطط لها الفرس واليهود وقادوها ووجهوها (١) ففعلا المعنى واضح وهو التيار السبئي وما فعل فى التاريخ؟

---

١ - د. أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامية ، ط ١٣ ص ٦١٣.

شخصية عبد الله بن سبأ

من الشخصيات التي أعطاها التاريخ حجماً أكبر من حجمها ، شخصية عبدالله بن سبأ ، حتى صار معروفاً بين أوساط المؤرخين بمؤسس السبئية والتي كان يقصد بها وفي غالب الأوقات الأشخاص الموالين لعلی علیه السلام أو أحد أبنائه أو أحفاده . الشيء الذي أكسبه شخصية محورية في ارتباطه بالشيعة . وأصبح هذا الشخص هو المدخل الرئيسى للهجوم على الشيعة ، وربط حركتهم بالأصول اليهودية.

لكن الأمانة العلمية التي يتطلبها التحقيق التاريخي تلزمنا أن ندرس هذه الشخصية من جميع الجوانب انطلاقاً من وجودها أو عدم وجودها ، وإن كانت موجودة فلا بد من معرفة مدى تأثيرها على الصعيد الثقافي والسياسي الاسلامي ، وهل فعلاً كان بالشكل الذي رسمه التاريخ الاسلامي.

ان مسألة عبدالله بن سبأ لم تكن محل اختلاف بين السنة والشيعة فقط بل حتى داخل المنظومة الفكرية الشيعية نفسها ، فقد نفى البعض وجود هذه الشخصية بالإطلاق باعتبارها إحدى موضوعات سيف بن عمر باعتباره هو الراوى الذي أورد له الطبرى مروياته وبعدها كان

ص: ١٢٨



تاريخ الطبري هو المرجع لكل المؤرخين فيما بعد . وقد مثل هذا الخط في أوجه العلامة مرتضى العسكري في كتابه أسطورة ابن سبأ ، وقد رأينا الإمام الخوئي رحمه الله أيضاً قد مال إلى هذا القول في معجم الرجال (١).

وقد كان العلامة التستري صاحب موسوعة الرجال من بين علماء الشيعة من أقر وجود هذه الشخصية لكل الفارق أنه وضعها في إطارها الحقيقي ، وسحب عنها تلك الخرافية التي أكسبها إياه سيف بن عمر الذي تلاعب بالرواية وأخرجه بالشكل الذي أصبح هو مؤسس المذهب الشيعي ، مع العلم أن الأئمة من آل البيت عليهم السلام قد لعنوه ويقول الإمام الخوئي في هذا الباب « فعلى فرض وجوده ، فهذه الروايات تدل على أنه كفر وادعى الألوهية في على عليه السلام لا أنه قاتل بفرض امامته عليه السلام (٢). وقد سبق أن قلنا أن الأئمة قد لعنوه والروايات كثيرة ، فعن علي بن الحسين عليه السلام قال : لعن الله من كذب علينا ! إنى ذكرت عبدالله بن سبأ فقامت كل شعرة من جسدي ! لقد ادعى (٣) أمراً عظيماً ، ماله لعنه الله (٤) ، وكذلك عن أبي عبدالله عليه السلام قال « لعن الله عبدالله بن سبأ ، إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين » (٥) وهكذا يظهر لنا الموقف الحقيقي لخط

---

١ - السيد الخوئي : معجم الرجال ج ١١.

٢ - المصدر السابق ص ٢٠٧.

٣ - العلامة التستري : قاموس الرجال ج ٦ ص ٣٦٧.

٤ - المصدر السابق : ص ٣٦٦.

٥ - المصدر السابق : ص ٣٧٠.

الأمامة فى شخصية عبدالله بن سبأ ، وهو اللعن والرفض لكل ما أءءاه.  
ولا يمكن أن نفى وجود حركة الغلاء والذين لعنوا من طرف الأئمة ومن علماء مذهب أهل البيت مما لايجعل مصوغا للآخر ، الخلط بين التشيع الأصل الذى بنا أسسه على اتباع أهل البيت وبين خط الغلو والانحراف ، وقد قال العلامة التستري فى هذا الباب : ومن العجب أن الجماعة المتسمين بالعلماء من أهل السنة ، إذا تكلموا فى كتبهم على المذاهب لاذكرون الإمامية المستمسكين بأهل بيت العصمة بل يقتصرون على الغلاء من السبئية واضرابهم.  
ومنه فإن أى قراءة لتاريخ التشيع يجب أن يتبع فيه البحث الدقيق حتى لانعيد تلك القراءات البئيسة والتي ادت إلى تفريق وتمزيق الصف الإسلامى.  
وقبل الانتهاء من هذه فإن علماء الشيعة لم يسقطوا حالات الغلو والتطرف التى ظهرت عند السنة بل يقتصرونها على الحالات التى أنتجتها كالتواصب المعادين لآل البيت ولم تتهم كل المدرسة السنية بالنصب ، كما أنهم لم يتهموا السنة باليزيدية وهى إحدى الفرق التى خرجت من أهل السنة وأءعت الألوهية فى يزيد بن معاوية وقد عرفوا على طول التاريخ بعبء الشيطان. بل اقتصر الامر على اتباع تلك الطائفة.

## شلبى والتارىخ

إنّ الأمر المهم الذى يجب أن نتخذه مبدأ فى تحقيقاتنا ، هو أن لا ننظر إلى الحقيقة بالصورة التى نحن عليها. لأنّ فى هذه الحالة ستتغلب « الانا » على محاور الحدث ، فنصبح معبرين عن وجهة نظرنا الخاصة على أنها الحقيقة ، فيفقد البحث معناه وخصوصاً البحث التاريخى. إن الدراسات التاريخية تعتمد على مجموعة وقائع ذات دلالات زمنية ومكانية ، ومحكومة بأسباب ، ففى حالة الوصول إلى النتائج بدون الغوص فى الأسباب ومحاولة جردها عن علل وجودها ، فحتماً النتائج تكون خاطئة. إنها عملية علمية على نمط عملية حسابية فلا يمكن الوصول إلى نتيجة ٢ من دون معرفة العددين الأصليين للعملية أى ١ + ١ أو. ( صفر ) + ٢. مما يفرض علينا وجوب الإطلاع على هذه الأسباب ، وهذا مافقده تأريخ الاستاذ شلبى. إن تأريخ أستاذنا لم يأتى فقط فاقداً للمحددات السابقة ؛ بل تعسف على التاريخ فبتر أحداث مهمة كانت لها فيما بعد انعكاسها على أوضاع المجتمع الإسلامى . وما آلت إليه الأحداث.

١ - لم يرد قط حديث يوم الرزية ولم يتطرق له من أى جانب ،

ص: ١٣١

علماً أن تلك الحادثة حددت النيات المبيتة ، وتلمس هذه النيات من خلال الدراسة الموضوعية للنص.

٢ - سرية أسامة وكذلك في باب الغزوات والسرايا . لم يذكر تجهيز سرية أسامة ، ونعلم كل العلم ما حدث من خلاف صريح لأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هذه السرية وفعلاً ما سترتب عنه فيما بعد . وخصوصاً أنها كانت في الأيام الأخيرة من حياته صلى الله عليه وآله وسلم.

٣ - إفراغ كل مدونه التاريخية من الأحاديث الصحيحة الدالة على مكانة على عليه السلام ، والتي تدل دليلاً لا يقبل الشك في أحقيته بالخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الرغم من تعجبه من أن كثيراً من الكتب لم تتخذ القرآن الكريم وأحاديث الرسول مراجع لها عند دراسة حدث تكلم عنه القرآن أو الحديث (١) ؛ ودليل ذلك هو الدعوة الأولى للرسالة المحمدية وبالخصوص نزول قوله تعالى : ( وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ) (٢) حيث أوردتها بطريقة نفت عنها صبغتها التاريخية وعنونها بدعوة بنى عبد المطلب حيث قال : -

هذه هي المرحلة الثانية من مراحل الدعوة ، وقد بدأها الرسول عندما نزل عليه قوله تعالى : ( وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ) فدعا بنى عبد المطلب ليجتمعوا به ، فلما حضروا قال لهم : « إنى ما أعلم شاباً جاء

---

١ - د. أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى : ١ / ٥٨.

٢ - الشعراء : ٢١٤.

قومه بأفضل مما جئتمكم به ، فلقد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة « وبلغهم دعوته ، فصدق به بعضهم وكذب به آخرون (١).

وهنا تنتفى نزاهة المؤرخ ، ويظهر بوضوح مدى انتقائيته وتعامله اللا علمي مع الحدث التاريخي ، فهذه الحادثة التاريخية مما نال الإجماع على سبب نزولها وما حدث خلال اجتماع بنى عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وخصوصاً الموقف النبيل لعل عليه السلام - على رغم صغر سنه - وتحمسه لتحمل هذه الدعوة وأعبائها ، ولكن كاتبنا لم يأل جهداً في تضعيف هذه الشخصية بقصد أو عن غير قصد . بحيث يرى أنه قد طمع بالخلافة (٢) ونعلم معنى الطمع فى اللغة العربية.

وهذا من أسباب عدم ربط النتائج بالأسباب ، وبالتالي يسمح كاتبنا لنفسه أن يتهم على عليه السلام بالطمع ، طالما أورد النص السالف بصيغة شلبيبة! كما أنه لم يدرج فى موسوعته أى حديث من الأحاديث المتواترة والمعروفة عن مكانة آل البيت النبوى الكريم. رزية الخميس

قد يبدو لأول وهلة أن هذا الامر بسيط ؛ يظن المؤرخ أنه لا حاجة من إدراجه فهو قد عبر عن حالة فى لحظة معينة ثم انتهى فعله ، وهذا بالفعل ما حدث لمؤرخنا . وكما أسلفنا سابقاً أنه لم يدرج هذه الحادثة

---

١ - د. احمد شلبي المصدر السابق ص ٢١٨.

٢ - المصدر السابق ٥٧٥.

التاريخية ؛ لكنه فى الحقيقة يعبر عن علامة تصدّع فى الجسم الإسلامى آنذاك ، وافتراق الطوائف وظهور الأحزاب ، ولا نحاول هنا أن نعطى بعداً للنص أكثر مما يوحى به هو ، ولا نحمله أكثر من دلالاته كحدث وواقعة ، لان الكثير يحمله على دلالة معنوية إختزلها الحدث وتلاعب فيها المحدث ، وهذا ليس من اختصاصنا ولكننا نريد أن نجتمع الأسباب التى وجدت خلال حياة الرسول حيث مثلت مجموعة مقدمات للتنتائج اللاحقة بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم.

لا أحد منا يجهل هذه الواقعة فهى مما حبلت بها الكتب التاريخية ، واصطلح عليها بيوم الرزية لأن ابن عباس هو الذى أطلق عليها هذا الإسم مما رآه من هول عظيم ، وخصوصاً أنه فى حضرة الرسول الكريم حيث يقول « يوم الخميس ، وما يوم الخميس ! قالوا ، وما يوم الخميس؟ قال : اشتد برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعه ، فقال ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدى ; فتنازعوا وما ينبغي عند نبي تنازع ! وقال ماشأنه! أهجروا؟ استفهموه!! فقال « دعوني ، فالذى أنا فيه خير » (١) قال ابن عباس إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم ( ويبكى حتى يبيل دمه الحصى).

وكذلك وجد بصيغة متعددة تحدد شخصية المعارض.

فقال عمر إن النبي قد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن حسبنا

---

١ - كتاب المغازى : ٥ / ٥١١ باب مرض النبي ووفاته.

كتاب الله فاختلفوا أهل البيت واختصموا ، منهم من يقول قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لا تضلوا بعده ، ومنهم من يقول ما قال عمر (١).  
وفى صحيح مسلم « إن رسول الله يهجر » (٢).  
لقد كثر الجدل والنقاش حول هـ ذا الحديث ، فيهم من اعتبره من الموارد التي لم يتعبد بها الصحابة ودليل على عدم عدولهم ومخالفتهم الصريحة له في حياته صلى الله عليه وآله وسلم؟  
(٣)

وآخرين استدلوا به على وقوف مجموعة من الصحابة ضد تعيين الوصى الشرعى بعده صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث أنه كان يتوخى تثبيت الأمر بطريقة توثيقية لا لفظية كما حصل فى غدير خم ، لكن وقع الهرج والمرج عنده ، لكن حقيقة الحديث تتضح عن طريق آخر عبر حديث الثقلين ، وذلك من خلال تقارب اللفظين حيث قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث الرزية : « ائتنى أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده » وقوله فى حديث الثقلين « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، كتاب الله وعترتى ». ففهم الصحابة بطريقة غير مباشرة ان هذه الوصية خاصة بتثبيت أولية آل البيت وعلى رأسهم على عليه السلام (٤) ، فوقع اللغظ فى وجود حضرته عليه الصلاة والسلام حتى لا يكون ما أراده ونحن لسنا نحب

---

١ - صحيح البخارى - باب قول المريض قوموا عنوا.

٢ - صحيح مسلم : ٥ / ٧٥ كتاب الوصية.

٣ - راجع المراجعات : حادثة الرزية المراجعة ٨٦.

٤ - السيد عبد الحسين شرف الدين ، النص والاجتهاد ص ١٢٩.

الدخول في هذا المبحث لأنه طويل وتحدث عنه الكثير ، واستنبط العلماء المسكوت عنه من خلال النص.

لكن الالهم عندنا في هذه الوقفة هو تبين نقطة مهمة قد أغفلها كاتبنا وهو بداية حصول عدم الاتفاق خلال وجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيهم ، وظهور التفرقة وكذلك الفرق . وهم الفريق الذي يرى الزامية التمسك بالتعاليم النبوية والقائلون اعطوه ، وفريق الرفض للتعاليم والقائل انه يهجر او غلب عليه الوجد ، وبالتالي عندهم القابلية لتجاوز التعاليم المسطرة. إنه من البلاهة أن ننظر إلى الحادثة ببساطة وأن لانهتم بهذه التفرقة بحضرة الرسول الأكرم ، لكن الأكيد أنه إحدى الاسباب التي لا يجب عدم إغفالها حتى تتضح لنا أبعاد الصراع بين الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه بعد وفاته تكون العقليات قد تشكلت واعتادت على أشياء وأصبحت المخالفة للمقررات شيئاً عادياً ، وإدراجنا لهذه الواقعة ليس لكونها الوحيدة في حياة الرسول بل لأنها قريبة من لحظة وفاة النبي ، يعنى ان الذهنية فعلا قد تشكلت على المخالفة. ولم تكن الحديبية وحدها دليل عليها . لكن واقعة الرزية لها دلالة عميقة من حيث كونها جاءت متأخرة من حياته الطاهرة ، وثانى شىء للمسكوت عنه فى هذه الرواية و التي قبل أن يصل إليها الرسول أعد لها العدة وحدد طبيعة هذه الوصية طيلة مسيرة الدعوة من انذار العشيرة الأقربين إلى غدير خم ، وتبين كذلك هذه العقلية الراضية والثائرة على الدستور



المسطور - دستور الذى لا ينطق عن الهوى - فى سرية أسامة ، وهى إحدى الأسباب التى أراد رسول الله أن يطمئن بها على وضع دولة الإسلام بعده صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك لم تجد صدى لدى الدكتور شلبى . رغم أنه أعلن ثورته على تقديس التاريخ والصحابة ولكن باعتبار هذه الغزوة إحدى المطاعن فى حق أشخاص ثم استثناهم من هذه الثورة ضد الصحابة لذا لم يتجرأ على إدراجها فى موسوعته.

سرية أسامة

فقد أعد الرسول جيشاً عظيماً ولى أسامة بن زيد قيادته ليثأر لأبيه ولقتلى المسلمين ولكن الرسول مات قبل أن يسير هذا الجيش ، فسيّره أبو بكر (١). هذا ما نالته سرية أسامة من موسوعة اختصت فى التاريخ للإسلام وكأن هذه ال سرية لم تعرف أحداثاً ولم يقع خلالها اضطرابات . وهذا هو عين التزوير والانتقائية فى التاريخ ، وسؤال صريح لأستاذنا لماذا هذا التجاوز عن أحداث تاريخية؟ ألكونها بدون أهمية؟ أم خشيت أن تسقط أصدانك؟!.

وللأمانة التاريخية نورد النص التاريخى قبل الدخول فى مطارحة معه :  
لقد أعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية لغزوة بلاد الروم وذلك لأربع ليال

---

١ - د. احمد شلبى موسوعة التاريخ الاسلامى ، ص ٥٨٥.

بقين من صفر سنة احدى عشرة للهجرة ، فلما كان من الغد دعا أسامة فقال له : سر إلى موضع قتل أبيك فأو طهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش ، فاغز صباحاً على أهل بني ... فلما كان يوم الثامن والعشرين من صفر ، بدأ به صلى الله عليه وآله وسلم مرض الموت فحم وصدع فلما أصبح اليوم التاسع والعشرين ووجدهم متناقلين ، فخرج إليهم وحرضهم على السير ، وعقد صلى الله عليه وآله وسلم اللواء لأسامة بيده الشريفة ، تحريكاً لحميتهم ، وارهافاً لعزيمتهم. ثم قال « اغز بسم الله وفي سبيل الله وقاتل من كفر بالله » فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بريدة وعسكر بالجرف ثم تناقلوا هناك فلم يبرحوا.

لا نريد الإطالة في الرواية ولكن المعنى في هذا السرد ذكر الأحداث المهمة وبالضبط تحديد طبيعة العقليات التي تشكلت خلال المرحلة الأخيرة من حياة الرسول ، إنه من الجلى والواضح هنا هو هذا الرفض والتناقل عن الاستجابة لهذا الامر النبوى وهو الجهاد فى سبيل الإسلام من إجلاء إعلاء لواءه ، بالرغم من ذلك فإن تيار الرفض وقف مرة أخرى إتجاه كلام المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم. بالرغم من تشديده على إبعاث السرية حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم « لعن الله المتخلفين عنها » (١) وكان كبار الصحابة فيها وعلى رأسهم أبو بكر وعمر.

إن دراسة هذا الحديث يبين لنا جوانب خفية لعبت دوراً مهماً فى

---

١ - أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب السقيفة نقلا عن المراجعات ص ٢٦٠.

أحداث مستقبلية ، ولم يكن أمر الرسول بهذا العمل إلا من قبيل الاطلاع على النفوس التي عاشت وتعيش حوله وامتحان لهم . فأسامة لم يكن إلا شاباً صغير السن وفي الجيش شيوخ كبار . وكيف تطوعهم نفوسهم أن يجعلوا تحت لواء شاب ، ان التعلل بهذا لهو عين الحمق . فكيف وقوله تعالى ( وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ) مدون في كتاب الله تعالى وما أمره في سرية أسامة إلا لازم الامتثال له ، وأي مخالفة صريحة لأمره هي مخالفة لأمره تعالى .

إن حدث السرية يحمل معنيين مهمين يجب التمعن فيهما وهذا ما كان يتوخاه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

الأول : عقد لواء السرية بيده وهذه دلالة شرعية للسرية ومثيلها ومثيل أى أمر نبوى وجب الخضوع له . علماً أنه خلال هذه المرة كان فى مرضه الأخير وكان بإمكانه تكليف شخص معين لعقد اللواء ، لكن أبى إلا أن يقوم من فراشه ويباشّر عن هذا العمل الشريف . والثانى : هو شخصية القائد ، وقد كان امتحان من رسول الله لأصحابه باختياره لأسامة وهو شاب صغير . ومن خلالها استطاع أن يتطلع لمصير أو أمره بعد وفاته علماً أن هذه الامة ينتظرها ما هو أكبر وأعظم من سرية لكن مع الاسف كان امتحاناً استطاع الرسول أن يستشف من خلاله مصير أصحابه ويحيط لعنته بالمخالفين له . من خلال هذين الحديثين : رزية الخميس وسرية أسامة يتضح لنا هذا المجتمع المقبل على شىء أعظم إلى أى شىء وصل فى تفكيره

وفى تفاعله مع الامر النبوى والذى تغاضى كاتبنا الطرف عنه ، ووصل إلى نتائج غريبة جعلت التاريخ ينقلب رأساً على عقب . وخصوصاً المسائل المرتبطة بالخلافة بحيث لم يتحرج كما قلنا سابقاً أن يقول وطمع على بن أبى طالب فى الخلافة (١) وفى موضع آخر وكان بنو هاشم أقدم طمعاً فى الخلافة (٢). وهذا فى حد ذاته جراه على هذا المقام الكبير فى الإسلام بنسبهم إلى فعل من أخس الأفعال وهو الطمع . كما جعل أحاديث الوصاية والداعية للإمام على عليه السلام هى من موضوعات عبد الله بن سبأ ، وهذا إجحاف فى حق الكم الهائل الذى نزل فى حقه عليه السلام وفى حق عملية التدوين سواء على مستوى الحديث أو التاريخ . بحيث تصبح كلها من النجاحات الباهرة للعبرى اليهودى حيث أنه حسب تعبيره نجح فى الخطة التى وضعها ونجده - ليضمن النجاح - يقوم بالدعوة لعلى فينشر مذهب الوصاية أى أن علياً وصى محمد كما أن لكل نبي وصياً ، وأن على عليه السلام خاتم الأوصياء كما أن النبى خاتم الأنبياء (٣) لكن إلى أى حد هذا الاستنتاج صحيح!!

على والوصاية

إن الحقيقة التى حاول الدكتور شلبى أن ينكرها هى أوضح من

---

١ - د. أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى : ١ / ٥٨٥.

٢ - المصدر السابق ص ٦٢٠.

٣ - المصدر السابق ص ٦٢٧.

الشمس في كبد السماء ، لأن الأمة أجمعت على صحة ما قيل في حقه عليه السلام وخصوصاً  
أحاديث الولاية ، من جانبى قد يلاحظ نوع من التعصب ، لكن أظن أننى أتحدث عن وقائع  
ثابتة ولا أحاول نفيها أو إثباتها بطريقة تخالف المناهج العلمية ، عكس ما عمله صاحب  
الموسوعة حيث يجرأ بكل سهولة لانكار حقائق وقعت في التاريخ الاسلامى.

إن شخصية الامام على عليه السلام لم تكن وليدة اللحظة التي توفى فيها الرسول  
صلى الله عليه وآله وسلم حتى يتجرأ للطمع فى شيء لا يرى فيه أحقية دينية ولتفهمه ، بل هو  
نتاج لعملية التكوين النبوى لهذه الشخصية حتى تكون مستعدة لاستخلافها من بعده  
صلى الله عليه وآله وسلم. إن مثل الامام على عليه السلام والنبى صلى الله عليه وآله وسلم كمثل  
تلك النبتة التي يرهاها الفلاح حتى يستفيد منها الناس فى المستقبل و هذا يتطلب جهداً من  
الفلاح للحفاظ عليها ، وهذا حال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بحيث لم يعلن عن وليدة  
فى لحظة زمنية محددة وإنما تطلب منه مدة زمنية طويلة على طول الدعوة الإسلامية من  
حديث الدار إلى غدير خم حتى يتم استيعاب الامر بشكل جيد من طرف أصحابه ، وقد  
اختلفت هذه المواضع باختلاف الزمان والمكان.

المرحلة الأولى : ( يوم الدار )

إن مسألة تميز على بن أبى طالب انطلقت من تحديد أهميته أولاً داخل أسرته ثم بعد ذلك  
بين كافة المسلمين ، وكانت واقعة الانذار أول

هذه الخطوات ، بحيث وضعته الرسالة في الموقع المتقدم لبنى هاشم لئلا يجرأ أحد من البيت الهاشمي على طلب الخلافة بعد وفاة الرسول وفيهم العباس بن عبد المطلب وهو كبير بنى هاشم آنذاك ، لأن المسألة بالنسبة إليهم محسومة والشخصية الرئيسية قد حددت ، ولم يكن هناك مجال للنقاش أو الاعتراض . لذا تجد أغلب بنى هاشم امتنعوا عن مبايعة ابي بكر واعتصموا في منزل فاطمة عليها السلام ، لأن الأمر النبوي كان في تلك اللحظة صريحاً . والمعاني لا تحمل محامل مجازية ، فعندما نزل قوله تعالى : ( وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ) (١) جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنى هاشم وخطب فيهم قائلاً : ( يا بنى عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به ، إني جئتمكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن ادعوكم إليه ، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم ) .

يقول الامام على عليه السلام :

( فأحجم القوم عنها جميعاً ، فقللت وإني لأحدثهم سناً ، وأرمصهم عيناً ، أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه ، فأخذ برقبتي ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم :

إن هذا أخى ووصي وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا ، قال - أى الامام على عليه السلام - فقام القوم يضحكون ، ويقولون لأبى طالب قد أمرك

أن تسمع لابنك وتطيع « (١).

وهذا منطلق تمهيد الخلافة لعلى ابن ابى طالب وأول مرحلة على حساب أهله ولا أظن كاتبنا لم يطلع على هذا الخبر لأنه مما امتلئت به كتب التاريخ والحديث وليس هذا الخبر هو الوحيد لأن المسيرة التاريخية للنبوّة والتي استمرت ٢٣ سنة كانت مليئة بمثل هذه الوقائع. ومن هنا ابتدأت الدعوة النبوية لعلى عليه السلام فى إظهاره للناس وإبراز حقيقته ابتداء من بنى هاشم إلى المسلمين عامة ، وأظن ان عبد الله بن سبأ لم يكن حاضر تلك اللحظة كما أنه لم ينفرد هو نفسه برواية هذه الرواية بل هى مما امتلئت بها كتب السيرة والحديث . ولا نبغى من خلال إدراج هذه الفكرة الانتصار لطائفة معينة بقدر ما نحاول إظهار ما يحاول إخفاؤه كاتبنا وكذلك نفى التهم الباطلة التى تلصق بأعظم شخصية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

على عليه السلام فى حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم  
إن حديث الدار كان أول خطوة لتبيين منزلة الإمام على عليه السلام ومن ذلك الوقت سعى النبى لإظهاره تدريجياً وإعطائه مكانته الخاصة فى المجتمع الإسلامى ، فهو الوحيد بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذى لم يعرف الشرك فى حياته.

---

١ - تاريخ الطبرى : ٢ / ٣١٩ ، تاريخ ابن الاثير ٢ / ٦٢ ، السيرة الحلبية : ١ / ٣١١ ،

تاريخ ابن عساكر : ١ / ٨٨.

وقد كان الرسول يهيب على المجتمع الإسلامي لتقبل الفكرة بعد وفاته وذلك عبر إخراجهم من الموروثات الجاهلية القديمة المرتبطة بالسنن أو الجاه ، وإيصالهم إلى جادة الطريق والتي ترتبط أساساً بمكانة الإنسان العلمية ، ومدى استيعابه لخط الرسالة ، وقدرته على فهمها وإيصالها إلى الآخرين ، فكانت آية التطهير (١) دليلاً على سمو آل البيت وإبرازاً لأفضليتهم . وتكاثرت الأحاديث خلال حياة النبي حولهم وعلى رأسهم علي عليه السلام ، وللنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أقوال كثيرة أراد من خلالها توجيه الرأي العام إلى أمر مهم حتى لا يتم تحريف الإسلام بعد وفاته ومن هذه الأقوال :

« أنا مدينة العلم وعلي بابها ».

« يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ».

« أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ».

إن هذه الأحاديث تبين منزلة علي عليه السلام عند الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما أن الإمام علي عليه السلام كان صاحب ذو الفقار ، وتذكر لنا حوادث التاريخ والغزوات كيف أبلى الإمام علي عليه السلام بلاءاً حسناً في المعارك وكيف ثبت في حرب أحد ويوم حنين . وكيف كان فاتح خيبر بعد أن فشل الصحابة الذين استلموا الراية قبله ، وهو أمر يجب التأمل فيه بشكل نستطيع من خلاله التعرف على منزلته العظيمة وإبراز إحدى الخصائص المهمة وهي

---

١ - وهو المعروف بحديث الكساء بعد نزول قوله تعالى : ( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ) .



القوة ، والتي هي من شروط أى قائد . فبعد هزيمة أبى بكر وعمر قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ( لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، لا يخزيه الله أبداً ، ولا يرجع حتى يفتح عليه ) فدعا عليا ودفع إليه الراية ودعا له ، فكان الفتح على يديه (١).

هذا فى الحرب أما فى تبليغ الدعوة فلا أحد ينكر من بلغ سورة التوبة بعدما أعطيت لأبى بكر فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ( لا ولكنى أمرت ألا يبلغ عنى إلا أنا أو رجل منى ) (٢) وكل هذه المواقف النبوية تدل أنه صلى الله عليه وآله وسلم اراد من خلالها توجيه الرأى العام إلى هذا النجم الساطع ، وإبراز مكانته داخل المجتمع . بعد ذلك تأتى اللحظة الأخيرة فبعدما كان قد أمره على ذويه وأقاربه جاء الوقت ليؤمره على كافة المسلمين بعدما تبينت مكانته فى الإسلام ، فكان إتمام الدين بإبلاغ ولاية الامام على عليه السلام وذلك خلال حجة الوداع فى غدير خم . فبين منه صلى الله عليه وآله وسلم الحقيقة بصرحة فقال : ( من كنت مولاه فهذا على مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله ) (٣).

---

١ - المصنف لآبى شيبة : ١٧ / ٧ ، سنن النسائي ٥ / ح ٨٤٠٢ ، تاريخ الطبرى : ٣ / ١٢ ، البداية والنهاية : ٢٧ / ٣٧٣ .

٢ - سنن الترمذى : ٥ / ٣٧١٩ ، سنن النسائي : ٥ / ٨٤٦١ ، تفسير الطبرى : ١٠ / ٤٦ ، البداية والنهاية : ٧ / ٣٧٤ ومسنند الامام أحمد : ١ / ٣٣١ .

٣ - مسند أحمد : ١ / ٨٤ ، ٨٨ ، ١١٨ ، ١١٩ ، سنن النسائي - كتاب الخصائص ح ٨٥٤٢ ، البداية والنهاية : ٥ / ٢٢٩ - ٢٣٢ .

فهذه اقوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كتب أهل السنة ، وليست افتراءات الشيعة كما توصل إلى ذلك الدكتور شلبي حيث يرى أن هناك طريق ثانى طويل جاء منه أعظم الخطر على الشيعة ذلك هو طريق الوضع والإفتراء ، فوضعوا من الأحاديث والروايات ما يؤيد به مذهبهم (١).

#### أسباب ونتائج

إن البحث التاريخي هو عبارة عن دراسة موزعة للأحداث السابقة عبر تتبع مسيرتها إذ أنها تحوى داخلها مجموعة من الاسباب ، والتي تعطى للحدث بعداً تاريخياً له انعكاساته على مجريات الأحداث المستقبلية ، فلا يمكننا الوصول إلى خلاصة ونظنها منطقية . دون إيراد ماورد فى هذا الباب حتى تكون استنتاجاتنا منطقية و هذه العملية مهمة فى دراسة التاريخ الإسلامى لاننى باستطاعتى أن اعطى حكماً قيمياً من خلاله أصل إلى حكم يخالف الواقع وما جرت به الأحداث ، وقد يصل الأمر إلى أن أصل إلى نتيجة غير صحيحة وكثيراً ما يصل الباحث إلى هذه النتائج الخاطئة من خلال التعامل مع باقى الفرق الأخرى بشكل متطرف وإخراجها من ملة الإسلام ، وهذا ما حدث لصاحبنا فعلى علة منهجه التاريخى والذى حاولنا بقليل من التفصيل إظهار الأسباب التى أغفلها والتى لها الدور الأساسى فى التأثير على الأحداث التاريخية بعدو وفاء الرسول وكذلك النتائج التى تفتقد إلى

---

١ - انظر : أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامى : ٢ / ١٥١ .

أسباب منطقية ، من قبيل تحدّثه عن بيعه أبي بكر كنتيجة نالت إجماع المسلمين بدون أدنى خلاف علماً أن هذا يخالف الواقع . إذ أن كاتبنا يرى أن الأغلبية الساحقة اتجهت إلى أبي بكر وبايعته خلفه وسرعان ما اجتمع حوله من تردد في بادئ الأمر في مبايعته (١).

هذه نتيجة قد تتفق معه فيها لكن كيف توصل إلى هذه النتيجة ، ماهي الدلائل والقرائن التي توحى لنا بهذا علماً أنه لم يدرج وقائع قبلية توصلنا إلى هذه النتيجة ، اللهم إلا الاستثناءات التي أوردتها كتب التاريخ والخاصة في مسألة الصلاة وقد أوردتها كتب تاريخية متعددة وأثبتت عدم صحتها وخالفت المتعارف عليه في الشريعة وخصوصاً النقطة الأساسية ؛ وهي إمامة إمامين لصلاة واحدة وهذا مالا يجوز شرعاً.

وعلى فرض صحة الخبر فهو مخالفة صريحة لأصول التشريع السني لأننا كما نعلم أن في الفقه السني سبق الإجماع القياس (٢) ، لكن السقيفة أثبتت لنا العكس بحيث سبق القياس الإجماع يقال أنه في

---

١ - د. أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي : ١ / ٥٧٦.

٢ - أصول التشريع عند السنة هي :

(١) القرآن.

(٢) السنة.

(٣) الإجماع.

(٤) القياس.

ص: ١٤٧

السقيفة قاسوا إمامة الصلاة على إمامة الأمة بعد ذلك أجمعوا على الأمر وهذا في حد ذاته ضرب للنظرية الفقهية ونتيجة حتمية لأسباب تفتقد إلى قواعد منطقية تستند عليها مما يجعل الإجماع الذي نتحدث عنه محل نظر . وإنما يبقى محاولة لتبرير واقع بدون اك تساب الجراء على التخلص من التبعات ، والموروثات القديمة ويتجلى هذا في تعاطيه مع الفرق الأخرى بحيث يرى أن هذه الفرق ليست في الحقيقة اسلامية وأن الأجيال التي اسمتها اسلامية اخطئت (١).

ونورد هنا نكتة بسيطة لنوعية تعامل الشلبي مع نفي الاقوال والأحاديث الخاصة ب الفرق الأخرى حيث يورد أنه فقرة من كتاب « اربع رسائل اسماعيلية » لعارف ثامر (٢) نقلاً عن الامام الصادق عليه السلام : من أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن عصانا فقد عصى الله ، فنحن أبواب الله وحجبه وأمنائه على خلقه ، حفظه مكنون سره ، والآخذون عهده وميثاقه . ويستنتج من خطأ نحوى واحد فى الرواية عدم صدور هذا القول عن الامام الصادق عليه السلام حيث يقول : فى الأصل « والآخذين » وجعفر الصادق أبعد ما يكون عن مثل هذا الخطأ النحوى الواضح فقد

---

١ - د. أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامى : ٢ / ١٤٥ ط ٩ سنة ١٩٩٤ مكتبة النهضة المصرية.

٢ - عارف ثامر اربع رسائل اسماعيلية ص ٥٦ ، ٥٧ نقلاً عن موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٢.

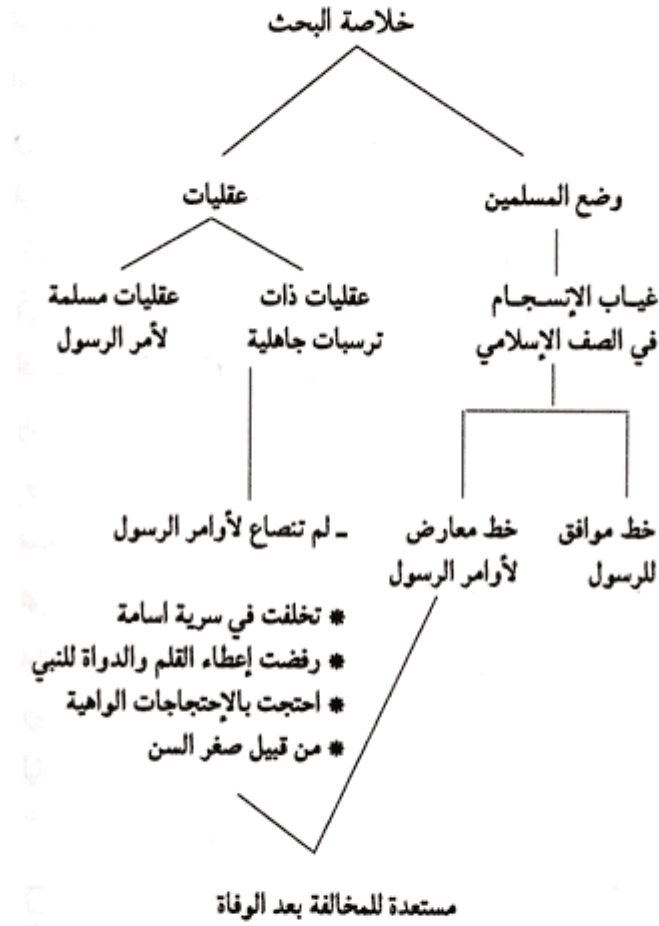
كان من أساطين اللغة والفقه (١). وأظن أن هذا هو عين الحقيق ، لأن عملية التدوين قد ينتج عنها خطأ أفضح من هذه ناتج عن خطأ في النقل ، لكن ردها يفرض عرضها على مصادر وأقوال دينية أخرى. فإذا خالفت ما صح عن الله ورسوله فهي مما لا يصح . ولا نريد هنا إيراد رد على رفضه هذه الرواية لكن فقط نورد رواية واحدة أظن أنها تفي بالغرض حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

( إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبل مم دود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا على الحوض ) (٢) وهي إيراد لنوع من التلازم الذي يلزم الطاعة وأي افتراق عن الامام هو افتراق عن الكتاب ونتيجته الحتمية المعصية. وملاحظة أخيرة قبل ختام هذا الباب نذكر أن استاذنا اعتمد في دراسته للطوائف الإسلامية وخاصة الشيعة على الملل والنحل للشهرستاني وهذا في حد ذاته عيب على كاتب يريد التأريخ للأمة الإسلامية لأن أحادية المصدر تعكس فقط وجهة نظره مما يبعد البحث التاريخي عن النزاهة. و خلاصة هذا البحث نوردتها في التقسيمات التالية التي تبين الأسباب وبالتالي النتائج الناجمة عن هذه الأسباب.

---

١ - د. أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي : ٢ / ١٥٨.

٢ - أخرجه أحمد في مسنده : ٥ / ١٨٢ ، ١٨٩ والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک.





الفصل الخامس  
التشيع ... تاريخ مذهب

إن الاجتهاد ابتكار ، وأن يراجع  
الإنسان بنفسه الفرع إلى الأصل ولهذا  
فالمجتهد الواقعي في كل علم هو كذلك  
آية الله الشهيد مرتضى مطهري  
والمجتهد أيضاً لا يتقيد بفتاوى  
الآخرين ، بل يحرم على المجتهد  
التقليد بحسب رأى الشيعة ، وما أكثر  
المجتهدين الذين خالفوا الماضين  
وأبدوا آراء جديدة وفهماً جديداً للأدلة  
فقوبل عملهم هذا بالتكريم  
آية الله موسى الصدر



## التشيع والآخر

إن الإطلاع على الموسوعات التاريخية القديمة أو الحديثة يظهر بأن نقطة الإنفاق التي اتفق أغلب المؤرخون عليها ، هي مسألة الهجوم على الشيعة والتشيع . وقد لامسنا هذا ونحن نطالع البداية والنهاية لابن كثير او موسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي ، وصارت الحقائق التي يذكرها التاريخ وهي تسجل انتصاراً للشيعة تلقى معارضة من طرفهم فتارة يعرضون عنها ، وتارة يضعفونها ، فأصبح التشيع بنظر الكتب التاريخية هو ذلك اللقيط الذي خرج من قمامة المجتمع الإسلامي ، في حين هذه الصورة التي صوروه بها ماهي إلاّ تعبير عن وجهة نظر الدولة السلطانية التي استبدت بالحكم ، وصارت المعارضة الإسلامية الأصيلة هي حالات الشذوذ داخل المجتمع.

وكنا نستغرب كثيراً حينما نرى كاتباً أو مؤرخاً يحاول تهديم أركان هذه المدرسة بجرة قلم . ولم يبق الأمر محدوداً عند نفى المسائل الاعتقادية للمذهب بل تم الطعن في علماء شيعة أعطوا حياتهم وسخروها للإسلام لئلا تتبلور صورة ايجابية عن الشيعة في أذهان عامة أبناء العامة.

ونشاهد في هذه الأيام مفكر دخل في سجال مع الفكر لاستخلاص الفكر الإسلامي الاصيل بزعمه ، لكنه مع الأسف وقع في المحذور المعرفي وهو طغيان الايديولوجي على الإستملوجي.

فنلمس من تصريحاته ومنها قوله : النزعة التعصبية من خلال ما حاولنا القيام به لا يهدف شن حرب ايديولوجية عليه ، بل في إطار تحليلنا النقدي لننظم المعرفية في الثقافة العربية (١).

يظهر من كلامه هذا أن المخفي بين السطور وما عبرت عنه الدراسة النقدية التي قام بها محمد عابد الجابري في كتاباته والتي تتناول العقل العربي تعطى للمعنى السابق معنى واضحاً ، وتبرز الممتنع الذي لم يحاول إظهاره حيث ربطه بالمناحى العلمية ، والنقدية حتى تصير كل آرائه هي من باب الدراسة. لكن الفلتات الكتابية في بعض الحالات وسهو الكاتب عما يكتبه تجعل كل المعاني تتضح بربط بعضها ببعض.

إن العقلية النقدية التي لم تتخلص من الموروث التاريخي القديم ، والتي لا زالت تعيش على أوهامه غير قادرة على اختراق طرائق البحث والنقد . وهذا الجابري الذي لا يريد أن يشن حرب ايديولوجية لا زالت عقليته مرتبطة بتاريخ ابن سبأ بحيث يقول أنه قد أطلقت مصادرنا التاريخية على حركة المعارضة لمعاوية ، اسم السبئية نسبة إلى

---

١ - محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ص ٢٩١.

عبد الله ابن سبأ (١). إن مجرد الإيمان بشيء دون التأكد من صحته يجعل القدرة النقدية للشخص ضعيفة ، كما أن الاعتماد على المصادر التاريخية دون إخضاعها لعملية النقد يعتبر حائلاً للوصول إلى النتيجة الصحيحة . لكن محمد عابد الجابري واحد ممن تعجبه المغامرات التنظيرية وغالباً ما تكون المغامرات عبارة عن مجازفة يستعمل فيها صاحبها كل الطرق من أجل الوصول إلى نتيجة معينة بغية تأكيد رأيه . إن ما قام به الجابري مجازفة غريبة اتخذت في أولها موقفاً سلبياً من التشيع وذلك بربطه بالسبئية وبالتالي حصرت المعرفة في التراث السني ، وجعلت التراث الشيعي يرمى به في هامش التاريخ باعتباره اللامعقول الديني لأنّها رأت أن كل من عاش أو يعيش لحظة ابن سينا بعد ابن رشد فإنما قضى أو يقضى حياته خارج التاريخ (٢).

وهنا تظهر الطوباوية السنية والتي تتحكم بعقل الكاتب بحيث لم يستطع التخلص من موروثاته الماضية ، ويعبر عنها في مشروعه التجديدي بطريقة أصولية سنية متطرفة ، بحيث أن إعادة تحديث الفكر العربي وتجديد الفكر الإسلامي عنده يتوقف ليس فقط على مدى استيعابنا للمكتسبات العلمية والمنهجية المعاصرة .. بل أيضاً ولربما

---

١ - محمد عابد الجابري ، العقل السياسي العربي ص ٢٠٧ مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٠.

٢ - محمد عابد الجابري ، نحن والتراث ص ٧٠ ، ط ٣ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٣.

أيضاً بالدرجة الاولى يتوقف على مدى قدرتنا على استعادة نقدية ابن حزم وعقلانية ابن رشد وأصولية الشاطبي وتاريخية ابن خلدون (١).

هذه الرباعية العلمية ومن خلال دراسة العلوم الإسلامية لا يمكن أن تجد لها طريقاً إلى الواقع لكن كاتبنا أوجد لها طريقاً في مقابل التخلص من الأفكار الدخيلة حسب زعمه والتي ينعتها بالهرمسية وذلك من أجل إعادة بنية العقل ال عربي من داخل الثقافة التي ينتمي إليها (٢).

إن هذا الكلام الذي يمارسه الجابري بطريقة أدبية قد عبرت عنه السلطات الحاكمة قديماً ، فكل واحد داخل حركة السلطة هو جزء من هذا المجتمع ، او ما اصطلح عليه بالجماعة ، وأى واحد معارض فهو خارج عن الجماعة ومحكوم عليه بسفك دمه. إذن أى رؤيا علمية خارجة عن مقترحات كاتبنا فهي لا محالة معرضة للسفك المعرفى وإنزالها مراتب الحضيض وطردها من الثقافة الإسلامية ، علماً أن هذا المشروع الذى يطرحه يحمل فى طياته تناقضات مرتبطة بتناقض الاشخاص الذين يجب أن تؤسس عليهم عقلنا الجديد . إذ أن التوفيق بين الأربعة يعتبر من المستحيلات بحيث يعتبر ابن رشد القائلين بالسماع من دون القول حشوية ، علماً أن ابن حزم من أشد الرافضين

---

١ - محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ص ٥٦٦ ، ط ٥ ، المركز الثقافى العربى يناير ١٩٨٦.

٢ - المصدر السابق.

للقياس فهو حشوى بنظر ابن رشد ، وكيف يلتقى ابن حزم مع الشاطبي الذي بنى مقاصده على مذاهب التعليل وتحقيق المناط وكيف يلتقى ابن رشد المدافع عن الفلاسفة بـابن خلدون الذي سلك مذهب أبي حامد الناقم عليهم ، من هنا تظهر هشاشة المشروع الذي طرحه ، لأن مشروعه يعتمد على كل المنتج التراثي للفكر الاسلامي ، وابن سينا الذي يحاول الجابري إخراجه من دائرة العقل الإسلامي ، فإن ابن رشد قد أخذ منه وذلك من أجل إحياء نظام الفلكيات الذي يتفق مع صلب الفكر الارسطي - والذي يعتبر ابن رشد الشارح الأكبر له - وخصوصاً في ترسيمته الثلاثية التي تقيم أنفاساً للأفلاك بين كل من العقل المحض المفارق والفلك السماوي (١).

وكما إذا كان الفكر الفلسفي السني بعد ابن رشد قد لقي حتفه وهذا دليل كافي على عدم قدرته لاستيعاب الحقائق الفلسفية ، فإن الفكر الفلسفي الشيعي ظل صامداً ولا يزال إلى يومنا هذا في المجمعات الدينية العلمية ، فبعد ابن سينا جاء الخواجه نصير الدين الطوسي والذي كان معاصراً لابن رشد ولم تقف السلسلة بل جاء المير داماد ، وجاء المجدد والمبدع في المدرسة السينية الملا صدرا الشيرازي . إذ أنه لما كان الفكر الفلسفي في جميع أرجاء العالم الإسلامي يغط في سبات عميق ، قام هؤلاء في المدرسة السينية الإيرانية يقودون الإسلام

---

١ - هنري كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٣٦٣.

الشيعة إلى أعلى مراتب وجدانه الفلسفى ... (١).

إن هذه الفلسفة لم تكن لقيطة معرفية أو وليدة محاكاة لفلسفة سابقة ، ولكن هى من صميم الثقافة الإسلامية الأصيلة ومن المنطلقات التى يكون لها الشيعة احتراماً وخصوصاً المرتبطة بالمعصومين ، إذ شكل تراث آل البيت القاعدة الأساسية للفلسفة الشيعية ، مما يعطيها مشروعيتها التاريخية ، والمعرفية ، والتى حاول محمد عابد الجابرى نزعها عنها إذ يمكن اعتبار نهج البلاغة منهلاً من أهم المناهل التى استقى منها المفكرون الشيعة مذاهبهم والتى كانوا ينادون بها ، لا سيما مفكروا الحقبة الرابعة ، وإنك لتشعر بتأثير هذا الكتاب بصورة جمة من الترابط المنطقى فى الكلام ومن استنتاج النتائج السليمة ، وخلق بعض المصطلحات التقنية العربية التى أدخلت على اللغة الأدبية والفلسفية فأضفت عليها غنى وطلاوة ، وذلك أنها انشأت مستقلة عن تعريب النصوص اليونانية ، ومن هنا تأخذ الفلسفة الشيعية سيماها الخاص ذلك أن منكروهم خرجوا من هذا الكتاب بنظرة ميثافيزيقية كاملة باعتقادهم أن خطب الامام تشكل دوراً فلسفياً متكاملًا (٢).

كما أن نهج البلاغة لم يكن الوحيد فى صياغة هذه الفلسفة بل كان لخطب الأئمة دور كبير فى صياغة وتطور الفلسفة منذ زمن بعيد حيث

---

١ - المصدر السابق ص ٢٦٥.

٢ - هنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٨١.

الفلسفة السنية لم تعد قادرة على أن تساير الوقائع ، لكن كاتبنا يأبى إلا أن يحيى الميت من قبره بواسطة مشروع تتضارب فيه البنى المعرفية ، وما مشروعه إلا صورة من ترديدات الغرب (١) الفارغة ، فالعالم الغربى لم يلتقى كثيراً بالمعارف الشرقية وذلك نظراً لبعده المسافة التى كانت تفصل بين المشرق والمغرب فى حين كان ابن رشد هو المترجم على كرسى الفلسفة فى الغرب الإسلامى فترددت فى الأوساط الغربية الفلسفة الرشدية فأخذوها ، وتوقف المد الفلسفى الغربى (٢) فى حين ظلت المدرسة الشرقية قائمة ، ومسترسلة فى رسالتها الفلسفية. فما كان من الغرب إلا أن حصر تاريخ الفلسفة الإسلامية فى ابن رشد متناسين أولئك الذين فى الجهة الأخرى من العالم الإسلامى وظنوا أن هذه الفلسفة بلغت ذروتها معه وانقضت ، فكان هذا هو الصدى الذى تركه الغرب ليصل بعد ذلك إلى سماع كاتبنا فوق عند تاريخ متقدم يفوق ٨٠٠ سنة لينطلق فى التجديد ويتناسى شيئاً جديداً لم يمت حيث لا زالت الحياة المعرفية والفلسفية تدب داخل مجامعه العلمية. إن هذه النظرة التقزيمية لإعادة بناء المعارف الإسلامية على أساس نفى الطرف الآخر ، تجسد مظلومية التشيع السياسية بالاضطهاد الذى

---

١ - يمكن إسقاط هذا التشابه بين إرنست رنان فى كتابه ابن رشد والرشدية ومحمد عابد الجابرى فى مشروعه الموسوم بنقد العقل العربى.

٢ - المقصود هنا الغرب الإسلامى.

لاقاه من حكام الجور ، ومظلوميته الثقافية والعلمية بإخراجه من ساحة التجديد للعقل  
الإسلامي ومدى دوره الفاعل في بلورة العقل والفكر داخل المعارف الإسلامية والتي لا زال  
لحد الآن له القيادة البارزة ولا زالت النماذج الفلسفية قائمة.  
ومظلومية التشيع لم تتوقف عند المستوى المعرفي بل تعدته في رمزياته التاريخية ، فإذا كنا  
قد رأينا ابن كثير وهو يخرج الإمام علي عليه السلام من آل البيت ويحرمه من المؤاخاة مع  
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك كيف قام صاحبنا أحمد شلبي بالقاء تهمة قتل  
الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي إلى الفرس وبطريقة غير مباشرة إلى أنصار خط التشيع  
، يطلع علينا عالم والذي جعله الجابري ا حد اعمدة مشروعه فيبرر قتل الامام علي  
عليه السلام وأن قاتله مأجور.  
يقول ابن حزم في المحلى :  
« ولا خلاف بين أهل الأمة في أن عبد الرحمن ابن ملجم لم يقتل عليا إلا متأولا ، مجتهداً ،  
مقراً أنه على صواب وفي ذلك يقول عمران ابن حطان شاعر الصفرية :  
يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا (١)

وهذا مما يخالف صريح ما صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث أخرج

---

١ - المحلى : ١٠ / ٤٨٣.



أحمد في مسنده (١) والنسائي في السنن الكبرى (٢).  
قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي : ( قاتلك أشقى الآخرين ).  
وفي لفظ آخر اشقى الناس وفي لفظ ثالث أشقى هذا الأمة (٣).  
وفي حديث آخر : ( ألا أخبرك بأشد الناس عذاباً يوم القيامة ).  
قال أخبرني يا رسول الله.  
قال ( فإن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عاقر ناقة ثمود ، وخاضب لحيتك بدم رأسك ) (٤).  
لكن عالمنا ابن حزم يرى في المسألة شيئاً عادياً وكأن مسألة القتل لا تخضع للقوانين  
الإسلامية بل الامر لم يتوقف عند هذا الحد فحتى عمار بن ياسر والذي كان مع الحق كان  
قاتله عند ابن حزم رجلاً مأجوراً فنجدده يقول في الفصل (٥) :  
وعمار رضي الله عنه قتله أبو الغادية يسار بن سبع السلمي ، شهد عمار بيعه الرضوان فهو من  
شهداء الله له بأن علم ما في قلبه وأنزل السكينه عليه ورضى عنه فأبو الغادية رضي الله عنه  
متأول مجتهد مخطأ فيه باغ عليه مأجور أجراً واحداً.

---

١ - مسند أحمد : ٤ / ٢١٢.

٢ - السنن الكبرى : ٥ / ٨٥٣.

٣ - للمزيد راجع الغدير للاميني : ١ / ٥٨٧ ، ط ١ ، دار الغدير.

٤ - رواه ابن عبد البر في العقد الفريد : ٢ / ٢٩٨.

٥ - الفصل : ٤ / ١٦١.

إن كلام ابن حزم لهو غاية السخف والتبرير الذى يفتقد المتانة والمعقولية ، لأنه لا يوجد معنى لاجتهاد أبى الغادية - وهو من مجاهيل الدنيا وأفناء الناس ، ومثاله العهد النبوى ، ولم يعرف بشيء غير انه جهنى ولم يذكر فى أى معجم بما يعرب عن اجتهاده ، ولم يرو عنه شيء من العلم الإلهى سوى قوله النبى صلى الله عليه وآله وسلم ( دماءكم وأموالكم حرام ) وقوله ( لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ) (١).

وحسبنا هنا فى الحد من هذا الشطط فى الدين ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمار رضى الله عنه ( تقتلك الفئة الباغية ).

وقد أخرج هذا الحديث النسائى فى الخصائص (٢) ، وأحمد فى المسند (٣) وأبو نعيم فى الحلية (٤) وابن المؤيد الجوينى فى فرائد السمطين (٥).

هكذا يكون ابن حزم قد شرعن للفقهاء اجتهاد جديد يحل فيها دم المؤمن.

إن الرؤية المتفحصة لهذه الأمور والتى تحاول استقراء المخفى من وراء الكلام نستنتج من خلالها مواقف كثيرة. فالإمام على عليه السلام وعمار

---

١ - الغدى للأمينى : ١ / ٥٩٣.

٢ - تحقيق السيد جعفر الحسينى ، ط ١ ، سنة ١٤١٩ ، دار الثقلين.

٣ - مسند أحمد : ٦ / ٣١١.

٤ - حلية الأولياء : ٧ / ١٩٧.

٥ - فرائد السمطين : ١ / ٢٨٧.

ابن ياسر هما من ابرز رموز التشيع فالاول إمام ، والثاني أحد الشيعة المخلصين ، فموقف ابن حزم لم يكن ليُعبر به ضد شخصيات بل هو تعبير آخر لمهاجمة تيار إسلامي ألا وهو التشيع ، لذلك ترى نظريته هذه لا تستند إلى منطق وحتى هو نفسه لا يعي ما يقول بحيث اختلط عليه الحق بالباطل.

فها هو فيما سبق يعتبر مسألة القتل اجتهادية علماً أن القاتل الحقُّ له بُيِّن ، فذاك على أخو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا عمار أحد الصحابة المنتجبين إذن الحق ظاهر هنا وقتلهما يستوجب نزول اللعنة على القاتلين.

ويقول ابن حزم في هذا الباب (١).

وإن كان قد قامت الحجّة عليه وتبين له الحق ، فعَدِ الحق غير معارض له تعالى ولا لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهو فاسق لجأته على الله تعالى بإصراره على الامر الحرام فإن عَدِ عن الحق معارضاً لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر مرتد حلال الدم والمال لا فرق في هذه الأحكام بين الخطأ في الاعتقاد في أي شيء كان من الشريعة ، وبين الخطأ في الفتيا في أي شيء كان.

إذن المسألة عند ابن حزم تظهر كمسألة معاندة ضد اتجاه ديني آخر . وهكذا فإن التشيع عاش دائماً حالة المواجهة منذ اللحظة الأولى

للتاريخ الإسلامى إلى يومنا هذا مع الآخر ، محاولا هذا الأخير إقصاءه بعقلية السلطة التى  
تركبت فى الأذهان كأساس لمواجهة التيار المعارض ، هذا التيار الذى ظل يقاوم ويتخطى  
الصعاب ليبقى حياً على قيد الحياة إلى يومنا هذا بتاريخ أصيل وعقائد ثابتة.

ص: ١٦٤

## الشبيعة والتاريخ

إن أى حركة دينية أو سياسية تعرف تاريخ انطلاقتها والأسس النظرية التى اسست نفسها عليها ، وخلال مراحلها التاريخية تعرف تطوراً سواءً بإصلاح فى نظريتها وتطويرها أو عكسها ولا يمكن أن تكون هناك طائفة بدون انطلاقة تأسيسية ، والشئ الذى يجب أن ننتبه إليه أنه ممكن داخل أى حركة فكرية ، أو دينية أن تنشق مجموعة من التيارات التى تأخذ أرضيتها من الحالة التأسيسية الاولى ، كما الحال مثلاً بالنسبة للماركسية بحيث نلاحظ ماركسية ماو - ستى - تونغ التى عرفت بالماوية ، او الماركسية التروتسكية ، او الغيفارية أو اللينينية ، لكن المشكل ، من منهم يمثل الحقيقة التى حاول تجسيدها ماركس من خلال أفكاره. وهكذا فى الفكر الإسلامى ، بحيث لا توجد ظاهرة دينية تنوعت مذاهبها كمثل الإسلام ، ولكن الملاحظ هو أن الاختلاف لم يصل إلى حد إنكار المسلمات العامة والتى هى محل اتفاق المسلمين إلا أن الاختلاف فى مجموعة من الأمور والتى قد تكون تأسيسية حاولت مجموعة من الطوائف التنازل عنها فصارت بعد ذلك محل نقاش وجدال ، وحاولت بعدها كل فرقة أن تثبت أهليتها ، وأنها

الحقيقة الصافية التي جاء بها الإسلام هي التي تمثلها . فإلى أي حد كان التشيع يمثل هذه الحقيقة؟ وهل هو نتاج لتطور خلال المراحل التاريخية؟

إن الشيعة كمصطلح لغوي يقصد بها جماعة من المتعاونين على أمر واحد ، ويقال تشايح القوم إذا تعاونوا ، وربما يطلق على مطلق التابع (١) وقد استعمل الله هذا اللفظ في عدة مواضع من كتابه تعالى وذلك في قوله :

( فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ) (٢).

وكذلك في قوله تعالى : ( وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) (٣).

وهذا دليل على أن الشيعة هي جماعة من الناس اتخذت من شخص لها قائداً وأعطته المحبة والموالاة والتصديق المطلق.

إذن على هذا الاصطلاح هل هذه الطائفة تب لورت خلال المراحل الاولى من الدعوة الإسلامية أم جاءت متأخرة؟

إن الرجوع لكتب التاريخ يظهر تبايناً واضحاً في تحديد تاريخ تأسيس المذهب الشيعي . فبعضهم يرى أن التشيع ظهر بعد وفاة الرسول من قبل بعض أنصار الإمام علي عليه السلام الذين اجتمعوا في بيت

---

١ - جعفر السبحاني بحوث في الملل والنحل ص ٧.

٢ - القصص : ١٥.

٣ - الصافات : ٨٣ - ٨٤.

ص:١٦٦

فاطمة عليها السلام ، بحيث تخلفوا عن بيعة أبي بكر وهم قوم من المهاجرين والأنصار ، ومالوا مع علي بن ابي طالب ، منهم العباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، والزبير بن العوام وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر والبراء بن عازب وأبي بن كعب (١). ويرى أصحاب هذا الرأي أن المرحلة التأسيسية قد ظهرت خلال هذه الفترة وقد عبر عنها أحمد أمين بأن هذه المعارضة لبيعة أبي بكر كانت الهزة الأولى للشيعة ، وهم الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه (٢). وكذلك عبر عنها المستشرق جولدتيسهر (٣) بكون النشوء بدأ مع الخلاف الحاصل حول مشكلة الخلافة ونقمة مجموعة من الناس على طريقة انتخاب الخليفة.

والرأي الثاني هو الذي يقول كون التشيع وليد الفتنة التي وقعت في عهد عثمان ، وآخرين يرون أن التشيع وليد زمن على لما تسلم أمور الخلافة بحيث كانت الأرضية السياسية ملائمة ، وقد أشار الشهيد الصدر في كتابه بحث حول الولاية إلى هذا الرأي قائلاً : « ومنهم من يرد ظاهرة التشيع إلى عهد خلافة الإمام علي عليه السلام وماهية ذلك العهد

---

١ - اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي : ٢ / ١٢٤.

٢ - أحمد أمين فجر الإسلام ص ٢٦٦ ط بيروت.

٣ - جولدتيسهر العقيدة والشرعية في الإسلام ١٦٩ ط القاهرة.

من مقام سياسى واجتماعى على مسرح الأحداث (١).

إن هذا التضارب فى تحديد تاريخ التشيع ينم فى داخله عن شىء معين ، إذ كل الطوائف الإسلامية الأخرى معروف تاريخ تأسيسها ، وأصحاب الملل والنحل يبينون تاريخ ومؤسس كل فرقة بصورة واضحة لم يختلف عليها أحد من عامة المسلمين ، إلا التشيع فإنه ظل ولا يزال محل خلاف ، ومن شدة التيه التحقيقى فى هذه المسألة ظهرت نظريات حاولت إعطاء رؤى تقريبية لهذه المدرسة ، فظهر تقسيم عجيب تداولته اللسان ، وهو تقسيم إلى تشيع السياسى ، وتشيع مذهبى.

إن هذا التقسيم لم يكن موضوعياً ، وإنما قصد منه ضربة التشيع فى الصميم. وقصد بالتشيع السياسى هو حالة المشايعة التى عرفها آل البيت من أجل الحصول على السلطة السياسية وخصوصاً بعد استشهاد الامام الحسين عليه السلام ، مما أدى إلى تشكيل طائفة سياسية تعلن الولاء السياسى لآل البيت.

ويرى الدكتور كامل مصطفى الشيبى أن التشيع السياسى ، وإن ظهر فى الفترة التى افترضها الباحثون السابقون ، إلا أن دلالة الاصطلاح ( شيعه ) على الكتلة التى ندرسها من المسلمين وانصرافه إليهم دون غيرهم ، قد بدأت مع حركة التوايين التى ظهرت سنة ٦١ ، وانتهت

---

١ - بحث فى الولاية - الشهيد الصدر ص ٢٥ ط بيروت.



بالفشل سنة ٦٥ وكان قائد الحركة يلقب بشيخ الشيعة (١).  
والأغرب من ذلك هو نسبة التشيع لليهود ، والقول بأن التشيع ذات أسس يهودية تأسست  
على يد عبد الله بن سبأ رغم ما لهذا القول من ضعف . بحيث ثبت ضعفه من جانب التحقيق  
التاريخي ، وكذلك في مجموعة من العقائد التي حاولوا نسبتها إلى اليهود وأنها دخيلة على  
الإسلام ، في حين أن هذه العقائد أصلاً غير موجودة عند اليهود ! فقالوا أن العصمة مأخوذة  
من عندهم مع العلم أن الكتاب المقدس يذكر الأنبياء بأشبع صور فهي نحن نقرأ في سفر  
التكوين الإصحاح كيف أن النبي لوط ل ما صعد من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه ،  
وبات ليلتين في جماع ابنتيه بعد أن سقى خمراً وأن البنت البكر ولدت منه ابناً اسمه موآب  
والصغرى ولد سمته ابن عمي . وكذلك قالوا أن الولاية والوصية أصل يهودي في حين أنهم  
هم أنفسهم يقولون أن الوصاية لم تكن لهارون كي تكون لعلی. إذن من أين جاءت هذه  
الوصاية وبنو إسرائيل أنفسهم في القرآن الكريم يقول الله على لسانهم ( ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلُ  
فِي ) فلو كان مبدأ الوصاية ذا أصول يهودية لوجد الوصي دون أن يلجأوا إلى طلب ملك  
يقاتلون فيه.

ونعود إلى قسمي التشيع المختلفين ونقول أن قصدهم بالتشيع المذهبي هو المرحلة التي  
وضعت فيها الأسس العقائدية والتأسيسية

---

١ - الشيبی : الصلة بين التصوف والتشيع : ١ / ١٢٢ ، ط بيروت.

لهذا المذهب. وكان قصد المخالفين من هذا التقسيم ما يلي :

إن التشيع السياسى هى مرحلة انطلقت بدون أصول معرفية وإنما هى حالة عاطفية ، وانجذاب سياسى لأشخاص معينين. إذن تغيب فى هذه المرحلة كل العلائق الدينية ، لكن بعد مرور مرحلة زمنية معينة لاحظ هؤلاء الأشخاص أنه لا طائل من بقائهم على هذا الحال بدون موجه دينى فيبقى أمامهم خيارين :

الالتحاق بالركب العام أو تأسيس قاعدة دينية ذات أصول حتى يتم لهم الاستمرار ، والنظر فى كلا الاحتمالين غير وارد على اعتبار أن الشيعة عاشوا على قطيعة مع نظام السلطة منذ تأزم الوضع بشكل كلى خصوصاً مع قيام الدولة الاموية . بحيث أن تاريخ الدولة الاموية لم يهدأ باله قط من التورات الشيعية ، وثانى شىء هو أن القاعدة الفكرية قد تأسست مع أقوال الرسول وخطب الامام على عليه السلام ، وما الأئمة إلا صورة واحدة تتخذ أشكال معينة وما قول أحد الأئمة إلا قول الأئمة الآخرين ، إذن مرحلة التأسيس المذهبى التى حاولوا ربطها بالامام الصادق عليه السلام ماهى إلا محاولة لفك الشرعية عن تنابع الأئمة ، والوصول فى الأخير بطريقة غير مباشرة لخلع الشرعية الدينية لولاية الامام على عليه السلام ، وجعلها سياسية ويصبح الحسين عليه السلام مثله مثل الخارجين عن السلطة المطالبين بها بدون أسس دينية ، ولا موجبات شرعية ، فتصير فتوى شريح القاضى فى حق الامام الحسين عليه السلام لها مصوغ دينى بعد ما رفع التكليف الشرعى للامام ، وواجب الولاية الشرعية ، ومنه يصير

الامام الحسين عليه السلام خارج عن الشرع. إذن يبقى سؤالاً جوهرياً ، وهو ما حقيقة التشيع في ظل هذا الخليط من التحليلات؟

إن الوقوف على حقيقة هذا المصطلح أو بالأحرى حقيقة المذهب يلزمنا الرجوع إلى الموروث التاريخي القديم ، وتفحصه بدقة لأن الاختلاف في تحديد تاريخ طائفة معينة - على أن تاريخ كل الطوائف الإسلامية محدد بالتدقيق - يخفى وراءه حقيقة تعمد المؤرخون إخفائها حتى يتسنى لهم إبداء آرائهم ووجهات نظرهم ، والأهم من ذلك هو : تمديد موقعهم داخل خريطة العقيدة الإسلامية.

إن أغلب القرائن التاريخية تثبت أن مصطلح الشيعة ظهر في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد كان مجموعة من الصحابة معروفين بهذا المصطلح نتيجة علاقتهم بالامام على عليه السلام بحيث لما نزل قوله تعالى :

( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ) قال الرسول

صلى الله عليه وآله وسلم حول خير البرية : هم أنت يا علي وشيعتك (١).

وقد تعدد ذكر هذا الخبر عند الكثير من العلماء ، فقد ذكره السيوطي في الدر المنثور قائلاً لما نزلت الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ( أنت وشيعتك وموعدى وموعدكم الحوض إذا جاءت الامم للحساب تدعون غرا محجلين ) (٢).

---

١ - الطبري : تفسير الطبري ٣ / ٣١٥ ، ط بيروت.

٢ - السيوطي : الدر المنثور ٦ / ٣٧٩ ، ط بيروت.

وقد تعددت الالفاظ فى ذكر سبب نزول هذه الآيه والداله على تخصيص التشيع بالموالين ،  
والمشايخين لعلى ابن أبى طالب عليه السلام وكان من بين الأشخاص الذين عرفوا بهذا الإسم  
من خيرة الصحابة وهم أبو ذر ، وعمار ومقداد ، وسلمان الفارسى .  
فالمرحلة التأسيسية للتشيع لم تكن شيئاً مفصلاً عن مرحلة تأسيس الدولة الإسلامية التى  
بشرها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. إذ نلاحظ أن أول عمل قام به الرسول خلال الدعوة  
السرية هو ربط الإسلام بالإمام على عليه السلام ، وكان ذلك فى حديث الدار حيث جعل  
النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً وصياً له وخليفةً من بعده.  
ومن المحال عادة أن يعين قائد نهضة أحد أصحابه ووزيراً وخليفةً له ويعلنه على الملأ فيما  
يبقى الأمر مخفياً على الخلف من أنصاره والثلة المضحية (١). إذن طرح الإسلام كان  
مربوطاً بشخص ، وإظهار مكانته حتى يتم الإرتباط به من طرف عموم المسلمين .  
والمواقع متعددة لإثبات مكانته من الدار إلى الغدير ، لذلك نرى أول ما عمله هؤلاء  
الأشخاص هو الاعتراض على بيعه أبى بكر ، والاجتماع فى منزل فاطمة عليها السلام ، وهذا  
الرفض لم يكن وليد صدفة أو اللحظة ذاتها ، لأنه لمجرد الانتهاء من تغسيل الرسول ودفنه  
احتجوا

---

١ - السيد محمد حسين الطباطبائى مقالات تأسيسية فى الفكر الإسلامى ص ٢٠٨ تعريب

خالد توفيق.

ص: ١٧٢

على المنفذين لهذا الامر - أى البيعة - ، وهذا دليل على أن هناك أرضية مشتركة يعملون من خلالها ، فيصير مصطلح الشيعة إذن هم أولئك الذين يشايعون علماً وأولاده باعتبار أنهم خلفاء الرسول وأئمة الناس بعده ، نصيهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهذا المقام بأمر من الله سبحانه وتعالى وذكر أسمائهم. وقد قال الامام على عليه السلام فى هذا المقام : ( لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً . هم أساس الدين ، وعماد اليقين ، إليهم يفيء الغالى ، وبهم يلحق التالى ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصية والوراثة ).

فلهذا لا يصح ربط التشيع بحالات متأخرة عن التشريع الإلهى والزمن النبوى المبارك ، ونعود هنا إلى نقطة سابقة وهى قولنا فى الاختلاف فى تحديد تاريخ التشيع بأنه ينم عن شىء مخزون فى نفوس المؤرخين ، فهم يحاولون سلب مشروعية التشيع ، فى حين هم غافلين بأن السنة والجماعة هى وليدة حالة السيطرة لمعاوية ومحاولته أدلجة المجتمع الإسلامى فى قالب خاضع له فسمى عامه عام الجماعة وخلقت أحاديث كثيرة تستعمل هذا المصطلح كلفظ نبوى ، حتى يكتسب شرعيته الدينية ، والتاريخية علماً أن التحقيق التاريخى يثبت أنه من المصطلحات المتأخرة عن أيام حياة النبوى ، مما يفقدها هذه الشرعية ، ويبقى المنافس القوى لهذه المدرسة هو التشيع وذلك للشرعية التاريخية والدينية التى اكتسبها من أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إذن يبقى التخلص من هذه الفكرة هو التشويش على أصلها حتى تصبح صعبة الاستقبال من طرف الناس ، وتظل مدرسة بنى أمية هي المكتسبة لهذه الشرعية المحرفة التي تبلورت لها من قبل السلطة والمال وعلماء السوء .

ص: ١٧٤

مذهب وعلماء

لقد أخذ بعض الناس عن المذهب الشيعي هذه النظرة بآنه فقط مذهب للمعارضة السياسية ،  
والمطالبة بإزالة الأنظمة السياسية التي توالى على الدولة الإسلامية عقب حرمان آل البيت  
عليهم السلام من حقهم الطبيعي . ولم ينظر إليه على أنه ذلك المذهب الذى استطاع أن يصمد  
طيلة هذه المدة الطويلة ، رغم الاضطهاد والقمع التي تعرض لها فى حين أن أغلب الطوائف  
الأخرى قد انقرضت واضمحلت.

وان هذه المقاومة الثابتة لمذهب آل البيت طيلة هذه القرون يُعبّر عن امتلاكه قوة ومناعة ذاتية  
جعلته يصمد ازاء محاولات الاطاحة من قبل خصومه ، ولم يكن ذلك من قبيل العبث لكن  
هو راجع لاتباع هذه المدرسة التي لم يقف شريانها العلمى ، والمعرفى عن النبض . فكانوا  
السباقين إلى مختلف العلوم وأصحاب السبق فيها ، فأبدعوا فى الفقه والحديث واللغة ،  
وكانت لهم السابقة فى الفلسفة وعلم الكلام ، فكان الشيعة خير من حافظ على بيضة الإسلام  
المعرفية ، وأول من واجه الأفكار الدخيلة ، وإذا ما حاولنا استعمال النقد النزيه والتجرد من  
الذاتية فإننا نرى ان طائفة العامة مليئة بنوع من الافكار الشاذة فى العقائد

ص: ١٧٥

وخصوصاً فيما يتعلق بالتوحيد المرتبط بالله سبحانه وتعالى ، وما لاحقه من التجسيم والتشبيه والذي هو مأخوذ خصوصاً من العقائد الأخرى كاليهودية أو المسيحية لكن التشيع حاول منذ الوهلة الاولى ، ولأرتباطه بآل البيت عليهم السلام أن يحافظ على العقائد الإسلامية الخالصة. ومن هذا المنطلق حاول الشيعة ضبط اللغة التي أنزل بها الدين الاسلامي. فكان إبداع الشيعة فيها إبداعاً منفرداً لا زالت أسسه لحد اليوم قائمة ويرجع إليها كل علماء اللغة. والجدير ذكره هو أن نهج البلاغة للامام على يعتبر المرجع المعرفي في ضبط المعارف من قواعد ، وفلسفة ، وكلام ، ولا زال هذا الموروث المعرفي يعبر لحد هذا الوقت عن بحر أذهل الدارسين ، رغم تشكيك المشككين في نسبته للامام على إلا أن متانته وتناسقه الأدبي والعلمي والفلسفي يلزم المعارضين الإذعان له والاعتراف بحقيقته ، وذلك لبلاغته العجيبة وحكمته البليغة ، ونرى ذلك في كل خطبة والتي تمثل هذه الخطبة إحدى نم اذج هذه البلاغة والإحاطة بقدرة الله تعالى. يقول عليه السلام :

( وكان من اقتدار جبروته ، وبديع لطائف صنعته ، أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف ، ييسا جامداً ثم فطر منه أطباقا ففتقها سبع سموات بعد ارتفاقها ، فاستمسكت بامرءه ، وقامت على حده يحملها الأخضر المتعنجر ، والقمقام المسخر.

قد ذل لأمره ، وأذعن لهيبته ، ووقف الجارى منه لخشيته . وجبل جلاميدها ونشوز متونها واطوادها ، فأرساها في مراسيها وألزمها



قرارتها ، فمضت رؤوسها فى الهواء ، ورست أصولها فى الماء ، فأنفد جبالها عن سهولها وأساخ قواعدها فى متون أقطارها ومواضع أنصائها ، فاشتهق قلالها ، وأطال انتمازها ، وجعلها للأرض عماداً ، وأرزها فيها أوتاداً فسكنت على حركتها أن تميد بأصلها أو تسيخ بحملها ، أو تزول عن مواضعها فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهاها ، واجمدها بعد رطوبة أكنافها ؛ فجعلها كحلقة مهاداً ، وبسطها لهم فراشاً ، فوق بحر لجى راكد لا يجرى ، وقائم لا يسرى تكرر كره الرياح العواصف وتمخضه الغمام الذوارق ، إن فى ذلك عبرة لمن يخشى .)

#### الشيعة وعلم النحو واللغة

إن الاهتمام باللغة العربية وأصولها ليعتبر خير دليل على حب الإسلام والسعى لخدمته ، وإيصاله إلى الآخرين بطريقة يسهل عليهم استيعابه وفهمه ، لأنه متى تم حصول الإدراك لأساليب اللغة فإن فهم أى سفر يصير ، مسيراً كما أنها تصير مفتاحاً له والعكس صحيح ؛ إذا تم جهل هذه الأساسيات والعلوم لكأنت الدراسة صعبة ممتنعة . فقام الشيعة من أجل صيانة هذا الكنز الإسلامى الثمين ، وخصوصاً بعد شيوع اللكن فى القرآن فكأنت أمس الحاجة إلى ضبط قواعد اللغة (١). فقام المحبون للإسلام والراغبون فى الحفاظ عليه بوضع قواعد نحوية من أجل صيانة القرآن الكريم. وكان أول من قام بذلك هو أبو الأسود

---

١ - جرجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية : ١ / ٢١٩.

الدّولى بتكليف من أمير المؤمنين على عليه السلام. وكان أبو الاسود الدّولى من التابعين صاحب عليا وشهد معه صفين ثم أقام فى البصرة ، وفى مسألة أهتمامه بالنحو والعمل على ضبط قواعده يُحكى عن أبو سلامة الشامى النحوى : أن علياً دخل عليه أبو الاسود الدّولى يوماً ، قال فرأيتك مفكراً فقلت له : مالى أراك مفكراً يا أمير المؤمنين؟ قال إني سمعت من بعض الناس لحنا وقد هممت أن أضع كتاباً أجمع فيه كلام العرب ، فقلت : إن فعلت ذلك أحييت أقواماً من الهلاك ، فألقى الىّ صحيفة فيها؟ الكلام كله إسم وقع ل وحرف فالإسم مادل على المسمى ، والفعل مادل على حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى وليس بإسم ولا فعل - وجعل يزيد على ذلك زيادات : قال واستأذنته أن أضع فى النحو ما صنع ، فأذن وأتيته به فزاد فيه ونقص.

وفى رواية أنه ألقى إليه الصحيفة وقال له : انح نحو هذا فلهذا سمي النحو نحواً (١). وقد زاد ابو الأسود الدّولى على هذا فابتكر كل الآليات اللغوية التى تعطى للنحو علماً متكاملاً حتى يصير سهلاً إذ قام بإكمالها وضبطها وبتمييز المنسوب عن المرفوع والاسم من الفعل بعلامات نسميها الاعراب.

ولم يقف الحد عند أبو الأسود الدّولى ، بل استمر التيار الشيعى فى

---

١ - حسن الصدر تأسيس الشيعة ص ٥١ عن بحوث فى الملل والنحل : ٦ / ٥٣٢ ، وابن النديم : الفهرست ٦٦ نقلا عن المصدر السابق.

تطوير هذا العلم فبرز خليل بن احمد الفراهيدى ، وأبدع فى هذا الفن. قال أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى : والخليل بن احمد الفراهيدى أوجد العصر وفريد الدهر ، وجهىذ الأمة وأستاذ أهل الفطنة الذى لم ير نظيره ولا عرف فى الدنيا عديله ، ومد أطنابه وسبب علله وفتق معانيه وأوضح الحجاج (١).

كما كان الخليل بن احمد مبدع فى علوم اللغة العربية والتى يقصد بها الاشتغال بألفاظ اللغة من حيث أصولها ، واشتقاقها ومعناها ، حيث كان سيد أهل الأدب وأسبق العرب إلى العرب إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على حروف المعجم ، إذ ألف فى هذا المجال كتاب العين الذى يحوى فيه كل ما كان معروفاً فى أيامه من ألفاظ اللغة وآدابها ، وأما ارتباطه المذهبى فقد كان شيعياً إمامياً وقد ألف كتاباً فى الإمامة اوردته بتمامه محمد بن جعفر المراغى فى كتابه واستدرك عليه ما لم يذكره واسماه الخليلي.

وقد قال النجاشى محمد بن جعفر بن محمد ابو الفتح الهمداني الوادعى المعروف بالمراغى كان يتعاطى الكلام ، له كتاب مخ تار الأخبار كتاب الخليلي فى الإمامة وكتاب ذكر المجاز من القرآن (٢). وهذا دليل واضح على كون الفراهيدى احد المتشايعين لآل البيت عليهم السلام.

---

١ - جعفر السبحانى فى الملل والنحل ٦ / ٥٢٢.

٢ - النجاشى ، الرجال : ٢ / ٣١٨.

وقد قال العلامة الحلي في الخلاصة القسم الأول ٦٧ : كان الخليل بن أحمد الفراهيدي أفضل الناس في الأدب ، وقوله حجة فيه واخترع علم العروض وفضله أشهر من أن يذكر ، وكان إمامي المذهب.

وقال ابن داود : الخليل بن أحمد شيخ الناس في علوم الأدب ، فضله وزهده أشهر من أن يخفى ، كان إمامي المذهب (١).

وهكذا كان التشيع يساير تطور اللغة ويسهر على تطويرها من أجل خدمة هذا المذهب الذي حاول المؤرخون جعله حالة شاذة داخل المجتمع نظرا لتعارض وجهات النظر بينه وبين السلطة الحاكمة. لكن من العيب جدا وفي ظل التحقيق التاريخي أن يخرج من دائرة الفكر الإسلامي من أجل إرضاء النزوات المذهبية المتعصبة ، والذي يلاحظ خصوصاً مع كاتبنا محمد عابد الجابري ، فإن كان الفكر المتحجر وقف ضد هذه الحركة الفكرية فكذلك كان جزاء العلماء الشيعة وقتلهم لم يطل فقط الخارجين بالسيف كزيد بن محمد الباقر عليه السلام ، بل تعداه إلى علماء اللغة أيضاً ، وابن السكيت أحد ضحايا العنف السلطاني الذي لاحق العلماء المواليين لآل البيت ، فقد كان يعقوب بن جعفر السكيت أحد جهابذة اللغة وله كتب عديدة من بينها « إصلاح المنطق » ، كتاب « الألفاظ » ، كتاب « ما اتفق لفظه » ، واختلف معناه ، كتاب « الاضداد » ، كتاب « المذكر والمؤنث » ، كتاب « المقصور

---

١ - جعفر السبحاني بحوث في الملل والنحل : ٦ / ٥٣٩.

والممدود « (١) وقد كان سبب قتله حبه لآل البيت حيث قتله المتوكل ، وسبب قتله أن المتوكل سأله يوماً وهو يعلم ابنه وقال : يا يعقوب أيهما أحب إليك ، إبنائى هذان ، أم الحسن والحسين؟ فأجابه : إن قنبراً خادماً على خير منك ومن ابنك . فأمر المتوكل فسلوا لسانه من قفاه فمات ، وقد خلف بضعة وعشرين أثراً فى النحو واللغة والشعر استشهد سنة ٢٤٤ (٢).

وتاريخ الشيعة فى الفن والأدب لم يقف عند هذا الحد ، وعند هؤلاء العلماء ، فلقد أبدعوا فى الشعر وعلم العروض وبرز علماء جهابذة حصنوا اللغة العربية ودافعوا عليها بتمتين قواعدها حتى تصير فى متناول الدارسين للموروث الإسلامى المقدس ألا وهو كتاب الله تعالى ، فسيروا بذلك التطور التاريخى ولعبوا فى تاريخ اللغة والنحو والفنون دوراً مهماً وبارزاً ، لا يخفى أثره حتى ولو حاول المعارضون أن يقفوا ضدهم ، لأن مسألة العلم شيئاً يستحسنه العقل البشرى ويتقبله ، رغم ما يمكن أن تعمل السلطات وعملاء التحريف والتزوير التاريخى. ولم يقف الحد عند اللغة وفنونها بل تعداه إلى مجالات متعددة من فقه وفلسفة وخصوصاً هذه الأخيرة حيث كان للشيعة اليد الطولى فى بلورة الفلسفة الإسلامية وتطويرها.

---

١ - النجاشى الرجال : ١ / ٢٧٢.

٢ - جرجى زيدان تاريخ آداب اللغة : ١ / ٤٢٤.

الشيعة : الفلسفة وعلم الكلام

إن الفتوحات التي قام بها المسلمون في ال مناطق الخارجة عن شبه الجزيرة العربية والتي كانت تعيش قبل ذلك في ظل حضارات قديمة كانت تمتلك قدرة معرفية قوية جداً ، وكانت إشكالاتها المطروحة على صعيد المعرفة الدينية أيضاً قوية ، نظراً لامتزاجها بالمعارف المأخوذة من الثقافات الفلسفية الموجودة هناك ، منها المشرقية ( الارسطية ) ، العرفانية ( الافلوطينية ) . مما اضطر الفكر الإسلامي أن يدخل مجال معرفي آخر خارج عن إطار الحديث والفقه والاستدلال الظاهري إلى حقل معارف جديدة ليتمكن بها من مواجهة هذه التيارات المدعومة باستمولوجيا بمدارس فكرية . فكانت ضرورة علم الكلام والفلسفة ملحة . لكن الجدير ذكره هو أن علم الكلام كحالة استدلالية ومعرفية قد سبقت الفلسفة للظهور ليُعبّر من خلاله على طبيعة المذهب الكلامي ، وكذلك التعبير بشكل أوضح عن أسسه ومعتقداته ، فكانت بذلك مجالات علم الكلام محددة ومرتبطة بمجموعة من الإشكالات التي تطرح على الفكر الإسلامي ، فكان لزاماً إيجاد مخرج لها في مواجهة جميع الأفكار الدخيلة والمنافسة ، فكان علماء الكلام الشيعة من المدافعين عن حقيقة هذا الدين والعاملين على تخليصه من الشوائب التي يمكن أن تدخل في المعتقدات التي تلقاها الإسلام إبان الفتوحات . فبرز علماء كثيرون لصدهجمات الخصوم وتبيين الأفكار الإسلامية الخالصة وكان من أشهرهم هشام بن الحكم وقد كان من تلامذة الإمام

ص: ١٨٢

الصادق عليه السلام وقد قال فيه ابن النديم : هو من متكلمى الشيعة الإمامية ، وبطانتهم ،  
وممن دعا له الصادق عليه السلام فقال أقول لك ما قال رسول الله لحسان : لا تزال مؤيداً  
بروح القدس ما نصرتنا بلسانك . وهو الذى فتق الكلام فى الإمامة وهذب المذهب وسهل  
طريق الحجاج فيه ، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب (١).  
وقد قال عنه أحمد أمين : أنه كان أكبر شخصية شيعية فى الكلام وكان قوى الحجة ، ناظر  
المعتزلة وناظروه ، ونقلت له فى كتب الأدب مناظرات كثيرة متفرقة تدل على حضور بديهته .  
وقوة حججه (٢). وقد كان غزير العطاء فذكر له التجاشى صاحب الرجال تصانيف عديدة  
تهتم بأهم القضايا الكلامية منها :

١ - التوحيد.

٢ - الرد على ارسطا طاليس فى التوحيد.

٣ - الشيخ والغلام فى التوحيد.

وأخرى فى طرح الإمامة والنظرية الشرعية للإمامة ومنها :

١ - الوصية والرد على منكريها.

٢ - المجالس فى الإمامة.

٣ - الإمامة.

وكتب أخرى اهتمت بالردود على الاتجاهات المخالفة وكان

---

١ - ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٧.

٢ - جعفر السبحانى بحوث فى الملل والنحل : ٦ / ٥٧٨.

الغرض منها إيصال حقيقة المذهب إلى الآخر . وقد ذكر له الكليني في الكافي مناظرة مع شخص وذلك في حضرة الإمام الصادق عليه السلام تبين مدى إدراكه ، وحسن أسلوبه في ردع المخالفين وهذا نص كلام هشام ابن الحكم :

... فقال ( أى الإمام الصادق عليه السلام ) للشامى كَلِّمْ هذا الغلام يعنى هشام ابن الحكم ، فقال نعم ، فقال لهشام : يا غلام! سلنى فى إمامة هذا ، فغضب هشام حتى ارتعد ، ثم قال للشامى : يا هذا أربك أنظر لخلقه أم خلقه لأنفسهم ، فقال الشامى : بل ربي أنظر لخلقه ، قال : ففعل بنظره لهم ماذا؟ قال : أقام لهم حجة ودليلا كى لا يتشتتوا ويختلفوا ، يتألفهم ، وبيقم أودهم ، ويخبرهم بفرض ربهم ، قال : فمن هو؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال هشام فبعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الكتاب والسنة ، قال هشام : فهل نفعنا الكتاب والسنة فى رفع الاختلاف عنها؟ قال الشامى : نعم ، قال : فلم اختلافنا أنا وأنت وصرت إلينا من الشام فى مخالفتنا إياك ، قال فسكت الشامى ، فقال أبو عبد الله عليه السلام للشامى : مالك لا تتكلم؟ قال الشامى : إن قلت لم نختلف كذبت ، وإن قلت إن الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت ، لأنهما يحتملان الوجوه ، وإن قلت قد اختلفنا وكل واحد منا يدعى الحق فلم ينفعنا إذن الكتاب والسنة . إلا أن لى عليه هذه الحجة ، فقال أبو عبد الله عليه السلام سله تجده ملياً ، فقال الشامى : يا هذا من أنظر للخلق أربهم أو أنفسهم فقال هشام : ربهم أنظر لهم منهم لأنفسهم ، فقال الشامى : فهل أقام لهم من يجمع لهم



كلمتهم ويقيم أودهم ويخبرهم بحقهم من باطلهم؟ قال هشام : فى وقت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو الساعة؟ قال الشامى : فى وقت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والساعة من؟ فقال هشام : هذا القاعد التى تشد إليه الرحال ويخبرنا بأخبار السماء والأرض وإنه عن أب عن جد. قال الشامى : فكيف لى أن أعلم ذلك! فقال : سله عما بدا لك (١). وقد كان تاريخ التشيع مليئاً بعلماء الكلام الذين أبدعوا فى هذا المجال وذلك طيلة الصيرورة التاريخية التى عرفت بروز علم الكلام وعلى امتداد القرون الثلاثة له ، فبرز فى القرن الثانى بالإضافة إلى هشام بن الحكم ، زرارة بن اعين ... وفى القرن الثالث الفضل بن شاذان والحكم بن هشام بن الحكم وإبراهيم بن سليمان المازنى ... اما فى القرن الرابع فقد كان الحسين بن على بن الحسين بن موسى بن بابويه والحسن بن على بن أبى عقيل واسماعيل بن على بن اعاق (٢).

وهكذا كانت إنطلاقة التفكير العقلانى عند الشيعة الإمامية ابتداء من علم الكلام الذى وجدوا فيه مجالاً خصباً لبلورة أفكارهم ولم يكن بعد قد انفتحوا على الفلسفة فى حين كان الشيعة الإسماعيليون فى أوج عطائهم الفلسفى مع الفارابى وإخوان الصفا وحميد الكرماني وقد كانت قلعة الموت إحدى مراكز الفلسفة الإسماعيلية لكنها اندكت بالهجوم المغولى عليها . لكن الخصوصية المعرفية للفلسفة ، وهى المعرفة الدقيقة

---

١ - الكليني ، الكافي : ١ / ١٧٢.

٢ - للمزيد من المعلومات يراجع بحوث فى الملل والنحل ج ٦.

لأسرار الوجود من أجل السيطرة على العالم الموضوعى ومن ثم السيطرة على قوانينه من أجل تغييره ، جعلت الشيعة الإمامية تدخل معترك الفلسفة وقد دشنت هذا الانتقال المعرفى مع الخواجه نصير الدين الطوسى لينقل العقل الامامى من الجدل الكلامى إلى التأمل الفلسفى وكانت - الإمامية - بعد ذلك الوريث للفلسفة الإسماعيلية فطورتها بما يوافق خصوصية المذهب الاثنى عشرى.

فبعد القطيعة التى عاشتها الفلسفة بنوعيتها قبل بروز الإمامية الاثنا عشرية والتى تمثلت بالمشائية الأرسطية والعرفانية الافلوطينية جاء الشيعة الإماميون ليقوموا بتركيب نمط فلسفى جديد جمع الخططين الفلسفيين بالإضافة إلى مذاهب المتكلمين وقد عرفت تطورها الكلى مع الملا صدرا الشيرازى وكان التاريخ الفلسفى الإمامى مليئاً منذ انطلاق الشرارة الاولى بفلاسفة كبار منهم السهروردى ، وحيدر آملى ، والشيخ زين الدين الإحسانى ، وميرداماد ، وملا هادى السبزاوى بالإضافة إلى شيخ الطائفة الكبير الشيخ المفيد ، والعلامة الحلى ، والرازى. ولقد كانت المدرسة الفلسفية الإمامية مميزة عن مثيلتها فى الفكر الإسلامى بحيث أن أغلبها اكتسب طابع المحاكاة للفلسفات اليونانية القديمة وبالتحديد النمطين السابقى الذكر . مما لم يعطها استقلاليته المعرفية الكاملة. وقد بلغت الفلسفة الإمامية أوجها مع الملا صدرا الشيرازى بحيث صار الفارق الجوهرى بين الفلسفتين فارقاً يتحدد

بالموقف الانطولوجى الواضح من إشكاليته الوجودية واماهاية او حقيقة أصالة إحداهما (١).  
وكما كان علم الكلام هو للدفاع عن الإسلام وأصوله جاءت الفلسفة لتعطى المعنى الحقيقى للإسلام ، والطريق الأمثل للوصول إلى هذه الحقيقة المتعالية ، عن طريق التحقيق والتدقيق والتتبع ونفى التقليد والتحجر . إذ أن معرفة الله تعالى و علم المعاد وعلم طريق الآخرة ليس المراد بها الاعتقاد الذى تلقاه العامى او الفقيه ورائه وتلقنا . فإن المشغوف بالتقليد والجمود على الصورة لم يفتح له طريق الحقائق كما يفتح للكرام الإلهيين (٢).  
ولم تكن فقط الطريقة العرفانية هى الطريق الأمثل عند الملا صدرا للوصول ول إلى معرفة الحقيقة بل التدقيق النظرى اى تحقيق التكامل الذاتى للإنسان ما بين الجانب العرفانى فيه وكذلك الجانب العقلانى بحيث يحصل التوافق بين ما يمثل الجانب الحسى الروحى والمادى العقلى فإذا كان النص السابق مربوط بالالهيين او الروحانيين عن طريق المعرفة الروحانية العرفانية فإن استكمال النفس الإنسانية بمعرفة حقائق الموجودات على ماهاى عليها والحكم بوجودها تحقيقاً بالبراهين لا أخذاً بالظن او التقليد ، بقدر الوسع الإنسانى ، وإن شئت قلت نظم العالم نظماً عقلياً على حساب الطاقة البشرية (٣).

---

١ - ادريس هانى ، محنة التراث الآخر ص ٢٦١.

٢ - ملا صدرا ، الأسفار : ١ / ١١.

٣ - المصدر السابق : ١ / ٢٠.

وبهذا تكون الفلسفة الإمامية قد حققت قفزة نوعية على مستوى الإدراك الفلسفى بتطوير هذه الفلسفة وجمعها بين نمطين كان إلى زمن بعيد منفصلين وهما المعرفة بالذوق والمشاهدة او ما تعارف عليها بالمعرفة العرفانية هى استعمال الذوق الروحى فى الوصول الى الحقائق كما هو ملاحظ عند محيى الدين ابن عربى بحيث يكتفى إلى الذوق لا الاستدلال وأما الاستدلال العقلى كطريقة لتثبيت ما وصلت إليه الروح من معرفة فقد كان الملا صدرا المبدع الأكبر لهذه المدرسة وهذا ما غفل عنه المؤرخون ودارسوا العلوم الفلسفية الذين حسروا الفلسفة وانها تاريخها مع ابن رشد والذى لا يمثل إلا حالة متقدمة من الفلسفة المشائية التى لم تأتى بجديد للفلسفة باستثناء شروحات ارسطو طاليس ولم تكن شيئاً مميزاً عكس ما كان مع الفلسفة الإمامية .

وعلى كل حال فإن التاريخ العلمى للشيعة لم يقف عند حد اللغة والنحو وعلم الكلام والفلسفة بل تعداه إلى مختلف ضروب المعرفة فكانوا على طول التاريخ من المساهمين فى بناء الصرح المعرفى للثقافة الإسلامية وكانت دوافع الرغبة الدينية هى التى تدفع بالشيعة للدخول فى هذا المضمار من أجل ايضاح الوجه الحقيقى للإسلام لا يثنىهم عن ذلك ظلم الطغمة السياسية الحاكمة بل كان الهم المعرفى هو الدافع الاسمى لهم رغم تجاهل المؤرخ والذى هو فى أصله الناطق الرسمى باسم السلطان ، والذى ترك أثره فى بعض المتعاطين للتاريخ فحاولوا تهجير البعد العلمى والمعرفى للشيعة وحصره فى حركة

سياسية ذات بعد سلطوى ، لكن الحقائق التاريخية استطاعت أن تهدم كل ما حاول السلطان بناءه واستطاع المذهب الشيعى عبر خوضه لجميع المعارف الإسلامية أن يحافظ على استمراريته ، والتي لم تكن تلك الاستمرارية المتجمدة والتي حجرت حركتها الفقهية ووقفتها فى القرن الثالث الهجرى أو معارفها الفلسفية بربطها بنهاية لا معرفية مع ابن رشد ، بحيث ركب فى ذهن البعض انتهاء الفلسفة مع نهاية ابن رشد.

فى حين فى الطرف المقابل لا زالت الحركة الاجتهادية الفقهية مسترسلة عبر نظام المرجعية رغم غيبة الإمام الثانى عشر تساير من خلالها التطورات التى يعرفها العصر كما أن الإبداع الفلسفى لا زال يعرف طريقه داخل المجامع العلمية الشيعية والحوارات وخير مثال على هذا الإبداع هو الظهور فى الآونة الأخيرة لما يسمى علم الكلام الجديد للإجابة على الإشكالات الجديدة التى طرحها العصر الحاضر ويرى الإسلام ضرورة الإجابة عنها . ويكون بذلك التاريخ الثقافى والعلمى للتشيع هو تاريخ مسايرة الأحداث والوقائع ، ومسايرة تطور الزمن الذى يفرض فى كل لحظة اشكالات جديدة تجعل الإسلام فى إجابته عليها يعبر عن صلاحيته لجميع الأزمنة وأ نه غير مرتبط بفترة زمنية محددة . قاضياً بذلك على التحجّر الفقهى الذى أنشأه التاريخ السلطانى.

## الفصل السادس

### النظام السياسى

#### نظرية الولاية فى الفكر السياسى الاسلامى

إن الإنطلاقة الفعلية للفكر الإسلامى  
باعتباره الأرضية التى تتفاعل حوله  
الرسالة، التى سببت بدء البناء المنهجى  
لأحكامه وذلك بـتحديد الإطار  
المـرجـعـى الذى يمكن أن يعطى نقطة  
البدء ويحدد المفهوم الحقيقى لها  
المؤلف

## الفكر السياسي الاوروبي

لقد عاش الإنسان منذ وجوده على سطح الأرض إشكالية الصراع بين الأفراد خصوصاً خلال مرحلة غياب السلطة السياسية . فكان الهدف بالنسبة له هو الوصول إلى طريقة يستطيع من خلالها خلق نظام سياسى يمكن المجتمع البشرى من الاستقرار . وفى ظل هذا عاش المجتمع الأوربي هذه الإشكالية وعاش فى كل لحظة مرارة التحول من نظام كانت السلطة مطلقة إلى نظام برزت فيه الحريات وقد توالت على أوروبا أنظمة سياسية متعددة ومتنوعة حيث ميّزت كل مرحلة طبيعة الثقافة السائدة والتي أثرت بخصوصيتها على النظام السياسى المقتبس ، إذ عرفت أوروبا خلال المراحل السابقة أساليب متنوعة لممارسة السلطة والعلاقة بين الشعب والحاكم.

لقد كان نظام القانون الإلهي من أشهر الأنظمة السياسية التي ألفت بظلالها على أوروبا ، وظلت مدة طويلة وهي متسلطة على الشعب الاوروبي حتى انطلقت الثورة الفرنسية ؛ والتي أثرت على كل أوروبا ، وقد كانت مرتبطة بالأفكار التحريرية والتي برزت مع فولتير وجان جاك روسو أو بدأت تتردد بين الأوساط السياسية آنذاك رداً على سيطرة الكنيسة.

ص: ١٩١

إن نظرية الحق الإلهي هي نظرية الحكم المطلق والمرتبطة بالشرعية الدينية ، إذ التقت الكنيسة ممثلة في شخص الرهبان والنظام السياسي الحاكم الممثل في القياصرة والملوك ، وخلال تلك المرحلة عاشت أوروبا أسوأ أيامها ، حيث كان الحاكم يعتبر الحاكم المطلق ، والنائب عن الله . وكانت الكنيسة تسانده . فكانت حرية التصرف المطلق للحاكم . واستدرج الشعب إلى استعباد غير معلن ، وكذلك ادخل في سذاجة تستخف بالعقول البشرية ، وقد كانت صكوك الغفران إحدى نماذج هذا الاستخفاف والاستهجان بالشعب ، فتوفرت بذلك للنظام الحاكم الشرعية الدينية والتي أصبغوه بها الرهبان باعتبار الحاكم هو خليفة الله في الأرض ، فتوفرت له بذلك السلطة المطلقة والاستعباد التام للشعب فأفرغ هذا الأخير من مضمون وجوده المتمثل في تحقيق المعنى الذاتي له . وانتفت الغاية من وجود نظام سياسي على هذا المثل والذي اتحدت فيه القوة الدينية المتخلفة والممثلة بالرهبان والكنيسة ونظام الحكم القائم ، فقامت على أثر هذه الأوضاع المزريّة التي كانت تعيشها أوروبا آنذاك حركات إصلاحية عرفت بحركة الإصلاح الديني وقد كان مارتن لوتر أحد متزعمي هذه الحركة الإصلاحية وبداية ظهور البذور الأولى للكنيسة البروتستانتية . وبعدها تزايدت الثورات ضد الكنيسة ومفاهيمها فبعد مارتن لوتر . ظهر يوحنا كلفان والذي أعطى ظهور الكنيسة الكلفانية وبعدها الكنيسة الانجلكانية في بريطانيا.

إن هذه الثورات لم تقتصر فقط على جانب الإصلاح الديني بحيث



لم يكن وحده كافياً لأحداث ثورة سياسية في المنطقة بل برزت الحركات الإصلاحية الفكرية والتي أعطت الانبعاث لأوروبا.

لقد أعطى ذلك الاستبداد المطلق للسلطة في غياب الممارسة الفعلية للشعب لتحديد مصيره وترك الصلاحيات بيد الكنيسة إلى ظهور نظرية العقد الاجتماعي ، وكان أول من طرح هذه النظرية هو هوبز.

ونظرية التعاقد في مضمونها هو الاتفاق بين كل مكونات المجتمع ، والتعاقد على المصير السياسي لهم في انتخاب الحاكم أي الوصول إلى سلطة سياسية تخرج المجتمع من حالات الفوضى التي يعيش فيها وكذلك من حالات الاستبداد السياسي المطلق.

إن هوبز يرى أن العقد الذي يتم بين أفراد الجماعة ، لا يدخل فيه الفرد الذي اختاروه رئيساً لهم ، ونصبوه ملكاً عليهم فالتعاقد تم بين جميع أفراد الجماعة باستثناء فرد واحد هو الرئيس الذي وقع عليه الاختيار. ويقول هوبز : أن الأفراد تنازلوا لرئيسهم عن كل حقوقهم ، فله أن يتصرف فيها بلا قيد أو شرط ، ونظراً لأنه ليس طرفاً في العقد فسلطته مطلقة ولا يعتبر مسؤولاً أمام الأفراد ، بل يجب أن تقابل تصرفاته بالخضوع والطاعة (١).

إن الخلاصة العامة لفكر هوبز هي الانصياع المطلق لفرد واحد الذي

---

١ - توفيق السيف ، ضد الاستبداد الفقه السياسي الشيعي في عصر الغيبة ص ٢٠٢ ، ط ١ ، ١٩٩٩ ، المركز الثقافي العربي.

هو نتيجة التعاقد بين أفراد المجتمع وتسليم الرقاب وكل السلطات له ، والهدف منه هو الحفاظ على سلامة الناس عن طريق ضابط رادع.

وهوبز فى الحقيقة لم يخرج أوربا من خلال ن ظريته من الاستبداد - باستثناء التعاقد الذى طرحه - ولكن ظلت السلطة مطلقة فى يد شخص واحد مما يفتح ذلك باباً جديداً من الاستبداد الذى تغيب فيه سلطة الكنيسة إلى استبداد تظهر فيه سلطة الفرد.

إن هذا الطابع الاستبدادى لنظرية هوبز جعلها تكون محل نقد ، لأنه أخضع الرعايا إخضاعاً مطلقاً لإرادة الحاكم ، ولم يترك لهم أى حق تجاهه (١). باستثناء التعاقد الذى تم التوافق عليه كحل أمثل لخروج المجتمع من دوامة الاستبداد الذى يعيش فيه.

وكان لجون لوك رأى آخر وهو إحداث سلطة مقيدة . فبعدما أعطى هوبز كل السلطات لشخص واحد من دون مراقبة الشعب له بحيث له حق التصرف ، جاء جان لوك ليجعل هذه السلطة عبارة عن وديعة فى يد الحاكم سلمه إياه الشعب ، وله الحق فى سحبها منه متى ما تعارضت مصالح الشعب مع مصالح الحاكم وتقوم نظرية لوك فى العقد الاجتماعى ، على أن الأفراد لم يتنازلوا فى هذا العقد عن جميع حقوقهم ، وإنما عن جزء منها وتمسكوا بالآخر . ويعتبر لوك الحاكم

---

١ - روبرت ماكيفر ، تكوين الدولة ، ترجمة حسن صعب ص ٣٤ دار العلم للملايين ، بيروت

جزءاً من العقد ، فإذا أخل بشروطه جاز للأفراد فسخ العقد وعزل الحاكم وقد ارتكزت الثورة الأمريكية على نظرية لوك فى العقد الاجتماعى (١).

إذن تكون نظرية لوك التخفيف من تسلط الفرد لكن سمحت له بصلاحيات ناتجة عن تنازل المجتمع عن بعض حقوقه لصالح فرد معين . لكن ثورة العقد الاجتماعى وشهرته عرفت خصوصاً مع الفرنسى جان جاك روسو حتى ظن البعض أنه مبدع هذه الفكرة ، علماً أن صاحبها هو هوبز ، لكن الحرية المطلقة التى منحها روسو للأشخاص فى مقابل الفرد الحاكم جعلت هذه النظرية منسوبة له كما أن كتابه العقد الاجتماعى أخذ شهرة عجيبة فى المجال السياسى.

يرى روسو أنه لا يوجد مبرر لخضوع الكائن البشرى لغيره ، كما أن التعاقد هو حركة إرادية حرة بين الأفراد ودون ضغط خارجى ، وأما السلطة الشرعية للمجتمع فتتحقق عن طريق اتفاق يقوم على التراضى المتبادل بين أفراد المجتمع ، وأن المجتمع بارتباطه بالعقد يمثل مصادر السلطة العليا وأن الفرد محكوم بالسلطة الجماعية وخاضع لمبدأ العقد المبرم الذى هو نتاج التفاعل الجماعى لانتاجه ، بحيث يصير هذا العقد ملزماً كل فرد بالتنازل عن حقوقه لصالح غيره (٢). لكن رغم هذه

---

١ - توفيق السيف : ضد الاستبداد الفقه السياسى الشيعى فى عصر الغيبة ص ٢٠٣.

٢ - انظر العقد الاجتماعى لجان جاك روسو ، ترجمة دوقان فرقوط.

المحاولة الجادة لإخراج المجتمع من فوضى سلطة الاستبداد فإن جان جاك روسو تنبه إلى أمر مهم هو حقيقة هذا التعاقد الجماعي الذي يضمن حقوق الكل ، إذ أن الأمر لا يعدوا أن يكون نوعاً من الاستبداد الجماعي أو استبداد الأغلبية إذ لا يمكن أن ي تحقق توافق جماعي مائة بالمائة. وبالتالي تصير حالة فئة معينة خاضعة لإرادة الآخرين . لكن السؤال الجوهرى هل فعلا استطاع الفكر الحديث أن يجيب على إشكالية السلطة بحيث تتحقق العدالة المطلقة؟ وهل البشر قادر على الوصول إليها؟

قد يخيّل للبعض أن الأنظمة الديمقراطية ال حالية قد حلت هذا المشكل لكن فى واقع الأمر ماهى إلا محاولات لتخفيف حدة الظلم السياسى السابق لكن نظام الدولة المقتبس نفسه لم يستجب لهذا المبتغى وقد كانت النظرية الماركسية أكبر صيحة فى فشل نظام الدولة الحالية فى تسيير أمور الشعب ومعبّر أقوى عن استمرارية الظلم البشرى. بحيث ترى أن الخلاص الكلى للفرد من التسلط ، هو انتفاء جهاز الدولة والعودة إلى المرحلة المشاعية مروراً بالمرحلة الاشتراكية التى يشارك فيها عموم الشعب فى تسيير دواليب الحكم. إن هذه الاهتزازات الفكرية فى الفكر السياسى الاوربى تعبر بشكل واضح عن قصور الف رد عن الاستيعاب الكلى لطبائع البشر وإذ أن إرادتهم تبقى فى يد بشر من نفس الجنس له نفس الخصائص وهو محاط بالقصور فى الفهم الكلى لطبائعهم واحتياجاتهم. وحتى لو أخذنا

ص: ١٩٤

الأنظمة السياسية الديمقراطية الحالية أترى هل حققت فعلا طلب الشعب؟  
لنفترض انتخابات وقعت في بلد معين وفي هذا البلد ثلاث مرشحين على أقل تقدير . وغالباً ما تكون النتائج على النحو التالي : المرشح الأول ٤٠٪ والمرشح الثاني ٣٥٪ و المرشح الثالث ٢٥٪ وبهذا يصير الحق لصالح ٤٠٪ على حق ٦٠٪ ، وبهذا تقع السلطة بيد الأقلية لا تحكم الأغلبية . إذن هل حققت الغاية من سيادة الرأي العام وحتى لو كان المرشح الأول ٥٥٪ والثاني ٤٥٪ (١) فتكون النتيجة اهمال ٤٥٪ من أصوات الشعب باعتبارهم الخاسرين ، وبهذا يضيع حقهم او يجب عليهم التنازل عن حقهم وهذا من المستحيلات ، وقد حاول الفكر الغربى تجاوزها بإعطائها الشرعية الجماعية او ما اصطلحوا عليها بإرادة الجموع بصورة مجازية (٢) ، لكن فى حقيقة الأمر تعبر عن الضعف البشرى فى إيجاد الحل الأمثل لتسيير المجتمع البشرى

١ - معلوم أنه فى الدور الثانى للإنتخابات حيث يتبارى مرشحين فقط تتدخل المصالح السياسية والذاتية بين المرشحين كما تكون للتحالفات بين الأحزاب الدور الأساسى فى تعيين الحاكم وتغيب إرادة الشعب ، مما يجعل النسبة التى أردجناها لها واقعية أى؟؟؟  
المخالفة ونضيف إليها الممتنعين عن التصويت مما يفقد هذا النوع من التحاكم شعبيته وبالتالى تغيب الغاية الأصلية من وجوده وهو التعاقد المجتمعى .

٢ - ثروت بدوى : النظم السياسى ص ٣١ دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٢.

ص:١٩٧

والاستجابة لمتطلبات كل الأفراد. ولا زالت أوروبا تعيش هذه الاشكالية إلى يومنا هذا رغم ما وصلت إليه من حرية وديمقراطية.

إذن ماهو الحل الحقيقي الذى يمثل كل أفراد المجتمع؟ وهل استطاع الفكر الإسلامى الإجابة على هذا الإشكال؟

ص:١٩٨

الفكر السياسى الإسلامى والآخر

إن استمرار أى نظام سياسى مرتبط بطبيعة الأرضية السياسية أو طبيعة الفكرة التى تعطى الديمومة والحركة له ، وقد تختلف مناهج بقاء الأنظمة وقيامها ووسائل استمرارها ، فبعد الإطلالة التى قمنا بها على المدارس السياسية فى أوروبا والتى توصلت فى الأخير إلى وضع الأمر فى يد أفراد المجتمع ، حيث يستطيعون عبر تعاقد جماعى من تحديد طبيعة النظام القائم ، تقوم بإطلالة على الوضع السياسى الإسلامى.

وأما على صعيد مدرسة الفقه السياسى الإسلامى ، فإن مسألة الدولة وتداول السلطة عرفت اختلافاً كبيراً وذلك ناتج عن اختلاف الفرق الإسلامية ووجهة نظرها لهذه المسألة السياسية الحساسة ، ولقد عبر الشهرستانى على كون الحكم فى الإسلام من أكثر المسائل التى استلت فيها السيوف وأريق فيها الدماء ، والتاريخ الإسلامى خير معبر على ذاك التناحر الحاصل منذ ذلك الوقت ، فمنذ وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وإلى يومنا هذا اختلفت المدارس الفكرية الكلامية حول نظام الحكم فى الإسلام.

لكن رغم كثرة آراء الطوائف الكلامية فى هذا المجال ، فإن الأمر انحصر فى مدرستين ، وذلك بعد انقراض مدرسة الخوارج والتى

ص: ١٩٩

اتخذت من شعار الحاكمية لله أساساً لنظريتها ، وجعلت الخروج على الملك الجائر إحدى الطرق للوصول إلى هذا المطلب . لكن الشعار الذي رفعه الخوارج يبقى في مضمونه شعاراً فضفاضاً لا يحتوى على قاعدة أساسية وأصول تشريعية تضمن له الاستمرار . إذ يبقى السؤال الجوهرى إذا كانت الحاكمية لله فبأى طريقة تتم هذه الحاكمية؟ إذ تغيب الآليات التى تجعل منه حقيقة واقعية . لأن الأرضية العملية مفقودة إذا لم نقل متعدمة لأنه لا بد من شخص قادر على أن يستوعب طبائع البشر وخصائصهم وحاجاتهم ومتطلباتهم حتى يتمكن من تحقيق هذه الحاكمية الإلهية المطلقة . فكان مآل مدرسة الخوارج كمدرسة سياسية : الانقراض باستثناء بعض البقع الصغيرة التى لا زالت فى العالم وخصوصاً فى سلطنة عمان والتى تحاول فكراً أن تندمج مع العالم السنى ، بتخليها عن مجموعة من المقومات الفكرية التى قام عليها الخوارج ، وخصوصاً فكرة الخروج على الإمام الجائر . ويقول أبو الحسن الأشعرى فى هذا الباب : والأباضية لا ترى اعتراض الناس بالسيف ، لكنهم يرون إزالة أئمة الجور ومنعهم من أن يكونوا أئمة بأى شئ قدروا عليه بالسيف أو بغيره (١).

كان هذا هو الموقف الاول لكن التاريخ غيّر من موقفهم السياسى ، فأصبحوا وجهاً ثانياً للمدرسة السنية حيث يقول يحيى معمر : إن

---

١ - مقالة الإسلاميين ، الأشعرى ص ١٨٩.



الإباضية يرون أنه لابد للأمة المسلمة من اقامة دولة ونصب حاكم يتولى تصريف شؤونها ، فإذا ابتليت الأمة بأن كان حاكمها ظالماً ، فإن الإباضية لا يرون وجوب الخروج عليه لا سيما إذا خيف أن يؤدي ذلك إلى فتنه وفساد (١).

وقد علّق العلامة جعفر السبحاني عن هذا الرأي بقوله : وأظن أن ما كتبه يحيى معمر في هذا الكتاب وفي كتاب « الإباضية في موكب التاريخ هو دعايات وشعارات من أجل التقريب بين الإباضية وسائر الفرق ولا سيما أهل السنة (٢). هكذا أثر التاريخ على نظرية الخوارج التي كما قلنا سابقاً تفتقر إلى رؤية واضحة للإطار السياسي الذي تتحرك فيه ، مما جعلها سريعة الانحلال وبالتالي الاضمحلال.

لكن المدرستين واللذان بقيتا قائمتين إلى يومنا هـ ذا هما مدرسة الخلفاء ، والتي تعتمد في بنائها النظرى للنظام السياسى على مبدأ الشورى ومدرسة أهل البيت والتي جعلت من الإمامة هي القاعدة الأساسية للنظام السياسى لها. الشورى .. الدلالة والحقيقة

تعتبر الشورى القاعدة الأساسية للنظام السياسى السنى ، وهى المنهج الم تبع فى تحديد الحاكم إذ ترى المدرسة السنية أن الرسول بعد

---

١ - انظر : جعفر سبحانى : بحوث فى الملل والنحل : ٥ / ٢٦٤.

٢ - المصدر السابق ص ٢٦٥.

وفاته ترك الأمر لصالح الشعب وله الحق في أن يختار حاكمه وقد استندوا في ذلك إلى مجموعة آيات رأوا أن فيها دلالة على مبدأ التشاور.

قوله تعالى : ( فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ) [ آل عمران : ١٥٩ ].

وقوله تعالى : ( فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ... ) [ البقرة : ٢٣٣ ].

وقوله تعالى : ( وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ) [ الشورى : ٤٨ ].

ونقف أولاً عند المعنى اللغوي لمصطلح التشاور : يقول الراغب : والتشاور والمشاورة والمشورة.

استخراج الرأى بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم : شرت العسل إذا أخذته من موضعه واستخرجته منه (١).

إذن المسألة تدل على مفهوم مرتبط بعمل جماعى فى التشاور حول أمر معين ، لكن السؤال الجوهرى هل فيه دلالة كافية للتأصيل لفكرة تداول سلطة؟ إن النظر إلى الآيات الثلاث ، يجعلنا نخرج الآية الأولى من سياق التشاور المرتبط بالنظام السياسى لكون الآية واضحة المعنى

---

١ - السيد الطباطبائى ، تفسير الميزان : ١٨ / ٦٣ ، ٦٤.

فى كون التشاور هنا علاقة بين المرء وزوجته فتحدد مفهوم الآيه وحصرها فى حالة أسرية  
إثر خلاف زوجى . يبقى إذن لدينا الآيتين الثانية والثالثة وإن النظر إلى الآيتين يتم من  
وجهين الدلالة المعنوية الناتجة عن تفسير الآيتين والدلالة الناتجة عن الأحداث والوقائع  
التاريخية.

الدلالة الناتجة عن تفسير الآيتين

إن التفسير الجزئى لا يستطيع أن يحوى المعنى العام والدلالة الكلية لمفهوم الآيات الواقعة  
فى سياق معين ، بحيث لا يتم الفصل بين آيتين يتحدثان عن نفس المسألة لأنها تكون ناقصة  
المعنى إذا كانت منفردة كما أنه يجب حملها إلى وقائع قرآنية أخرى حتى نستطيع استنباط  
المعنى العام للمضمون الذى تحاول الآيات طرحه ، وهذا ينطبق على الآيات التى بين أيدينا.  
إن اللفظ الأول يربط بمشورة النبى بأصحابه . وبالتالى التشاور هو حالة تقوم بين النبى  
باعتباره ولى المسلمين فى وقته وبين عامة المسلمين ، اما اللفظ الثانى فهى الحالة العامة  
المرتبطة بالمجتمع والملزوم بحالات التشاور بين الناس ، لكن هل التشاور هذا هو انفراد  
المجتمع وأعضائه دون القائد والموجه ؟ . إن الربط بين الآيتين يعطينا مصطلحين يتطلبان  
مفتاح حتى يتم تفاعلهما.

١ - الشورى.

٢ - المتشاورين.

ص: ٢٠٣

إن الشورى كمنهج والمتشاورين كفاعلين لهذا المنهج لا يمكن أن يحصل بينهما تفاعل تلقائي بحيث يتمكنوا من ممارسة هذا الفعل بطريقة مباشرة ، لأن قدرة الإدراك الفعلى والعاملى تبقى قاصرة وتحتاج إلى موجه ، وفى نفس الوقت مهيج لهذا التفاعل . لأن موضوع التشاور هو حول قضية أو حادثة واقعة فى دائرة الشرع الإسلامى ، إذن لزم من شخص ملم بكليات الشريعة بحيث تكون حركة المشاورة قائمة بتوجيه من هذه الشخصية وهنا يرد قوله تعالى : ( وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ) إذن حلقة التشاور قائمة فى دائرة النبوة ويضيف لها قوله تعالى : ( وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ ) وينضاف إلى هذه الحلقة عنصر آخر هم أولى الأمر.

إن تحقق مبدأ الشورى لا يتم بحالة انفرادية لأفراد المجتمع لاعتبارات القصور عن فهم كليات الشريعة ، لذا يلزم حضور الفاعل الدينى لتحريك هذه العملية حتى تسير فى الطريق السليم والصحيح . وهذه الشخصية هى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأولى الأمر الذين أكسبوا الدراية الكاملة لعلوم الشريعة والدين.

وتبقى إشارة أخيرة وهى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يلتزم بالشورى بل كان يرغب صلى الله عليه وآله وسلم فى إشراك بعض أفراد المجتمع للإحساس بالمسؤولية فى بنائه ، مع العلم أن أغلب المشاورات تمت فى الحروب . ودليل عدم الإلزام قوله تعالى : ( فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ) وهى دلالة على العزم الفردى على أمر معين وجب اتخاذهُ دون العدول عنه وهذا ما

حدث في معركة أحد حيث كان الأمر النهائي للرسول وذلك بعد تجهزه للحرب . كما أن الشورى قد تكون مرتبطة بمسائل بسيطة لا تشمل موارد الحدود الشرعية ولواحقها ، و ( وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ) لا تنخ لو عن الإشعار بأن هذين الأمرين إنما هما في ظرف الولاية وتدير الأمور العامة مما يجرى فيه المشاورة معهم (١).

الشورى والدلالة الناتجة عن الأحداث والوقائع إن أغرب شيء في تاريخ هذا المصطلح هو المطاطية التي اكتسبها بحيث لم يدل على دلالة واحدة ومعينة فأصبح عرضة للتغيرات الزمانية والمكانية . وهذا ناتج عن غياب مفهوم إسلامي حقيقى لهذا المصطلح ، وكما أبرزنا سابقاً أن أرضية علمية خاصة به مغيبة عن الواقع العملى . وضعف هذا الاصطلاح يبدأ من أول وهلة ، ومباشرة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ كانت الشورى هي الاتفاق الثلاثى الذى وقع فى السقيفة والزام الناس بالبيعة ، والتي وقع فيها الهرج والمرج سواء داخل السقيفة أو فى الخارج حيث البيت الهاشمى ، فكانت هذه البيعة فلتة كما سماها عمر بن الخطاب وقى الله المسلمون شرها ، وهذا دليل على جسامه هذا الأمر المرتكب وإلا ما سماه عمر فلتة ولم يقل من عاد إليها فاقتلوه ، وقد تكاثر اللغط فى السقيفة ، وهذا دليل يزيد من كون هذا المفهوم - أى الشورى - لم يكن وارد كفكرة وكمنهج لتحديد الحاكم.

---

١ - السيد الطباطبائي ، الميزان : ٤ / ٥٦.

فترى سعد بن عبادَةَ يقول مخاطباً الجمع : « فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم معشر المهاجرين رهطاً ، وقد دفت دافّة من قومكم ، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ، وأن يخصوصونا من الأمر » (١) وهذا دليل على الرفض الأنصارى وخصوصاً التيار الخزرجى لتولى أحد الثلاثة الخلافة ، لكن فى الأخير و باستغلال الانقسام الموجود بين الانصار إذ لما رأت قبيلة الأوس ما صنعه بشير بن سعد ، وعلمهم برغبة الخزرج من تأمير سعد بن عبادَةَ ، قال زعيمهم أسيد بن حضير لئن وليتموها سعدا عليكم ، لا زالت لهم بذلك عليكم الفضيلة ، ولا جعلوا لكم نصيباً فيها أبداً ، فقوموا فبايعوا أبا بكر ، فقاموا إليه فبايعوه ، وهكذا بايع كل من حضر السقيفة من الأوس والخزرج باستثناء الحباب بن المنذر وسعد بن عبادَةَ (٢).

إذن الواقعة التاريخية تنفى حصول الإجماع ، علماً أن إحدى مقومات الشورى هو الإجماع وخصوصاً أن من بين المعارضين لهذه البيعة من خيرة أصحابه وعلى رأسهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام.

ومن الأمور التى ينبغى الوقوف عندها هى محاولة أهل العامة إعطاء الشرعية الدينية لهذه البيعة بقياسها على حادثة الصلاة ، لكن ما حقيقة

---

١ - صحيح البخارى كتاب المحاربين من أهل الكفر : ٨ / ٥٤١.

٢ - المصدر السابق : ٨ / ٥٤٢ وابن قتيبة : ١ / ٢٧.

هذه الصلاة حتى لو ثبتت تاريخياً ، فإن من غرائب الأمور أن التشريع يعتمد عندهم على الكتاب والسنة والإجماع ثم القياس لكن هشاشة الامر في هذه الحادثة هو حصول القياس وذلك بقياس الإمامة العامة على إمامة الصلاة ثم لجؤوا بعد ذلك إلى الإجماع مما يفقد هذه المسألة شرعيتها.

وإذا تمت الشورى لأبي بكر بهذا الشكل فبأى حق تم تعيين عمر من طرف أبي بكر إذ يروى الطبرى فى تاريخه :

« لما نزل بأبي بكر المرض ، دعا عثمان بن عفان وقال له اكتب بسم الله الرحمن هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد - فأغمر عليه - فكتب عثمان تكملة لما ذكره أبو بكر أما بعد فإنى أستخلف عليكم عمر بن الخطاب ولم ألكم خيراً ثم أفاق أبو بكر ، وقرأ ما كتبه عثمان فقال : أراك خفت أن يختلف الناس إن اسلمت نفسى فى غشيتى قال : نعم ، قال أبو بكر : جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع » (١).

إذن هكذا كانت الشورى الثانية حيث اختفت فيها كل مقومات التشاور بل هى استبداد فى الرأى وإجبار لعموم المسلمين بأمر أقره الخليفة فى حياته آنذاك.

---

١ - لاحظ كيف خشى أبو بكر من اختلاف الناس بعد وفاته فى حين أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يتنبه لهذا الامر!

والهشاشة التي تعرفها الشورى تظهر فترة بعد فترة فيها هو عمر بن الخطاب يصرح ضارباً  
بعرض المبدأ الذي بنت عليه المدرسة السنية أفكارها حيث يقول : « لو أدركت أبا عبيدة  
باقيا استخلفته ووليته ، ولو أدركت معاذ بن جبل استخلفته ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته ،  
ولو أدركت سالما مولى حذيفة وليته » (١). وفي هذا ضرب لمبدأ القرشية التي استدلو بها  
فى السقيفة. ثم ابتكر عمر منهجاً جديداً وغريباً من نوعه فى تحديد الخليفة لا يمت بصله  
الى المبدأ الذى الزموا به أنفسهم فهذه وصيته قبل وفاته إلى أبى طلحة الأنصارى « أنظر يا  
أبا طلحة ، إذا عدتم من حفرتى فكن فى خمسين رجلا من الأنصار حاملى سيوفكم فخذ  
هؤلاء نفر يا مضاء الامر وتعجيله ، واجمعهم فى بيت وقف بأصحابك على باب البيت  
ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم ، فإن اتفق خمسة وأبى واحد فاضرب عنقه وان اتفق أربعة  
وأبى اثنان فاضرب أعناقهما ، وإن اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة فانظر الثلاثة التى فيها عبد  
الرحمن فارجع إلى ماقد اتفقت عليه ، فان اصرت الثلاثة الأخرى على خلافها فاضرب  
أعناقها وإن مضت ثلاثة أ يام ولم يتفقوا على أمر فاضرب أعناق الستة ودع المسلمين  
يختاروا لأنفسهم » (٢). إلى هذا تمحورت الشورى من طريقة قيل أنها تحتاج إلى

---

١ - تاريخ الطبرى : ٢ / ٥٨٠.

٢ - ابن ابى الحديد ، شرح نهج البلاغة : ١ / ٩٢.



اجتماع الأمة على أمر معين وخصوصاً أنها مسألة الخلافة إلى حالة نخبوية يصبح فيها السيف وسيلة لإقناع الناس ، إذن على رأى أهل العامة أى شورى نأخذ بها ، الشورى الاولى التى كانت فى السقيفة ، أم شورى التعيين الثانية ، أم شورى السيف الثالثة إن القرائن التاريخية تثبت بكل جلاء على أن الشورى لم تكن الاً ستاراً تختفى به الأطماع السلطوية أو هى حالات تبريرية لعملية الاغتصاب التاريخى لحق آل البيت المشروع.

لكن يا ليت شعرى أن الامر توقف عند هذا ، من تداول السلطة ، بل يطل علينا الماوردى بكتابه الأحكام السلطانية والولايات الدينية كأحد نماذج التقنين السى اسى لانتقال السلطة وفى تشريعه لم يعتمد فقط على أعمال أيام الخلافة الاولى بل تعداه ليشرعن تداول السلطة من أعمال حكام بنى أمية وبنى العباس مما يطرح عملية استفهام كبيرة حول مفهوم الشورى التى اختلقها أهل العامة. فإذا كانت البيعة لا تقوم إلا إذا قامت على أسس شرعية. فأين هذه الأسس الشرعية ، علماً أنها لم تكن حاصلة إلا بالإكراه أو الإجبار أو المباغته وعدم الرؤية ، ونعلم أنها لا تكون لازمة إلا إذا كان لها رصيدها الإلهى وحجيتها . إذن فأين حجية بيعة القوم (١).

إذن يتضح لنا من خلال الدراسة الموضوعية للنصوص القرآنية

---

١ - الإمامة والحكومة فى الإسلام ، محمد حسين الأنصارى ص ٥٤.

وكذلك التطور التاريخي أن نقول بأنّ هذا المبدأ هو من اجترار الكلام الذي يحاول من خلاله تغطية الفضيحة التاريخية الكبرى التي ارتكبت ، والتي تألف فيها كل المعاندين والحاوئين على آل بيت محمد عليهم السلام ، وكان أولهم السلطان لهضم حقهم المغتصب ، وإظهارهم بمظهر الإنسان العادي الذي تسرى عليه القوانين المختلفة حتى يستتب الأمر لنظام حرم الناس من اللطف الإلهي المخصص لهم ألا وهو الامامة.

ص: ٢١٠

الإمامة ... المجتمع والحقيقة

لا يستطيع أى مجتمع أن يسير دون قيادة روحية وسياسية ، بحيث تضمن له الاستقرار ، ولهذه الغاية ظل الإنسان منذ الأيام الأولى للحياة فى البحث عن السبل لإيجاد الحل لهذا المشكل.

وقد لاحظنا كيف تطور مفهوم السلطة فى أوروبا من القانون الإلهى الذى جعل الحكم بيد الحاكم الذى يعتبر نفسه الممثل المباشر للإله وما الرعية إلا عبيد له ، إلى نظرية العقد الاجتماعى والتي عرفت أوجها مع جان جاك روسو ، لكن بقى السؤال الجوهرى هل حققت الإرادة العامة لأفراد المجتمع؟

إن المسألة لا تعدو أن تكون اجتهدات بشرية لإخراج المجتمع من مشاكله ومن سيادة النزعة الفردية ، لأن الحياة الجماعية تلزم حصول على حد أدنى من التفاهم ، إذ لا يكون بمقدور الإنسان الذى يعيش فى إطار حياة جماعية ويتفاعل مع جوانبها المختلفة ، على مستوى بذل الجهود والمشاركة فى القرارات ، أن يبقى بعد ذلك حراً طليقاً. إذن تبقى هذه المبررات هى التى ألزمت الناس أن يصلوا إلى هذا المبدأ ، لكن ماهى قدرة الإنسان على انتخاب الأفضل؟

ص: ٢١١

إن المركب البشرى للمجتمع يتكون من شرائح مختلفة ، تختلف قدراتهم ، فمثلا الأطفال والقاصرون محتاجون للرعاية الأبوية ، فكانت سنة الله تعالى أن جعلهم تحت رعايتهم - الآلب - باعتبارهم القادرين على تفهم مشاكلهم لمعايشتهم ، وإطلاعهم على الجوانب المختلفة من حياتهم ، مما يسهل مأمورية تجسيد احتياجاتهم ، وهذا تقريباً كله مرتبط بالأمور التربوية ، أما داخل المجتمع ، فرغم ما يمكن أن يرتقى إليه الفرد فى مداركه ، فإنه لا يمكنه أن يستجيب لكل جوانبه الحياتية ، والاعتماد على إدراكه وشعوره الخاصين ، فلا يكون بمقدوره أن يحقق أهدافه بقدراته الخاصة.

وقد تتسلسل حلقات الاحتياجات الفردية باعتماد الفرد الأول على الثانى والثانى على الثالث ، وهكذا تستمر السلسلة ، ولاعتبار التشابه البشرى فى الخصائص فإنه لا يمكن أن تحصل على شخص مميز من بينهم بحيث يستطيع أن يفهم كل متطلباتهم ، ومنه يكون المنهج الاختيارى الذى طرحته المدارس السياسية هو إحدى أسباب فشل القيادات داخل المجتمع مما أجبر المجتمع الغربى إلى طرح نظرية ( رجل ما فوق ) (١) وهذا لإيمانهم العميق بكون الناس فى حياتهم يحتاجون إلى شخص جامع لكل الخصائص والقدرات ؛ تجعله يتصدى لكل ما يخص المجتمع ، لأن المجتمع يحوى بعض المرافق والمنافع

التي لا ترتبط بشخص أو مركز أو جهة معينة ، وليس لها من يتصدى لها على وجه التعيين ، مثل الأوقاف ونظائرها.

كما أن التاريخ - أى : تاريخ الإنسانية - يؤكد أن كل مجتمع يحتاج فى بقائه واستمراره إلى شخص أو مركز ( سلطة ) يتحلىان بارادة وإدراك تفوق إرادة الآخرين وادراكهم (١) - وهذا ما اصطلح عليه الغرب كما ذكرنا سابقاً الرجل ما فوق ( Super man ) - مما يبرز حاجيات الأفراد النفسية لهذا الشخص ، وهذه حالة طبيعية فى الإنسان ، فإن من فطرة الإنسان الانبهار بالأقوى والانصياع له واعتباره قدوة ، وفى أيامنا الحالية نلاحظ أنها متجلية بشكل كبير بحيث ترى الأشخاص منبهرين بممثل أو لاعب كرة القدم أو مغنى ، رغم أن إبداعهم جاء فى مجال معين ومحدد ، لكن الرغبة الدفينه تبقى قائمه (٢).

فكيف تصدى الإسلام إلى هذه الفكرة؟ خصوصاً بعد ما رأينا سابقاً أن منهج الشورى يبقى منهج سرابى يفتقد العلمية والاستمرارية ويفتقر إلى القاعدة الفكرية المتينة. فهل الإمامة منصب إلهى أم بشرى؟

الامامة والقرآن

قال الله تعالى فى كتابه العزيز : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

١ - السيد محمد حسين الطباطبائى ، مقالات تأسيسية ص ١٥٧.

٢ - للمزيد من الإطلاع على هذه الفكرة راجع : الأمة والإمامة ، على شريعتى.

مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ائْتِ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ( ١ ) .

وقال تعالى ( وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ) ( ٢ ) .

إن الآيتين الكريمتين تحويان في طياتهما مجموعة من الرموز وال تي تبين وضع الحاكم بالمنظور الإلهي .

إن الاحتياج القائم في المجتمع الإسرائيلي وهم مقبلين على الحرب جعلتهم يلحّون على نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون فيه ، إن الدلالة في هذه الآية تبين على أن أمر السلطة في المجتمع الديني لم يكن بيد الناس ، إذ لو كان بيدهم لما لجؤوا لطلب السؤال من نبيهم ، وبهذا يكون الأمر خارجاً عن الأمر البشري ، وإنما هو أمر مرتبط بالدين وبالتالي بالله تعالى ، إذ يتبين أن هذا الأمر الإلهي ١٠٠٪ ويتضح أنه خارج عن إرادة النبي باعتباره الموجه الديني في قوله تعالى على لسان النبي : ( إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ) ( ٣ ) ، ومن هذا السياق يتضح الأمر الحقيقي لمسألة خلافة الناس وحكمهم بكونه مسألة خارجة عن إرادة الشعب ، لذلك لم يتجرأوا على انتخاب واحد منهم ، بل وكلوا الأمر إلى نبيهم الذي لم يكن نفسه قادراً على تحديد شخصية من تلقاء نفسه ، وإنما احتاج في ذلك إلى أمر الهى ، فجاء قول الله تعالى باختيار طالوت ملكا ، ورغم اعتراضهم فإن الله تعالى حدد المميزات التي جعلته

---

١ - البقرة : ٢٤٦ .

٢ - البقرة : ٢٤٧ .

٣ - البقرة : ٢٤٧ .

يتصدى لهذا المنصب ، ألا وهما العلم والقوة ( وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ) (١) ، وهما أمران لازمان لاستقرار المجتمع ، إذ أن الملك هو استقرار السلطة على مجتمع من الناس حيث كان الغرض الوحيد منه أن تتلاءم الإرادات المتفرقة من الناس وتجتمع تحت إرادة واحدة وتتحدد الازمة باتصالها بزمam واح د فيسير بذلك كل فرد من غير حق ، ولا يتأخر فرد فى غير حق.

وبالجملة الغرض من الملك أن يدبر صاحبه المجتمع تدبيراً يوصل كل فرد من أفرادها إلى كماله اللائق به ، ويدفع كل ما يمانع ذلك.

والذى يلزم وجوده فى نبيل هذا المطلوب أمران :

أحدهما : العلم بجميع مصالح حياة الناس ومفاسدها.

وثانيها : القدرة الجسمية على إجراء ما يراه من مصالح المملكة (٢).

إذن والواضح من خلال النص القرآنى أن مسألة الحكم خارجة عن إرادة المحكومين ، بل هى لطف إلهى للأمة حتى تسير فى طريق الحق الإلهى بقيادة عارفة بمستلزمات المجتمع ومتطلباته ، وهذه القيادة ليس لها فقط السلطة السياسية ، لأنه لو كان ذلك لكان الاقتصار على مسألة القوة ، بل السلطة الدينية والعلمية ، فكانت من الخصائص المهمة التى ألهم الله بها الملك المختار هو العلم.

---

١ - البقرة : ٢٤٧.

٢ - السيد محمد حسين الطباطبائى : تفسير الميزان : ٢ / ٢٩١.

وأما من الأحق بها؟ فقد جسدها الله تعالى في حوارهِ مع إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال تعالى : ( إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ) (١).  
يطرح إشكال في هذه الآية ، وهو قول بعضهم بكون الإمامة جاءت هنا بمعنى النبوة ، وهذا يفقد صحته التاريخية كون قبل هذه الترقية التي عرفها إبراهيم عليه السلام جاءت بعد مرحلة النبوة وبعدها فارق قومه ، إذ وهو بين قومه كان نبياً لكن هذا الوعد الإلهي جاء وهو بعد البشارة بالابنين ، وتكون بذلك مقام الإمامة مقاماً رفيعاً يفوق مقام النبوة.  
أما على مستوى الدلالة اللغوية ، فلأن قوله إماماً ، مفعول ثانٍ لعامله الذي هو قوله جاعلك ، واسم الفاعل لا يعمل إلا إذا كان بمعنى الماضي ، وإنما يعمل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال ، فقوله ( إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ) وعدُّهُ عليه السلام بالإمامة فيما سيأتي ، مع أنه وحى لا يكون إلا مع نبوة ، فقد كان عليه السلام نبياً قبل تقلده الإمامة ، فليست الإمامة بمعنى النبوة (٢).

ونأتى إلى بيت القصيد ، وهو حقيقة هذه الإمامة ، هل هي مسألة اختيارية أم الزامية من الله تعالى؟

كما أسلفنا سابقاً أن المسألة مرتبطة بأمر إلهي محض ، ويتضح من

---

١ - البقرة : ١٢٤.

٢ - السيد محمد حسين الطباطبائي : تفسير الميزان : ١ / ٢٦٦.



خلال هذه الآية كذلك ، وذلك في قوله تعالى ( لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ) ، وهذا مرتبط  
بكون التعيين للإمامة جاء من الله إلى إبراهيم عليه السلام ويسرى هذا الأمر والاختيار على  
القائمين من ذريته ، وشرطه في ذلك انتفاء الظلم عن الأشخاص المختارين ، لكن ما الظلم  
الذي يكون حائلاً دون تسلّم هذا المنصب الكبير؟

أخرج أبو الحسن الفقيه ابن المغازلي الشافعي في مناقبه عن عبد الله ابن مسعود قال : قال  
رسول الله : « أنا دعوة أبي إبراهيم » ، قلت : يا رسول الله وكيف صرت دعوة أبيك إبراهيم؟  
قال : « أوصى الله عز وجل إلى إبراهيم ( إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ) ، فاستخف إبراهيم  
الفرح ، قال ( وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ) أئمة مثلي ، فأوحى الله عز وجل : أن يا إبراهيم إنني لا أعطيك  
عهداً لا أفي لك به ، قال : يا رب ما العهد الذي لا تفي لي به؟ قال : لا أعطيك لظالم من  
ذريتك عهداً ، قال إبراهيم عندها : ( وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا  
مِنَ النَّاسِ ) (١) ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : فانتهت الدعوة إلى والي على ، لم يسجد  
أحدنا لصنم قط ، فاتخذني نبياً ، واتخذ علياً وصياً » (٢).

إن الإطلاقة القرآنية على موضوع الولاية تضع أمامنا كون منصب قيادة الأمة لا يكون  
بانتخاب الناس ، وذلك لكون الناس قاصرين عن

---

١ - إبراهيم : ٣٥ - ٣٦.

٢ - ابن المغازلي الشافعي ، مناقب ابن المغازلي ص ٢٧٦.

إيجاد الرجل المناسب والشخصية التي تستطيع تدبير الأمور العامة والخاصة للمجتمع ، إذ أول مسببات الاختلاف هو اختلاف أفراد المجتمع في تحد يد هذا الشخص مما يشكل خطراً على وحدة المجتمع ، ويصير مقسماً إلى شيع ، كل واحد يدفع بمثله ومرشحه ، وأما قدرة هذا الشخص فهي غير ظاهرة ويبقى إمامه محدوداً في مجالات محددة قد لا تستوعب كل الاحتياجات والمطالب التي تحتاج إليها كل التشكيلات البشرية ، فيبقى الوح يد العالم باحتياجاته هو الله سبحانه وتعالى وكل معارفه يسكنها في شخص يصير هو المرشح الإلهي لهذا المنصب النبيل ، ومن أهم الخصائص التي تحدت عنها القرآن وخصوصاً في الآيات السابقة الذكر العلم ، والقوة ، وألا يكون ظالماً.

فأما العلم فهو للرعاية والتوجيه الديني والاخلاقي والاحتياجات الروحية لكل أفراد المجتمع ، والقوة كحالة رقى سياسي للمجتمع وكقائد سياسي للدولة ، وانتفاء الظلم عن حياته حتى تتحقق العدالة الإلهية في المجتمع.

الإمامة في السنة

هل ترك الإسلام أمر توجيه الأمة - التوجيه الديني والسياسي - بدون قاعدة تأسيسية له ، أى بمعنى آخر : هل من قائد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخلفه في تسيير أمور الأمة؟

إن أهل العامة قالوا : بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يعين أى شخص بعده ، وإنما

ترك الأمر شورى بين الناس ، وهذا ما اثبتنا وهنه خلال التحدّث عن الشورى.  
فإذا قيل : لم يوص ، وإنما ترك الأمر شورى ، ومراده الخروج من مأزق الأحاديث الواردة  
فى مجال التوصية الخاصة بعلى وآل البيت عليهم السلام ، وعلى فرض هذا فإن أبى بكر يصير  
أنبه من النبى صلى الله عليه وآله وسلم - وحاشا ذلك - باعتباره أوصى لعمر بن الخطّاب ،  
وسببه فى ذلك هو مخافة الاختلاف بين الناس ، فكيف خاف أبى بكر من الاختلاف ولم  
تطرح على شخص الرسول فى معنى هذا أن الخليفة الأول أفهم بطروف وحالات المجتمع من  
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما القول الثانى وهو وجود دلالة نصية على تعيين أبى بكر وقد اختلفت الدلالة إلى قسمين.  
دلالة رمزية فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « مرو أبى بكر فليصلى بالناس » ، وقد نفى  
هذا ابن حزم وانه سبب جعل أبى بكر يستلم الأمر وقد ذكرنا سابقاً فى كون هذا الحديث  
يطرح إشكالية تهدم أسس الفقه السنى . ودلالة مباشرة فى حديث عائشة الذى يثبت النص  
والاسناد ضعفه لكن هذا يبرز قسمة ثانية وهى أن هذه الأحاديث هى نتاج ردة فعل على  
أحاديث ثابتة تعالج نفس المشكل وهو خلافة الامة وقد أفاضت كتب العامة بالأحاديث التى  
تتحدث عن أصحاب الحق الشرعى.

لقد صادفنا فى الآيات القرآنية السابقة كون منصب الولاية يس تلزم خصال واجبة التوفر فى  
شخص الولي فهل تحققت فى خلفاء أهل

العامة. فأما العلم فلم يثبت لهم سابقة فيه.

فهذا عمر بن الخطاب يمنع المجنب من الصلاة ، فقد أخرج البخارى ومسلم فى التيمم من صحيحهما أن رجلاً أتى عمرًا فقال : انى أجنبى فلم أجد ماء ، فقال لا تصل - وكان عمار بن ياسر إذ ذاك حاضراً - فقال عمار : أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت فى سرية فأجنبنا فلم نجد ماء ، فأما أنت لم تصل وأما أنا فتمعكت فى التراب وصليت ، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم إنما كان يكفيك أن تضرب بيديك الأرض ثم تتفخ ثم تمسح ب هما وجهك وكفيك ، فقال عمر : اتق الله يا عمار ، قال إن شئت لم أحدث به !! فقال عمر : نوليک ما توليت (١).

وهاهو أبو بكر لم يعرف معنى الأب [ وذلك فى قوله تعالى ( وَفَاكِهَةً وَأَبًا ) ] مسائل بسيطة لا تحتاج إلى مجهود كبير لكن الخليفين لم يكونا فى مستوى المسؤولية العلمية ، وقد سجل لهم التاريخ وقعات علمية تتم عن جهلهم لكليات الدين وأنهم لا يمثلون إلا عامة الامة يحتاجون هم أنفسهم للموجه ، وقد عبر عنهما عمر بقوله : « ويل لعمر من مسألة ليس لها ابو الحسن ».

وأما القوة فلا زال فرارهم فى أحد وحين أهم الأحداث التى تبيّن ضعفهم وقد ذكرها ابن الأثير وابن جرير حيث ذكروا انه انتهت الهزيمة بجماعة المسلمين وفيهم عثمان بن عفان وغيره إلى الأعوص فأقاموا

---

١ - السيد عبد الحسين شرف الدين ، النص والاجتهاد ص ٢٤٠.

بها ثلاثا ، ثم أتو النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهم حين رآهم : لقد ذهبتم فيها عريضة (١).

كما ذكر كذلك أن أنس ابن النضر وهو عم أنس بن مالك انتهى إلى عمر وطلحة في رجال من المهاجرين قد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما يحبسكم قالوا : قتل النبي . قال : فما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه النبي . ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل ، فوجد به سبعون ضربة وطعنة وما عرفته إلا أخته عرفته بحسن بنائه ( قالوا ) وسمع أنس ابن النضر نفراً من المسلمين - الذين فيهم طلحة وعمر - يقولون لما سمعوا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قتل ليت لنا من يأتي عبد الله بن أبي سلول ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان قبل أن يقتلونا ، فقال لهم أنس : يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ، اللهم إني أعتذر إليك مما يقولون هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ثم قاتل حتى استشهد.

وتأتى معركة حنين لتؤكد هذا ا لضعف حتى فروا جميعاً لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا بنو هاشم.

وأما الخاصية الثالثة والتي هي أصل الإمامة وهي ألا يكون من الظالمين وتجمع خصال طهارة المولد والمنشأ. فهاهو أبو بكر وعمر وعثمان قد عبدوا الأصنام وعلى لم يسجد قط له وهاهو عمر قد وأد

---

١ - المصدر السابق ص ٢٦٧ ، ٢٦٨.

ابنته وهي حية . ناهيك عما اقترفوه بعد إسلامهم فهذا عثمان بن عفان يجزل العطايا لقومه من بنى أمية دون غيرهم من عامة المسلمين وينفى أبا ذر إلى الريدة حيث مات وحيداً رضى الله عنه ويضرب عبد الله ابن مسعود حتى أصابه الفتق ، ويجلد عمار بن ياسر. والتاريخ يثبت وقائع الخلفاء بأنها تخالف الشروط التي وضعها البارى تعالى للشخص المتحمل للمسؤولية.

أما إذا جئنا لتحدث عن الإمام على عليه السلام فهو الشخص الجامع للشرائط ، وهو العالم التحرير الذى قال « اسئلونى قبل أن تفقدونى » ، وهو من قال فيهم عز وجل : ( إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ) ، والذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أنا مدينة العلم وعلى بابها » ، وهو الذى قاتل المشركين فكان صاحب ذو الفقار أمير الأمراء ولم يؤمر عليه أحد . فهاهم الخلفاء الآخريين يؤمر عليهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عمرو بن العاص فى سرية ذات السلاسل وفى سرية اسامة. وأما حصول الشرط الأول وخروجه من دائرة الظالمين فالإمام على عليه السلام هو الذى لم يسجد لصنم وأسلم صغيراً. ولما تولى كان عليه السلام ساعياً بجد لإرجاع الحقوق إلى أهلها وإرجاع المتسلقين والطلاق إلى وضعهم الطبيعى.

وسئل الحسن البصرى عن على عليه السلام فقال « ما أقول فيمن جمع الخصال الأربع ائتمانه على براءة ، ما قاله له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى غزوة

تبوك فلو كان شيئاً يفوته شيء غير النبوة لاستثناه ، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم  
الثقلان كتاب الله وعترتي ، وأنه لم يؤمر عليه أمير قط ، وقد امرت الامراء على غيره (١).  
يبقى هذا عرض مختصر وموجز جداً لخصال تحلى بها الامام دون سواه من أصحاب الرسول  
، وما ذكرناه ماهو إلا تلميحاً زخرت بها كتب التاريخ وأفرد لها المؤرخين كتباً تبرز  
خصائص الامام والتي هي عين خصائص الامام على عليه السلام إن هذه الخصائص التي  
تجلت في شخصه الشريف تكفيه دون الأحاديث الصادرة عن رسول الله  
صلى الله عليه وآله وسلم لجعله الخليفة من بعده وحامل عباً الرسالة بشقيها الدنيوى والدينى ،  
وما حياة الرسول إلا عملية لإيصال الناس إلى مستوى الرشد وتهيتهم للإيمان بولاية آل  
بيته عليهم السلام فمنذ حديث الدار وهو الشرارة الاولى للولاية إلى يوم الغدير وحديث  
التنصيب الإلهى المباشر وإتمام الدين حيث نزل قوله تعالى ( الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ  
وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ) فكان إتمام الدين بتنصيب الإمام على  
عليه السلام ولياً للمسلمين ، وبالتالي الدخول إلى مرحلة ثانية بعد مرحلة النبي  
صلى الله عليه وآله وسلم وانطلاق سلسلة الاثنى عشر إماماً . وتعتبر هذه أكبر مشكلة يواجهها  
فكر أهل العامة إذ لحد الآن لم يستطيعوا إعطاء إجابة كافية تجيب على إشكالية الأئمة  
الاثنى عشر. وقبلولوج فى إعطاء إطلالة

---

١ - ابن ابى الحديد ، شرح نهج البلاغة : ١ / ٣٢٩.

على هذا الموضوع يجب أن نلفت الانتباه إلى أن مسألة الاثنى عشر خليفة وردت في الكتب القديمة وخصوصاً العهد القديم مما يجعل منه حقيقة قائمة وجب الإجابة عنها بشكل صحيح يستجيب ومعطيات المجتمع الإسلامى وحقيقة الدين الإسلامى .  
فأما ما جاءت به الكتب القديمة فقد جاء فى العهد القديم سفر التكوين الاصحاح السابع عشر :

وقال إبراهيم لله ليت اسماعيل يعيش امامك ، فقال الله : بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه اسحاق واقيم عهدي معه عهد أبدياً لنسله من بعده ، وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثوه كثيراً جداً ، اثنى عشر رئيساً يلد ، واجعله أمة كبيرة.  
هذه من إحدى المبشرات التى ذكرت فى الكتب القديمة وأما على مستوى المرويات الإسلامية فإن حديث الاثنى عشر مما تواترت به أحاديث العامة والشيعه وأصبحت صحتها أوضح من الشمس فى كبد السماء.

روى البخارى فى صحيحه عن جابر بن سمرة قال : سمعت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول : يكون اثنا عشره أميراً ، فقال كلمة لم أسمعها ، فقال أبى إنه قال كلهم من قريش (١) وأما مسلم فأخرجه عن جابر بن سمرة وهذا الحديث محل إجماع المسلمين لكن الإشكالية التى طرحت هو



من هم هؤلاء الاثنى عشرة؟

لقد وقف علماء أهل العامة عند هذه الحقيقة المرة فراحوا يؤولونها تأويلات لا تنسجم وطبيعة النص وحقيقة الوقائع التاريخية.

وأول الوقائع التاريخية والمرتبطة خاصة بالقرشية. وتذكر هنا ما جرى في السقيفة واحتجاج المهاجرين بالقرشية وكانت لديهم المفصل الرئيسي في الاستيلاء على الحكم ونزعه من يد الانصار. لكن مع الاسف الشديد يأتي أحد زعماء السقيفة وهو الخليفة عمر بن الخطاب ليرمي بهذا المبدأ بعرض الحائط ويقول : لو كان سالم مولى حذيفة لوليته ففى مجمع (١). عن ابى رافع أن عمر بن الخطاب كان مستنداً إلى ابن عباس وعنده ابن عمر وسعيد بن زيد فقال : إعلموا أنى لم أقل فى الكلالة شيئاً ولم استخلف من بعدى أحداً ، وأنه من أدرك وفاتى من سبى العرب فهو حر من مال الله عز وجل فقال سعيد بن زيد : أما أنك لو أشرت برجل من المسلمين لاثمتك الناس وقد فعل ذلك أبو بكر واثمنه الناس. فقال عمر : قد رأيت من أصحابى حرصاً سيئاً ، وإنى جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء نفر الستة الذين مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو عنهم راض ثم قال لو ادركنى أحد الرجلين ، ثم جعلت هذا الأمر إليه لو تفتت سالم ،

---

١ - مجمع الزوائد : ٤ / ٢٢٠.

مولى أبى حذيفة ، وأبو عبيدة ابن الجراح (١).

هكذا يفقد الشرط الحديثى مصداقيته عند عمر بن الخطاب ليعطى دلالة واضحة على ارتجاج فكرة العامة فى هذه النقطة ، ويلاحظ هذا مع الفقه الحنفى والذى لم يجعل القرشية شر طاً للإمارة. ومما يزيد فى ارتباك المذهب السنى فشله فى تحديد الاثنى عشر خليفة حيث تضاربت الأقاويل والآراء عنده.

إذن هناك من يعد الاربعة الاوائل باضافة ملوك بنى أمية وبالطبع من ضمنهم يزيد وهو قاتل حفيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف أصلح به أمر الامة والدين وهو اللاعب بالقردة شارب الخمر ، وكيف يكون معاوية بن أبى سفيان أحد الاثنى عشرة وهو الأمر بسب الإمام على على المنابر والرسول جعل حب على من الإيمان وكرهه من النفاق وهو - أى معاوية - قاتل حجر بن عدى الصحابى الجليل الذى رفض سب الامام على عليه السلام هو وأصحابه. وأقدم قول لتفسير هذا الإشكال ما ذكره ابن حبان والذى نقله عنه فى عون المعبود فى شرح سنن أبى داود (٢) : قال :

وأما الخلفاء اثنا عشر ، فقد قال جماعة منهم أبو حاتم بن حبان وغيره إن آخرهم عمر بن عبد العزيز ، فذكروا الخلفاء الأربعة ، ثم معاوية ، ثم يزيد ابنه ثم معاوية ابن يزيد ، ثم مروان بن الحكم ، ثم عبد

---

١ - آيات الغدير منشورات مؤسسة المصطفى ص ٤٨ طبعة ١ سنة ١٤١٩هـ - ق.

٢ - شرح سنن أبى داود : ١١ / ٣٢١.

الملك ابنه ، ثم الوليد بن عبد الملك ثم سليمان بن عبد الملك ، ثم عمر ابن عبد العزيز . وكانت وفاته على رأس المائة (١).

وأول ما يمكن ملاحظته هنا وهو غياب شخصية الإمام المهدي عليه السلام باعتباره هو محيي الدين ومجدد الإسلام وقيام الإسلام بقيام المهدي والحديث يقول لا يزال هذا الدين قائماً ما وليهم اثني عشر خليفة من قريش « المهدي ممن يقوم به الدين فأين هو في هذا العدّ. وقول آخر نعلم أن الإمامة والحكم تعقد بالبيعة فأين الإمام الحسن عليه السلام وقد عقدت له البيعة لستة أشهر.

وليس هذا القول الوحيد بل الكل اجتهد في تفسيره لكن يصطدم بحواجز فمثلاً بن حجر يورد في الاثني عشر خليفة من بنى العباس وكذا لك عبد الله بن الزبير وكذلك هناك من اجتهد على غير العادة فقال إن الإمام على عليه السلام والحسن عليه السلام لم يكونا من الاثنا عشر باعتبار انعدام انعقاد البيعة لهم من كل المسلمين وهذا من أكبر الشطحات وقد أورد هذا القول ابن كثير عند شرحه لهذا الحديث في البداية والنهاية مما يعطى رؤية واضحة عن ضعف لاستيعاب هذا الحديث وإعطائه حقه الطبيعي.

وأتذكر هنا حادثة وقعت خلال محاورتي مع أحد الأشخاص حول حديث الاثنا عشر خليفة وبعد ما أحس بعجزه التام : قال لي حكاية أن أحد مريدي زاوية السيد الرفاعي بمصر رأى رؤيا أن السيد الرفاعي

هو إمام بالإضافة إلى الاثنى عشر من آل بيت النبوة. ولما حكاه لشيخه أثبت له الفكرة. فقال محاوري وكذلك عندنا فإننا نؤمن بالاثنا عشر ونضيف إليهم أئمة آخرين . من هنا يظهر أن عقول هؤلاء الأشخاص قد ضاقت بهذه الحقيقة المرة وصارت عقولهم تزيد على الاثنى عشر ربما يوصلونها إلى المئات وهذه من إحدى السلبيات التي اكتسبها العقل السني وهي انعدام الجرأة النقدية بحيث إذا تصادف عقلهم مع نص مقدس عندهم لا ينظرون فيه ويبحثون عن مصداقيته بل يحومون حول جوانبه مما يجعله مبهما في الع قول. لكن في بعض الحالات . تجد من أهل العامة من يقف عند هذه الحقيقة ويصرح بها فهي هو الكنجي الشافعي في ينابيع المودة (١) يقول :

قال بعض المحققين : إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده صلى الله عليه وآله وسلم اثنا عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة . فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان ، علم أن مراد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من حديثه هذا الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته ، إذ لا يمكن أن يعمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلتهم عن اثني عشر ، ولا يمكن أن يحمله على الملوك الاموية لزيادتهم على اثني عشر ، وظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز ولكونهم من غير بني هاشم ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كلهم من بني هاشم . وفي حديث جابر ورد ، وإخفائه صوته صلى الله عليه وآله وسلم وهذا القول يرجح هذه الرواية ، لأنهم لا يحسنون ،

خلافة بنى هاشم.

ولا يمكن أن يعملوا على الملوك العباسية ، لزيادتهم على العدد المذكور او لقلّة رعايتهم  
الآية : قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى ، وحديث الكساء فلا بد أن يحمل هذا  
الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم كانوا أعلم  
أهل زمانهم وأجلهم وأورعهم واتقاهم وأعلاهم ..... ، وأفضلهم حسباً ، وأكرمهم عند الله ...  
(١).

وهكذا يكون الكنجي الشافعي قد وضع يده على رأس الامر وحقيقة الاثني عشر ، ونذكر هنا  
حديث الثقلين والذي أخرجه أحمد في مسنده « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا  
بعدي أبداً كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى  
يردا على الحوض ».

وقيومة الدين مرتبطة بالقرآن الكريم وعلاقته من خلال هذا الحديث هي علاقة وطيدة  
وعلاقة مماثلة حيث آل البيت هم الوجه الثاني للقرآن الكريم ، وبذلك لن يقوم هذا القرآن  
إلاّ ببقاء هؤلاء العترة وباستعمال علاقة التعدي الرياضية فإن بقاء هذا الدين ببقاء العترة  
الطاهرة وإذا ما جمعنا الحديثين فإن معناهم يوصلنا إلى كون الاثنا عشر لن يكونوا إلاّ  
أعضاء العترة الطاهرة.

وأحاديث كثيرة تجمع على هذه التلازمية ، تلازمية الدين وآل البيت

---

١ - المصدر السابق ص ٥٢.

النبوى. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثّل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق ، وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل من دخله غفر له » (١).

وقد أفرد صاحب كتاب التشيع عبد الله الغريفي أغلب المصادر مع اختلاف الالفاظ للحديث ناهيك عن الأحاديث الأخرى المرتبطة بأعلمية أهل البيت ومدى استيعابهم لحقيقة الدين مما يوافق حديث الأئمة الاثنى عشر وكذلك فإن تسلسل أئمة آل البيت يجب على الإشكال بسهولة تامة ولا يعيش التشيع الامامى الاثنا عشرى اشكالية الحديث . ويدعمهم فى ذلك القرائن التاريخية والمعطيات الدينية المتوفرة من أدلة قرآنية وأخرى حديثة ، وأما القرائن التاريخية فهى الإمارات والعلامات التى كان يشير بها الأئمة للناس لإرشاده وتعريفهم بحقيقتهم .

الأئمة الاثنى عشر

إن الايمان بالأئمة الاثنى عشر يعتبر من أهم الأساسيات التى ينبنى عليها المذهب الإمامى ، وذلك لما صدر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبما عبر به الأئمة عن أنفسهم فقد أخرج القندوزى الحنفى فى ينابيع المودة بسنده عن جاب ر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

---

١ - الطبرانى : المعجم الصغير : ٢ / ٣٠٣ ، المستدرک للحاكم : ٢ / ٣٢٣ ، ابن حجر : الصواعق المحرقة ص ١٨٦ طبعة القاهرة.

« يا جابر إن أوصيائي وأئمة المسلمين من بعدى أولهم على ، ثم الحسن ، ثم الحسين ثم على بن الحسين ، ثم محمد بن على المعروف بالباقر ستدركه يا جابر فإذا لقيتاه فاقراه منى السلام ثم جعفر بن محمد ، ثم موسى بن جعفر ، ثم على بن موسى ، ثم محمد بن على ثم على بن محمد ، ثم الحسن بن على ، ثم القائم اسمه اسمى ، وكنيته كنيته محمد بن الحسن بن على ذلك الذى يفتح الله تبارك وتعالى على يديه مشارق الأرض ومغاربها ذاك الذى يغيب عن أوليائه غيبة لا يثبت على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان » (١).

بهذا الشكل تجيب الامامية على تسلسل الأئمة لتجيب بذلك على إشكالية لا زال فكر أهل العامة يعيشها لغاية يومنا هذا. فمن يكون هؤلاء الائمة؟

الإمام على بن أبى طالب عليه السلام

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم من البيت الهاشمى ذو السيادة والريادة فى المجتمع القرشى ومن أشرف الأنساب ولد عليه السلام قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة وأمه هى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف . وهو صهر الرسول الكريم وزوج سيدة نساء العالمين فاطمة عليها السلام وأب سيد شباب أهل الجنة . كانت له حظوة عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال عليه السلام عن نفسه.

---

١ - نقلا عن التشيع نشوء ومراحل - مقوماته للغريفي ص ٥٧٤.

« وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليد يضمنني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ، ويمسني جسده ، ويشمني عرفه ، وكان يمسح الشيء ثم يلقمني به » (١).

وأما عن علمه عليه السلام فقد كانت له منزلة عند الرسول حيث كان يأتيه في كل ليلة فيعلمه وكان تابعه حيثما حل وأرتحل فقد قال الامام عن نفسه : « ولقد كنت أتبعه اتباع الفضيل أثر أمه ، يرفع لي كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالافتداء به (٢).

ولعظمة هذه الشخصية تاهت فيه أقوام وغالوا في حقه حتى ألوهه ، فكيف لا يتيه فيه الشخص لولا اللطف الإلهي ، وهو الذي وضعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوق كتفه عند هدم أصنام الكعبة وهو حامل باب خيبر حيث لم يستطع أكثر من عشرة أنفار حمله . وهو قاهر الكفار والمشركين والمنافقين والعلامات قائمة والآيات ظاهرة تدل دلالة واضحة على إمامته عليه السلام ورغم ما يمكن أن نكتب عنه فإننا لن نوفى له حقه لكن نورد أقوالاً :

قال عمر بن الخطاب : « عقلت النساء أن يلدن مثل علي بن أبي طالب » (٣).

---

١ - نهج البلاغة ، شرح محمد عبده : ٢ / ١٨٢.

٢ - نهج البلاغة ، شرح محمد عبده : ٢ / ١٨٢.

٣ - الأميني ، الغدير : ٦ / ٣٨.



ويقول جورج جرداق وهو كاتب مسيحي لبناني : « وماذا عليك يا دنيا لو حشدت قواك

فأعطيت في كل زمن علياً بعقله وقلبه ولسانه وذى فقاره » (١).

وقد استشهد عليه السلام بالكوفة سنة ٤٠ للهجرة وعمره ٦٣.

وأما باقى الأئمة فهم على النحو التالى :

٢ - الحسن بن على المجتبى عليه السلام.

٣ - الحسين بن على الشهيد عليه السلام.

٤ - على بن الحسين السجاد وزين العابدين عليه السلام.

٥ - محمد بن على الباقر عليه السلام.

٦ - جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

٧ - موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام.

٨ - على بن موسى الرضا عليه السلام.

٩ - محمد بن على الجواد عليه السلام.

١٠ - على بن محمد الهادى عليه السلام.

١١ - الحسن بن على العسكرى عليه السلام.

١٢ - الحجة القائم محمد بن الحسن ( عج ).

---

١ - الإمام على صوت العدالة : ١ / ٤٩.

ص: ٢٣٢

## المهدى حقيقة

إن الرؤية البشرية للكون أجمعت كلها على نهاية العالم بقدم المخلص ، فبعدها تكون الدنيا قد ملئت ظلماً وجوراً ، يأتي هو لإخراجها من هذا الوضع اللاإنساني إلى حالة العدل الشامل ، أو بالتعبير الاسلامي إلى عالم العدل الإلهي.

إن هذه الرؤية الكونية لا يشك أحد في كونها معطى فطري تركب في عقلية الإنسان ، حتى أصبح انتظاره للفرج ، وتحقيق هذا الموعد حقيقة واقعية تنتظر التحقيق ، وعلى صعيد الفكر الإسلامي فإن حقيقة الانتظار ارتبطت بفكرة المهدوية ، والتي يكون قائدها المهدى المنتظر أحد أحفاد الرسول الكريم ، وقد تعارفت المدارس الفكرية الإسلامية على هذه النظرة حتى بلغ معدل الحقيقة فيها سطح المائة بالمائة ، ذلك لما فاضت به كتب الحديث حول هذا الموضوع ، والذي يؤيد ويقوى الدلالات الرمزية الواقعة في القرآن والتي تنبأ باليوم الموعود ، يوم تحقق الع دل المنشود وورائه الأرض من طرف عباد الله الصالحين ( وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ) (١).

كما أن هذه النهاية الموعودة ستعطى تحقق الوعد الإلهى من هذه الخلقة ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) (١) والذي يبرهن على السيادة المطلقة للقدره الإلهية ، وكذلك تحقق الجانب المهم ، وهو تجسد الاستخلاف البشرى للكون ، كما اخبر به سبحانه وتعالى : ( إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ) (٢) والتي تقوم على سيادة الدين الإلهى وتحقق المشروع السماوى على أرض الواقع ( هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ) (٣).

إذن كل هذه الرموز الدلالية وجدت سنداً قوياً فى المرويات التى فاضت بها كتب الح ديث ، والتي تخبر بأن اليوم الموعود يكون على يدى الإمام المهدي.

وفى هذا الباب قال السيد الشهيد محمد باقر الصدر : ( إن فكرة المهدي بوصفه القائد المنتظر لتغيير العالم إلى الأفضل قد جاءت فى أحاديث الرسول الأعظم عموماً ، وفى روايات أئمة أهل البيت خصوصاً ، وأكدت فى نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشك ، ولقد أحصى مجموع الأخبار الواردة فى الإمام المهدي من طرق الشيعة والسنة فكان أكثر من ستة آلاف رواية ، هذا رقم إحصائي

---

١ - الذاريات : ٥٦.

٢ - البقرة : ٣٠.

٣ - التوبة : ٣٣ ، الفتح : ٢٨ ، الصف : ٩.

كبير لا يتوفر نظيره في كثير من قضايا الإسلام البديهية التي لا شك فيها لمسلم عادة (١). إذن هذا الكم الهائل من الأحاديث الواردة لم يكن عن عبث أو افتراء وكذب ، بل هي إبراز وتأييد لفكرة إسلامية ، حيث لا يمكن أن يكون مجرد الشك في الحدث مدعاة لإلغاء كل ذلك الموروث من ساحة الفكر الإسلامي ، لأن أصل الخبر واحد ودائرة حركته تتسع في كل الأوساط الإسلامية مما يعطى لهذا الخبر دلالة واقعية وحقيقة ثابتة.

ربما قد يكون التاريخ تلاعب بمفهومه حتى أصبح مجرد أسطورة غير قابلة للتصديق ، لكن العقل الحر المتأمل في ها لا يجد عيباً أو حرجاً في تقبلها والإيمان بها ، وخصوصاً وكما أسلفنا سابقاً إذا كانت قائمة على أسس دينية تشريعية قوية ، والتي تتمثل في القرآن والسنة النبوية.

كما أن كثيراً من السلف - رضى الله عنهم - لم يعارضوا هذا القول ، بل جاءت شروحاتهم وتقاريراتهم موافقة لإثبات هذه العقيدة عند المسلمين (٢) ، كما أن بعض المرويات الصحاح عند السنة تورد اسم هذا الشخص في آخر الزمان باسم الإمام ، وخصوصاً في البخارى من حديث أبى هريرة : « كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم

---

١ - الشهيد محمد باقر الصدر : بحث حول المهدى ص ٦٣.

٢ - الدكتور عبد الباقي : بين يدي الساعة ص ١٢٣ - ١٢٥.

منكم » (١) ، وكذلك فى حديث جابر بن عبد الله الذى أخرجه مسلم « فىقول أميرهم ( لعيسى ) : تعال صل بنا » (٢).

لكن مدعاة الاختلاف بين الطوائف الإسلامية حول المهدي راجع بالدرجة الأولى إلى حقيقة المهدي بمعنى آخر ، هل المهدي موجود وهو غائب عن الأنظار كما تقول الشيعة الإمامية؟ أم لم يخلق بعد كما هو حال أهل العامة؟

يقول الشيعة - وباستنادهم على مجموعة من المرويات الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته عليهم السلام - بكون الامام المهدي مولود ، وهو محمد ابن الحسن العسكري ، وذلك سنة ٢٥٥ هـ - وغاب بأمر من الله تعالى ، وكانت له غيبتان : صغرى حيث كانت وساطته مع شيعته بوسيلة نوابه ، وبعد آخر نائب ( الرابع ) غاب غيبته الكبرى. وهذا الامر عن ولادته لم يقتصر على الشيعة فقط ، بل مجموعة من علماء السنة أقرؤا وأيدوا هذا القول منهم ابن الصباغ المالكي اذ قال (٣) : ( قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف الكنجى الشافعى فى كتابه ( البيان فى أخبار صاحب الزمان ) فى الباب ( ٢٥ ) : من الدلالة على كون المهدي عليه السلام حياً باقياً منذ غيبته وإلى الآن ، وأنه لا امتناع فى بقاءه كبقاء عيسى بن مريم والخضر والياس من أولياء الله تعالى ، وبقاء

---

١ - صحيح البخارى : ١٤ / ٣٣٤.

٢ - صحيح مسلم : ١ / ٥٩ ( باب نزول عيسى ).

٣ - ابن الصباغ المالكي / الفصول المهمة ، طبع نجف الاشرف ص ٢٨١.

الأعور الدجال وإبليس اللعين من أعداء الله هؤلاء قد ثبت بقاءهم بالكتاب والسنة (١).  
كما أورد سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص (٢) قال : ( قال السري : يجتمع المهدي وعيسى بن مريم ، فيجىء وقت الصلاة فيقول المهدي لعيسى تقدم ، فيقول عيسى ابن مريم : أنت أولى بالصلاة ، فيصلى وراءه مأموماً ... ، وعامة الإمامية يذهبون إلى أن الحجة موجود ، وأنه حي يرزق ، ويحتجون على حياته بأدلة ، منها أن جماعة طالت أعمارهم كالخضر والياس ... ) (٣).

ويطرح في هذا المقام سؤال مهم : لماذا يعترض أهل السنة على فكرة المهدي الواردة عند الشيعة؟!

الجواب هو : إن الطرح الإمامي لفكرة المهدي قد يكون العقل القاصر غير قادر على استيعابه ، نظراً لاحتوائه على خوارق يعجز عن إدراكها ، كما أنه لم يعتد عليها ، وأكثر ما يحدد ويذهل العقول هو :

تولى الإمام المهدي عليه السلام الخلافة وهو صغير السن « خمس سنوات » .  
وكذلك طول عمر المهدي ( عج ) .

---

١ - الشيخ نجم الدين جعفر بن محمد العسكري ، المهدي الموعود المنتظر عليه السلام عند علماء أهل السنة والإمامية ص ٣٤٨.

٢ - ابن الجوزي / تذكرة الخواص : ص ٣٧٣.

٣ - المصدر السابق ص ٣٤٩.

المهدى عجل الله فرجه وتوَلَّى الإمامة :

إن توَلَّى مسؤولية دينية مهمة من قبيل النبوة أو الإمامة خلال المراحل الأولى من العمر لم يكن أمراً عجيباً في الفكر الإسلامي ، لأن القرآن الكريم لم يترك أى باب إلا وطرقه ، وقد تكون كل نقطة ذكرها القرآن وتطرق إليها ليس من قبيل الذكر ، ولكن من أجل توجيه العقول وتعريفها على كل الحقائق المرتبطة بالرسالة كمشروع إلهي للبشرية وكل ما يمكن أن يحيط بهذه الرسالة من التباس ، حتى لا يبقى هناك شك وتقوم البينة على الإنسان الخاضع لها.

إن القرآن الكريم أدرج لنا قصة النبي عيسى عليه السلام كمثال وعبرة لحل هذا اللغز الذي أوقف أهل العامة عن تصديق حقيقة المهدى ، إذ أن هذا النبي العظيم شرع في ممارسة عمله الرسالي وهو صغير في المهد يقيم الحجة على الناس بذلك الإعجاز الخالد ، وهو تكليم الناس في المهد وهو صبي ، إذ قال تعالى : ( يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ) (١).

وهذه دلالة واضحة على كون النبي عيسى عليه السلام مارس رسالته صغيراً ، وكانت هذه اللحظة إحدى حالات الإعجاز من أجل التصديق بالرسالة.

فإذا كان القرآن موجهاً إلينا ، فإننا ملزمون بالتمعن فى كل حيثياته ، لأنه لم يكن إيراد هذا الكم الهائل من القصص وحكايات الأنبياء السابقين من أجل التسلية ، بل للاستفلة وأخذ العبر والوقوف عند طيات الأحداث والقصد من إدراجها.

ومثال عيسى عليه السلام فى هذه الحادثة هى إحدى الدلائل على انعدام إشكالية ممارسة الأمر الدينى فى أى لحظة من العمر ، مما لا يجعل الأمر غريباً فى كون الامام المهدي تولى الامامة وهو صغير السن ، وهذه إحدى نقاط التشابه بين الامام الحجة عجل الله فرجه وعيسى عليه السلام.

المهدي عجل الله فرجه وطول العمر

إن طول العمر قد يكون من جانب الرؤية الحياتية شيئاً مستحيلاً ، لأن الإنسان فى الحياة لم يعتد على مثل هذه الأشياء ، فيظل حكم الإنسان قاصر على ما حصلته مداركه فى الحياة. فإذا أخبرت شخصاً معيناً أن فلاناً سقط من أعلى قمة الجبل ، فجوابه يكون أسرع من البرق وهو نهاية هذا الشخص ، لكنه لا يصدق إذا أخبرته بكونه لم يمت.

أو مثلاً شخصاً إذا ألقى فى النار فحتماً مصيره الموت ، لأنها أشياء تعارف عليها البشر وأصبحت حقائق ، فى حين نرى أن هذه الحقيقة تنزعج بحصول الإعجاز ، فسيدنا إبراهيم عليه السلام ألقى فى النار لكنه لم



يمت ، لكون اللطف الإلهي تدخل فقال : ( يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ) فصارت برداً وسلاماً على إبراهيم ، فخالفت بذلك ما هو متعارف في الحياة.

فمسألة طول العمر وبالشكل المطروح في حياة الإمام المهدي عجل الله فرجه يعد أمراً غير متعارف ، رغم أن الفكر الإسلامي لا يجد هذه الفكرة مخالفة للعقل ، سواءاً من جانب القرآن أو السنة النبوية :

فالقرآن الكريم تحدث عن نوح عليه السلام ، فقال : ( فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ) (١) ، بالإضافة إلى ما عاشه من دون قومه ، أي : ما يفوق الألف سنة. كما أن القرآن الكريم أورد لنا قصة أهل الكهف ، وكيف أن الله حفظهم في الكهف ما يفوق ثلاثمائة سنة.

كما أن المرويات تحكي عن طول عمر الخضر عليه السلام وبقائه إلى يومنا هذا. إذن نماذج طول العمر واردة في المصادر الإسلامية ، وهي من الأمور التي قد لا يستوعبها العقل بسهولة ، ولكن هي حقائق وقعت ولم تكن لأجل التسلية ، كما ذكرنا سابقاً ، ولكن هي حمل العقل الإسلامي على تقبلها وإخراجه من ذلك الحيز الضيق المرتبط بال حياة بحيث يفتح أفق تفكيره على مجال أوسع من قدرته العقلية.

---

١ - العنكبوت : ١٣.

ولكن طول العمر كحقيقة علمية هل يصح وقوعه أم لا؟.

إن العالم بأسره يعيش الآن هاجس طول العمر ، كما يحاول العلماء اكتشاف سرّ الحياة وأبديتها ، فترى الآن فى العالم مختبرات متعددة تحاول الوصول إلى حقيقة السرّ ، وتعمل جاهدة لإيجاد حلّ لاطالة عمر الانسان ، فتراهم كل مرة يطلعون بدواء أو حمية غذائية تزيد من طول العمر.

إذن نصل إلى نتيجة مفادها أن طول العمر حقيقة علمية ، ولولا ذلك ما أجهد العلماء أنفسهم فى تتبع هذا الأمر ، ولو سألنا أى عالم هل من المستحيل أن يعيش الإنسان مدة أطول؟ فإن جوابه يكون حتماً بالنفى القاطع ، إذ لا استحالة تمنع من بقاء الإنسان على قيد الحياة بشرط أن توفر له كل الظروف الحياتية الملائمة.

فالعلم الحالى توصل إلى حفظ الخلايا لمدة زمنية طويلة ، وذلك بحفظها داخل الأوت المائع لشهور وسنوات ، ثم يمكن إخراجها كى تمارس نشاطها الطبيعى بشكل عادى. كما أن العلم الحالى توصل إلى التلقيح الاصطناعى ، حيث يمكن حفظ نسل جيل وإعادة زرعها فى جيل آخر ، يعنى أن الإنسان استطاع أن يجعل من بعض الأشياء التى كانت مستحيلة حقيقة واقعية.

إذا كان الإنسان نفسه وفى احتكاكه مع ذاته توصل إلى هذه المعطيات ، فكيف بشى خارق باحتكاكه مع شى لا يساوى عنده جناح

بعوضه ، أى أن قدرة الله تفوق قدرة الإنسان بما لا يترك مجالاً للمقايضة.  
فإذا كان هذا الإنسان قد استطاع أن يحفظ ويطيل عمر خلية لسنوات ، فهل لا يستطيع الله أن يفعل بمن هو مكون من هذه الخلايا - أى الإنسان - بحفظه كاملاً ولمدة طويلة؟!  
قد تكون المسألة إعجازاً فى اللحظة التى لم نصل فيها إلى الحقيقة العلمية ، ولكن تصير أمراً طبيعياً إذا تم الكشف عن سرها وكنهها.

فحفظ الخلايا قبل مدة ليست بالطويلة كانت أمراً إعجازياً لأناس ذلك الوقت ، لأنها فوق قدرتهم التصورية ، لكن بالنسبة للإنسان الحالى صارت عادية ، وذلك لارتقاء قدرته العقلية.  
أشياء كثيرة موجودة فى القرآن الكريم ، ورغم تقدم العلم وتطوره لم يستطع الكشف عن حقائقها ، ومثال على ذلك مفهوم السماء ، فلقد تعارف عند الناس أن السماء هو هذا الجسم الذى يظهر بالنهار أزرقاً وبالليل أسوداً ، ومن ثم يمكن تطبيق مفهوم الطبقات بشكل ظاهرى على السماء ، وهذا السائد فى الفكر الشعبى وكذلك غير المطلعين على علم الفلك ، أى أن السماء الظاهرة ، أى الأولى ، وتتبعها بعد ست طبقات أخرى.

لكن الحقيقة العلمية أثبتت أن الشيء الأزرق الظاهر فى الصباح ( السماء ) ماهو إلا انعكاس لأشعة الشمس على خط الازون مما يكسب الفضاء ذلك اللون ، كما أن صعودك لما فوق ١٥٠ كلم ، أى

اجتياز الحجاب المحيط بالكرة الأرضية ( الاوزون ) يدخلك فى فراغ فضائى غير محدود.  
إذن هل عدم وجود السماء كحقيقة مادية مدعاة لانكارها وبالتالي انكار أشياء كثيرة داخل  
دائرة الفكر الإسلامى.

وكخلاصة ، فإنّ العقل البشرى محدود بمحدودية محيطه البيئى ، وأى شىء خارج عن هذا  
المحيط يصبح عرضةً للانكار.

أما قضية الامام المهدي عجل ل الله فرجه وطول العمر فقد لامست الجانب الواقعى بكون أن  
التاريخ أثبت حالات طول عمر كثيرة ، كما أننا نسمع فى وقتنا الراهن عن معمرين  
يتجاوزون القرن والنصف القرن ، وكذلك نظرية المهدي عليه السلام لامست الحقيقة العلمية ،  
إذ أن العلم لا ينفى بتاتاً كون الإنسان ي مكن أن يعيش مدة طويلة ، فالذى يعيش قرنين  
يمكن أن يعيش أكثر ، وذلك فى ظل توفر الظروف الحياتية الملائمة.

إذن فنظرية المهدي اجتمعت فى تأييدها كل الحقائق :

الدينية : عدم نفى الدين لهذه الحقيقة وذكر نوح وعيسى عليهما السلام.

الطبيعية : ثبوت أشخاص طويلى العمر على طول التاريخ.

العلمية : عدم تعارض العلم وطول العمر.

وكلفتة أخيرة نورد كلاماً لالبرت اشفيتسر ، يبين حقيقة الوضع الحالى وحاجته الماسة  
للخروج من هذه الأزمة قائلاً :

( وكما أن تحول التجمع الدينى ينبغى أن يكون أولاً نتيجةً لتحول

فى القلوب ، فكذلك يجب أن يكون تحول الجماعة السياسية والهيئة الاجتماعية .  
حق أن الإيمان بإمكانه تحويل الدولة الحديثة إلى دولة متحضرة أمر ينطوى على بطولة ،  
فإن الدولة الحديثة تجد نفسها اليوم فى حالة من الفقر المادى والروحى لم يسبق لها مثيل ،  
إنها تتداعى تحت وطأه الديون وتمزقها المنازعات السياسية والاقتصادية ، وانتزعت منها كل  
سلطة معنوية ، وبكل ما تستطيع أن تحافظ على هيبتها فى الأمور العلمية ، وعليها أن تكافح  
فى سبيل وجودها وسط سلسلة متصلة من الاضطرابات المتجددة ، فمن أين لها القوة أن  
تتطور إلى دولة متحضرة وهى تواجه كل هذه الكوارث؟ (١) .  
ويبقى هذا سؤالاً جوهرياً تجب الإجابة عليه ، هل فى غياب المخلص النهائى يمكن إخراج  
العالم من مأزقه الحالى وهو على مشارف حرب نووية؟! .

---

١ - البرت شفيتسر : فلسفة الحضارة ص ٤١٦ ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، دار الاندلس  
١٩٩٧ .

#### خاتمة

لقد تتبعنا في هذه الدراسة منهجية تعتمد على تفكيك الأحداث التاريخية من خلال دراسة الدائرة التي تتحرك فيها ، وانطلاقاً من نقد ما قد تمّ تدوينه في بعض الموسوعات التاريخية ، وبالأخص البداية والنهاية وموسوعة التاريخ الإسلامى.

إن الشيء الذى يجب علينا الانطلاق منه فى نقد وقراءة ما كتب فى التاريخ ، ينطلق من فهمنا لهذا العلم ، وهو التدوين المتسلسل للأحداث والوقائع ، وكذلك طبيعة ما دُوّن وتصنيفه التاريخى بمعنى أوضح ، وهو فى أى إطار نضع التاريخ المدون؟ لقد تطرق الشهيد مطهرى فى كتابه المجتمع والتاريخ إلى تحديد تقسيم للتاريخ بما هو ثلاثة أقسام : تاريخ نقلى ، تاريخ تحليلى ، وتاريخ فلسفى.

قد يكون الأمر لا يحتاج إلى نقد ، إذا كان نوع التاريخ المدون نقلى ، باعتباره يعتمد فقط على نقل الأحداث بما هى أحداث رائج فى الأوساط ، وصحة وقوعها على عهد الأشخاص الراوين ، ولا يكلف المؤرخ فى هذه الحالة نفسه عناء التحقيق ، وبهذا يكون مادون لا يعبر إلا عن أشياء رائج فى المجتمع ، لا علاقة لها بالوضع السياسى القائم.

ص: ٢٤٤

أما ما يجب النظر فيه ، وهو ما أخذ الكاتب العهد على نفسه بتتبع الأحداث وإعطائها الأبعاد التي يراها حقيقية ، الشيء الذي يجعله يفضلّ حادثة على أخرى ، بتوهين بعضها وتقوية الأخرى.

وتدخل البداية والنهاية وموسوعة التاريخ الإسلامى فى هذا النوع من التاريخ ، لأنهما لم يكتفيا بإيراد الأحداث ، بل علّقا عليها رغبة فى إخراج موسوعة جاهزة للمجتمع تعبّر عن وجهة نظر معينة.

إن عملية النقد التي ندعوا إليها هي نوع من الثورة على المقدس الذي خلقه التاريخ ، والتخلص من كل رواسب التبعية الايدولوجية . لأن البحث الحضارى ينطلق من قراءة موضوعية للأحداث التي عرضها التاريخ الإسلامى وتمحيصها بالشكل الذى نستطيع من خلاله الإجابة على أسئلة الحاضر ، واستشراف المستقبل برؤية نهضوية مبنية على الاستعداد المعرفى والعلمى لاحتضان الموعود الإلهى المنتظر.

قد يكون الكلام إيدولوجيا ، لكن الحقيقة التي يجب أن ننطلق منها هي أن عالمنا عالم الايدولوجيات ، حيث لا يمكن قراءة العالم الإسلامى فى غياب إيدولوجية واضحة تحدد مصيره المستقبلى ، خصوصا أن الرهانات المستقبلية ليست رهانات لحظية أو تكتيكية ، بل هي رهانات ذات أبعاد استراتيجية تعتمد على الإنسان كفاعل تاريخى ، الإنسان المكلف بالاستخلاف ( إني جاعلٌ فى الأرض خليفَةً ) والذي أنيط به تحقيق هذه الخلافة على وجه الأرض وذلك بوعد إلهى : ( وَلَقَدْ كَتَبْنَا فى الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِى الصَّالِحُونَ ).

وكما أسلفنا سابقاً على أن الخطاب في الحقل الإسلامى هو خطاب إيدلوجى ينبنى على معطيات مقتبسة من الكتاب والسنة ، أو بمعنى آخر بالموروث التاريخى ، وهنا يطرح الإشكال وتظهر ضرورة الإجابة النقدية ، لأن الموروث التاريخى قد تداخلت فيه العوامل الزمانية ومحورته بالشكل الذى يستجيب فيه للحظة التى يعيشها ، وهذا بالطبع فى غياب الحاضن الفعلى لهذا الموروث مما يجعل رسالة الإنسان غير مكتملة فى تحديد مع انى هذه الرسالة كى تعطى إجابة كافية توصل الإنسان إلى هدف خلقتة.

إن الإنطلاقة الفعلية للفكر الإسلامى باعتباره الأرضية التى تتفاعل حوله الرسالة يبتدأ بالبناء المنهجى لآلياته ، وذلك بتحديد الإطار المرجعى الذى يمكن أن يعطى نقطة البدء ويحدد المفهوم الحقيقى لها ولحقيقة هذا الفكر ، لاعتبار هذا الأخير حالة نسبية تدور فى فلك البشر مما لا يعطيه فاعلية فى الساحة العملية ، وتبقى الحالة الوحيدة هى إيصالها إلى حالة الإطلاقة حيث يعطى الوجه الثانى لحقيقة الرسالة ، وقد تجسد بالتطور التاريخى لحركة الرسالة وملازمتها للعترة الطاهرة عليهم السلام ، حيث قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى ».

إن حركة الفكر الإسلامى والذى نريد إيجاده هو المتحرك فى دائرة القرآن ، ولكن هذا لن يتأتى إلا بإعادة النظر التاريخى ، فقد فقد آل



البيت مكانتهم من خلال التزوير التاريخي ، فأحدث في الدائرة الإسلامية تفرعات فكرية خالفت في أصولها القاعدة العامة والهدف العام للرسالة ، ويبقى الحل الوحيد هو عملية الهدم وإعادة البناء من جديد ، إعادة هدم الموروث المعرفي القديم ذا الطبيعة التاريخية وإعادة إنتاجه على أرضية صلبة ، حتى يخرج من الأزمة التي يتخبط فيها في الوقت الراهن. إن الأزمة المعرفية التي يتخبط فيها الفكر الإسلامي تتلخص في عدم المزاجية بين معطيات النص المقدس - القرآن - والحقيقة الزمانية والمكانية ، أى غياب قراءة صريحة له. وقد تتجلى هذه القراءة ليس فقط على مستوى التاريخ ، بل تتفرع إلى كل المعارف الإسلامية الأخرى والتي تحدد دائرة الحقل الإسلامي ، من علم كلام ، وفلسفة ، فقه وأصول ... وقد كان الامام على عليه السلام يعبر عن قدرته بقوله : « استلوني قتل أن تفقدوني ». إذن الإجابة الكاملة على كل الإشكالات تتمثل في إيجاد التوأمة التي فُقدت خلال الأزمنة الغابرة ، وهي علاقة الكتاب وآل البيت ، حتى يتم استيعاب المفاهيم العامة والخاصة التي تتحرك في دائرة الفكر الإسلامي.

يبدو الأمر واضحاً على أن الحاجة الماسة لـ لمجتمع البشرى الحالي هي إعادة الارتباط الحقيقي مع الروح البشرية ، حتى تفر من ذلك الانقسام الذي ظلت تعيشه خلال مدة زمنية طويلة ، لتصل إلى الهدف

ص: ٢٤٧

الغائي الذي رسم منذ أول الخلقة بتحقيق العبادة الكاملة لله سبحانه وتعالى بالشكل الذي هو مسطر منذ الأزل وتحقق حالة التذكر والرجوع إلى الحالة الأولى والتي كانت في عالم الذر والتي عبر الله تعالى عنها بقوله : ( وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ) (١) ، والعودة الحقيقية لا تكون إلا بوجود ذلك الموجه والهادي الذي يحدد الخطوط العامة لحركة الأمة في طريقها إلى الله تعالى.

يبقى إذن الهدف الأساسي لإعادة النظر في التراث القديم ليس إثارة الفتن وإحلال الفوضى في المجتمع أو التفرقة ، بل هو إعادة المصالحة مع الذات التي فقدت هويتها تحت تأثير عدة عوامل قد ذكرناها خلال مسارنا في البحث ، والتي يعتبر العامل السياسي المحرك الأساسي لها ، يليه بعد ذلك العامل الايدلوجي ، مما أعطانا تاريخاً مبتدلاً ، امتزجت فيه الحقيقة والخرافة ، المتحول والثابت ، مما يستدعي التعجيل بثورة معرفية علمية ، حتى يستقيم أمر هذه الأمة وترجع إلى رشدتها الذي سلب منها.

كما أن عملية النقد يجب أن تطال كل الجوانب ، والتي أغفل المؤرخون ذكرها أو حاولوا إعطاءها نوعاً من الشرعية بتطبيق بعض مناهج الحديث ، مما جعل تاريخنا ذا صبغة حديثة أكسبته القدسية

وتوقف العقل المسلم عن النظر فيه وتتبع عثراته ، إذن يبقى المخرج الوحيد هو تحديد هويتنا من خلال سؤال مَنْ نحن؟ فى ظل تاريخ غامض ، هذا التاريخ الذى لا يمكن أن يعبر عن نفسه إلا إذا انسجم مع الوعى العام للمجتمع الإسلامى ، ويكون هذا الأخير هـ و المحرك الحقيقى الذى تتبلور فيه المعارف ، والأرضية المقبلة على التحول ، قد تكون الدعوات التاريخية دعوات من أجل إخراج المجتمع من حالة الركود التى يعيش فيها ، ولكن قد تصاب بخيبة أمل إذا ما انفصلت عن المحدد والمحرك الحقيقى والذى عبرنا عنه بالوعى ، إذ تبقى المراجعات التاريخية مجرد إعادة المستهلك من القديم ومحاولة إحيائه بشكل يفقده خصائصه الثورية ، لذا لا يتميز مفهوم التاريخ إلا إذا انحاز إلى الوعى وحل كله فيه .

بعبارة أخرى واضحة فى ضوء التحليلات السابقة : لا يكتسب المجتمع التقليدى فكرة التاريخ إلا فى إطار الد عوة التاريخية ، ... ولا يكفى أن يقلد المجتمع التقليدى منهج توكديد أو ابن خلدون أو ماركس أو فرويد ، لأن فى ذلك مجرد إبدال تقليد بآخر ، بل يجب أن يمر هو نفسه بتجربة هؤلاء جميعاً ويكتشف بدوره كنههم الأساسى إبداعية الإنسان وإنسانية الأخبار .

إن عملية البحث التاريخى لا يعنى بها معاودة التحقيق وإنتاج التحقيق على التحقيق ، وإنما استخراج العيوب مع استخلاص العبر ، بالشكل الذى يعطى دفعة للمجتمع نحو الرقى والتقدم .

قد نعطي مثالا بسيطاً بالتاريخ الإسلامى حينما تجمد العقل عند التقليد ، وخصوصاً فى المدرسة السنية ، ظل التفكير فى المحيط الذى رسم خلال إنتاج تلك الفكرة ، سواءً على مستوى الفقه أو الفلسفة والتاريخ ، ووصل بالأخير إلى حالة الأزمه والتخلف مما أدى فى نهاية المطاف إلى الاندحار على كل الأصعدة والمجالات ، فتوقف الفقه عند الأربعة والفلسفة عند ابن رشد والتاريخ عند الطبرى ، ولم تصبح دائرة العقل الإسلامى السننى تستحمل أكثر مما طرح فى تلك الفترات التاريخية ، وقد كان الفكر الشيعى أوشك على الوقوع فى نفس الخطأ بعد وفاة الخواجه نصير الدين الطوسى ، حتى سمي القرن الذى يليه بقرن المقلده ، لكن الأبعاد المعرفية التى تحويها مد رسة آل البيت جعلتهم يخرجون من هذا المأزق ، وأثمرت بذلك حركة الإبداع والتجديد.

إن الاعتبار من التاريخ كان جزءاً مهماً فى الطرح القرآنى ، بحيث تناول أغلب الموضوعات من خلق البشرية إلى مابعد وأعطى للأمم استشراق المستقبل وحدد مفهوم لتطور الأحداث والتواريخ وسماه بالقصص ، حيث قال تعالى : ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ) (١) ، مما يعطى للحدث التاريخى مفهوم من خلال معنى القصة والتى يُتوخى منها العبرة ، وكذلك الدعوة الإلهية إلى ذلك فى قوله تعالى : ( قُلْ سِيرُوا

فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١) مما يعطى للقرآن بُعداً تاريخياً في تتبع الوقائع وإعطاء الأسباب واستخلاص النتائج ، مما يلزمنا باتباع منهج القرآن ، وهو تقفى الآثار وطرح التساؤلات والإجابة عن الإشكالات كي ترجع للأمم هويتها المفقودة في ظل فكر إسلامي منسجم من أجل البناء المستقبلي لدولة العدل الإلهي ( أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ) (٢).

---

١ - الأنعام : ١١.

٢ - الأنبياء : ١٠٥.